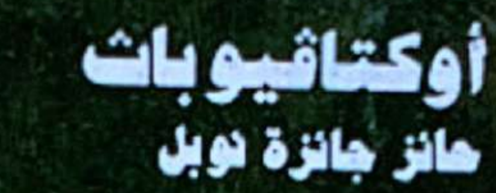


أوكتافيو باث

حائز جائزة نوبل

متاهة الوحدة

ترجمة

ترمين ابراهيم عاجل

راجع النص العربي

د. مجيد بكتاش

دار المأمون

متاهة الوحدة

تأملات نقدية



دار المأمون

أوكتافيو باث

حائز جائزة نوبل

متاهة الوحدة

تأملات نقدية

ترجمة

نرمين ابراهيم عاجل

راجع النص العربي

د. مجيد بكتاش

دار المأمون للترجمة والنشر

بغداد ـ ١٩٩٦



ص . ب ـ ٨٠١٨

تلكس ـ ٢١٢٩٨٤ Telex - 212984 MAMUN IK

جمهورية العراق ـ بغداد

طبع بمطابع دار الحرية للطباعة

مترجم عن الاسبانية

المحتويـــــات

المقدمة

« في الثاني من اهان كاتون وطيء الاجانب ارضنا ، بلحاهم الشقر ، ابناء الشمس ، الرجال ذوو السحن البيض . ٥٢ فليلفنا الحزن بلجته اذا هم قدموا. ستهبط عصا الابيض ، من السماء ستأتي ، من كل الجهات ستأتي ، وحزينة ستمسي كلمة أوتاب ــ كو الاهتنا الوحيدة ... » هكذا تصف الشهادة التي وردت في كتاب تشيلام بالام سقوط المجتمع الازتيكي ساعة الغزو الاسباني « تلك الكارثة التي أغرقت الكثير من البشر في حزن هائل » ، اذ يرحل الالهة ويستسلم القائد موكتيثوما « الـذي شعر بأنه كان مأخوذا على نحـو غريب بالاسبان وان دوامة قدسية قد لفته امامهم » . « وفي لحظة السكون تلك يرفع الشعب الازتيكي وجهه صوب السماء ، فاذا ببروجها تقف في وجهه ، عندئذ حسب يراوده شعور بأن الموت يغويه » . لقد خذلته الالهة ، تلك هي الخيانة الكبرى التي أشرت تأريخ المكسيك ، البلد الذي أغفله التأريخ خمسة عشر قرنا وأهتدى اليه الاسبان غزاة ليبسطوا نفوذهم ويفرضوا لغتهم ودينهم ونظمهم بدلا من كل ما عرفت به الحضارة الازتيكية من نظم دقيقة ومن تفوق في العمـارة والزراعة والتقاويم . وذلك هو الغزو الذي سيعده المؤرخون الاسبان فيما بعد واحدة من ثلاث أساطير او صفحات سود وصمت التاريخ الاسباني الى الابد ، الى جانب محاكم التفتيش والحرب الاهلية الاسبانية . من هنا ، اذن ، بـدأ تاريخ المكسيك ، ومن هنا أيضا بدأ احساس المكسيكي بالوحدة . وما كـان لاوكتافيو باث ، المفكر والناقد ، الا أن يتأمل تلك الوحدة عميقا سابرا اغوارها ومحللا اوجهها وابعادها .

وفي عام ١٩٣٧ شارك اوكتافيو باث نفسه في الالوية الدولية في الحرب الاهلية الاسبانية التي انتهت بانتصار اليمين الذي دشن بعدها اربعين عاما من الحكم الفرانكوي ، وبهزيمة اليسار . ولم يغفر اوكتافيو باث للاتحاد السوفيتي

خذلانه الاحزاب اليسارية والتقدمية في تلك الحرب وتخليه عنها ، فيرحل الى باريس ليحيا فيها مثقفا سرياليا بعد أن تعرف الى أندريه بريتون وتأثر بحركته الذائعة الصيت آنذاك . غير انه ظل مسكونا بالوحدة يشهر نقده حادا صارما حرا في وجه كل ما بدا له زيفا ونفاقا . ثم يشد الرحال الى اليابان وبعدئذ الى الهند ممثلا دبلوماسيا لبلاده ، وهي المرحلة التي ستخلف آثارا واضحة في اشعاره وتأملاته بعد أن اطلع على الفلسفات والمعتقدات والعوالم الشرقية الساحرة ، الا انه سرعان ما قدم استقالته اثر عمليات القمع التي تعرض لها الطلاب في موجتهم العارمة التي اجتاحت العالم عام ١٩٦٨ واحتجاجا على المجزرة التي ارتكبت في مدينة مكسيكو بحقهم .

وهكذا مضى اوكتافيو باث حياته مبهظا بذلك الاحساس الممض ومثقلا بتلك التجارب العميقة والدهشة التي خبرها بروح الشاعر وبعقل المفكر دون أن يتخلى عن بحثه المحموم عن الاخر وعن التصدي لكل شاردة وواردة بالشعر تارة ، وبالنقد تارة أخرى ، أوليست هي مهمة المفكر بل ((الانتلجنسيا)) المطالبة دوما بخلق ادوات الوعي وبنقد الواقع التي افرد لها فصلا في ((متاهة الوحدة)).

لقد كان اوكتافيو باث يكتب ما يمليه عليه شرطه الشعري والفكري بل شرطه الانساني ، وهو يفعل ذلك بحس كوسموبوليتي رائع لا يعرف الحدود ولا الجغرافيا ولا الانتماءات على الرغم من انه كان ينطلق دوما من مكسيكيته ومن تاريخه وموروثه الحضاري . اما الوحدة والصمت فهما صنوا منجزه ورفيقا شوطه . فهو يحسن الصمت والتأمل مثلما يحسن صياغة افكاره واشعاره . كلماته مشحونة ومترعة بكل ما تحمل من معان وصور ، ولذا تراه يدافع عن الكلمة بل حتى عن النابية منها ، فهي ((كلمات قدسية كالشعر وكلفة الاطفال)) .

وفي ((متاهة الوحدة)) يختزل الكاتب تجاربه كلها ويقدم لنا عصارة تأملاته في الانسان والتاريخ والدين والاسطورة والحب والثورة ، وتبقى الوحدة موضوعته الاثيرة وهاجسه الملحاح . ينثر اسئلته على صفحات الكتاب ، يجيب عن بعضها ويترك الاخرى للتاريخ أو لنا ، وليس أمامنا الا أن نجيب عنها او نقابلها باسئلة لا تقل غموضا . أترانا بعد رحلة البحث التي يقتادنا اليها سنعثر على الاخر أم اننا سنعود الى ذواتنا والى وحدتنا لنقيم بها وننشد خلاصنا ، الى

تلك المتاهة « اللابرينث » او ذلك الحصن المنيع الذي نلوذ به هربا مـن الاخر ان الوحدة حاضرة في الولادة والموت ، في الحب والشعر وفي العيد والفناء .. فهذه جميعا اقنعة نتوارى خلفها وبها نخفي احساسنا بتلك الوحدة . ومن كل هذه الثنائيات يشيد الكاتب متاهـة قائمة بذاتها بيد أنها تفضي الى المتاهـة الاكبر .. الى متاهة الوحدة التي يجوس خلل دهاليزها ويفك طلاسمها ومغاليقها ببراعة فذة وبمقدرةثرة على التأمل الاصيل بأسلوب شائق لا يعدم الشعر فيه .

لقد اختلف النقاد في اوكتافيو باث بين مؤيد له ومعارض ، الا انهم اجمعوا على انه « يكتب كالالهة » . حسبنا ، اذن ، قراءة هذا لكتاب لنسلم بهذا الرأى أو ندينه . أما « متاهة الوحدة » فقدكانت ومازالت مثار جدل وموضع دراسة وقد عدت أفضل شهادة او بحث سوسيولوجي في المجتمع المكسيكي .

واذا ما أتيح للقارىء الكريم أن يطلع على الابداع الشعري والسردي في قارة اميركا اللاتينية ، فارجو ان أكون قد وفقت في أن انقل اليه عملا بارزاً من النتاج الفكري في تلك القارة الذي يتبوأ اوكتافيو باث اليوم الذروة منه .

وفي ختام هذه المقدمة لا يسعني الا ان أزجي الشكر خالصا عميقا لاستاذنا الفاضل الدكتور مجيد بكتاش ، لكل ما جاد به من جهد صادق وحرص نبيل ولما أتسم به من أمانة علمية عالية عند مراجعته الترجمة وابدائه الملاحظات القيمة والسديدة . فاليه ثانية تقديري وعرفاني .

المترجمة

١٩٩٤

ليس للاخر من وجود : هوذا جوهر الايمان العقلاني ، عقيدة العقل البشري التي لا رجاء منها . فالتطابق الذاتي هو الحقيقة ، وفي النهاية لابد من ان يكون كل شيء ، بالضرورة المطلقة ، هو ذاته . بيد ان الاخر لن يسمح بمثل هذا الالغاء ، لذا فهو يبقى ويدوم . انه العظم الجاسيء الذي يتعذر على العقل ان يسحقه فيتخلى عنه الى الاضراس . وفي هذا السياق كان آبيل مارتين[1] يؤمن ايمانا شعريا لا يقل انسانية عن الايمان العقلاني بالاخر و بـ « تغاير الكينونة الجوهري » و بـ « الاخرية » التي لا رجاء منها والتي ينوء بها الفرد الواحد .

انطونيو ماتشادو

---

(١) آبيل مارتين : شخصية وهمية ابتدعها الشاعر الاسباني الكبير انطونيو ماتشادو ليبث على لسانها افكاره ورؤاه الشعرية والفلسفية والنقدية .

(المترجمة)

الفصل الاول

الباتشوكو ونهايات أخر

في لحظة ما ، يتبدى لنا وجودنا جميعا شيئا متفردا رائعا لا يقبل التحول . وكثيرا ما يخالجنا مثل هذا الاحساس في فترة المراهقة ، اذ ينبىء اكتشافنا ذواتنا عن نفسه من خلال ادراكنا وحدتنا ، فينشق ذلك الجدار اللاملموس والشفاف الذي ينهض بين العالم وبيننا الا وهو جدار وعينا . حقا أننا ، ما أن نولد حتى يداخلنا شعور بوحدتنا ، الا ان الاطفال والكبار بمستطاعهم تجاوز وحدتهم ونسيان ذواتهم في اللهو او في العمل ، اما المراهق المتأرجح بين الطفولة والشباب فيبقى ، خلافا لهم ، في حيرة من أمره ازاء ثراء العالم اللامتناهي ، تسحره الكينونة فيبدأ تأمله بفعل ذلك السحر : هاهوذا ينحني فوق صفحة النهر ، نهر وعيه ، متسائلا أكان ذلك الوجه الطالع متمهلا من القاع ، مموها بالماء هو وجهه . لكن التفرد بالكينونة ، هذا الاحساس المحض لدى الطفل ، سرعان ما يستحيل مشكلة وسؤالا ووعيا مستفهما .

تشهد الشعوب التي تحيا في طور النمو شيئا مماثلا ، اذ تبرز لها كينونتها كالسؤال دوما : ما ماهيتنا وكيف يتسنى لنا ان نحقق ماهيتنا هذه ؟ الا ان التأريخ غالبا ما يفند اجاباتنا عن هذه الاسئلة ، فما يدعى : « عبقرية الشعوب » ماهو الا مجموعة من ردود الافعال التي يستثيرها باعث معين ، أما الاجابات والشخصية القومية التي كثيرا ما زعموا أنها ثابتة فهي تتباين بتباين الظروف .. وعلى الرغم مما تتسم به الدراسات السايكولوجية في بعض الاحيان من طبيعة مضللة فان اصرار الشعوب على التأمل وعلى طرح الاسئلة ليبدو لي امرا واضح الدلالة . كما ان ايقاظ التأريخ يعني أن نمتلك وعيا بتفردنا ، وتلك هي لحظة السكون التأملية التي تسبق استغراقنا في العمل ،

وفي هذا المعنى يقول نوفاليس[٢] : « حينما نحلم أننا نحلم فان اليقظة تمسي وشيكة » • لا بأس اذن وليصحح الزمن فيما بعد أجاباتنا عن اسئلتنا تلك لأن المراهق يجهل ما سيطرأ مستقبلا من تحولات على الوجه الذي يتراءى اليه خلل الماء ويصعب عليه استيضاح معالمه أول برهة ، كما لو انه حجر مقدس تعاورته الاخاديد والشقوق • وتبعا لهذا فان القناع الذي يضعه الشيخ على وجهه ماهو الا تأريخ لبعض الملامح المموهة بالماء والمشوبة بالغموض ، اهتدت اليها على نحو قلق ظرة مستغرقة في التأمل واستحالت في اثرها وجها فقناعا فمغزى فتأريخا •

كنت أحسب ، حتى عهد قريب ، القلق الذي تبعثه في داخلي مظاهر التفرد في بلادي ، ذلك القلق الذي يشاطرني فيه الكثيرون ، امرا خطيرا لا مسوغ له• اذن ، أما كان ابداعنا وعملنا من أجل واقع لا يهب نفسه لمن يتأمله بل لمن هو أهل لسبر أغواره خيرا لنا من طرح هذه الاسئلة على أنفسنا ؟ فما يمكن أن يميزنا من باقي الشعوب لن يكون نابعا من أصالة شخصيتنا المشكوك فيها دوما ، شخصيتنا التي كانت ثمرة لظروف دائمة التغير ، بل سينبع من اصالة ابداعنا ، لذلك كنت أرى أن عملا فنيا أو موقفا ما يعرفان بالمكسيكي تعريفا يفوق أعمق وصف يوصف به ، لانهما يعبران عنه ويعيدان خلقه من خلال ذلك التعبير • ولهذا رحت أتذرع بسؤالي وبأسئلة الاخرين خشية الاصطدام بالواقع وبكل النظريات التي وضعت في شخصية المكسيكي المزعومة والتي لم تكن في حقيقتها غير حيل ذكية تظهر عجزنا الابداعي ،

---

(٢) نوفاليس (١٧٧٢–١٨٠١) : فريدريك ليوبولد فون هاردنبرغ الشاعر والمفكر الالماني المعروف . عد واحدا من ابرز رموز الحركة الرومانسية في القرن الثامن عشر . من أهم اثاره الشعرية : (أناشيد الليل ، تسابيح روحية). (المترجمة)

وكنت اذ ذاك أوافق صامويل راموس[٣] في اعتقاده أن ما يجعلنا أكثر ميلا الى التحليل هو شعورنا بالنقص وأن ما يعلل الشحة في ابداعاتنا انما هو شعور غريزي بفقدان الثقـة بطاقاتنا لا نمـو قدراتنا النقدية على حساب قدراتنا الابداعية .

ومادام المراهق لا يتمكن من نسيان ذاته ، فهو ما أن يبلغ ذلك حتى يكف عن أن يكون هو نفسه ، ترانا أيضا لا نقوى على الهرب من حاجة بنا الى التساؤل والتأمل . لست أزعم القـول هنـا ان المكسيكي هـو ناقد بالسليقة ، بل انه يعيش مرحلة تأملية ، لذا كان من الطبيعي ان ينطوي على ذاته وان يتأملها لحظات في تلك الفترة الانفجارية التي أعقبت الثورة . اما هذه الاسئلة التي نطرحها على انفسنا الان فقد يتعذر علينا فهمها في غضون الخمسين عاما القادمة ، اذ لابد للظروف الجديدة من خلق ردود افعال جديدة .

لم اشمل في هذه التأملات سكان بلادي جميعـا بل قصرتهـا علـى شريحة معينة منهم ، تتألف لاسباب شتى من اولئك الذين يعون كينونتهـم بوصفهم مكسيكيين . وخلافا للرأي الشائع كانت هـذه المجموعة صغيرة نوعا ما ، ففي بلادنا لاتتعايش أقوام ولغات متباينة حسب بل ثمة مراحـل تأريخية متفاوتة ايضا ، هناك من عاشوا قبل التأريخ واخرون عاشوا على هامشه كالاتومبين[٤] الذين رحلوا عن ارضهم بسبب الغزوات المتعاقبـة . وبعيدا عن الاسهاب في ذكر الامثلة فان عصوراً عدة كانت تتصادم فيما بينها ، تجهل بعضها بعضا ويلتهم بعضها بعضا فوق رقعة أرض واحدة أو في مناطق

---

(٣) صامويل راموس (١٨٩٧–١٩٥٩) فيلسوف وكاتب مكسيكي بارز تبوأ مناصب سياسية مرموقة ، من مؤلفاته (صورة الانسان والحضارة في المكسيك) . (المترجمة)

(٤) الاتوميون : قبائل هندية مكسيكية . تشير المعلومات التأريخية المتيسرة الى انها كانت أول الاقوام البدائية التي استوطنت شرقي المكسيك . (المترجمة)

تباعد بينها بضعة كيلومترات . وهكذا كان « كاثوليك بيدرو الناسك[٥] ويعاقبه العصر الثلاثي[٦] » وابطال وعادات وتقاويم وأفكار روحية متباينة تحيا معا تحت سماء واحدة . فالعصور القديمة لا تأفل أبدا وكل الجراح حتى اقدمها ما برحت تنز . وفي داخل المدينة الواحدة او النفس الواحدة تتمازج وتتداخل أحيانا أفكار وأحاسيس متضاربة ومتصارعة مثلها مثل أهرام عصر ما قبل كورتيس[٧] التي كثيرا ما كانت تحجب اهراما اخرى* . ولم تكن تلك القلة من المكسيكيين الواعين ذاتهم فئة جامدة او منغلقة . كما انها لم تكتف بكونها الطبقة النشيطة الوحيدة حيال خمول الطبقة الهندواسبانية الاخرى ، بل راحت تعمل يوميا على صنع البلاد بحسب

---

(٥) بيدرو الناسك (١٠٥٠ ؟ – ١١١٥) راهب فرنسي انضم الى الحملة الصليبية الاولى مبشرا دينيا فيها .
(المترجمة)

(٦) العصر الثلاثي : هو العصر الجيولوجي الذي يسبق عصرنا الحالي ويقال انه دام بين ٧٠–٢٠٠ مليون سنة .
(المترجمة)

(٧) عصر ماقبل كورتيس : نسبة الى ايرنان كورتيس قائد الحملة الاسبانية لغزو المكسيك في عام ١٥١٧ .
(المترجمة)

* كثيرة هي الامثلة في تاريخنا المعاصر عن مثل هذه المعايشة والتداخل بين مختلف المراحل التأريخية : فهنالك الاقطاعية البورفيرية الحديثة (وهنا استخدم هذا المصطلح بانتظار المؤرخ الذي سيصنف اخيرا تلك المراحل التأريخية طبقا لاصالتها) التي سخرت الفلسفة الوضعية لمصلحتها لكي تجد لها تبريرا تأريخيا ، والفلسفة البرجوازية أيضا ، وهنالك غاوس وباسكونثيلوس المفكران الرائدان في الثورة اللذان اعتمدا افكار بوترو وبيرغسون للوقوف في وجه السياسة البورفيرية القائمة على الفلسفة الوضعية ، وهنالك التعليم الاشتراكي في بلد حديث عهد بالرأسمالية ، والجداريات الثورية على جدران المباني الحكومية ... كل هذه التناقضات الجلية تستلزم دراسة جديدة لتأريخنا وحضارتنا اللذين تكونا بفعل تيارات وعصور كثيرة .

ما تشاء ثم نمت فاجتاحت المكسيك حتى بات بوسع الجميع الاحساس بانهم مكسيكيون حقا . فكان يكفي ، على سبيل المثال ، ان يجتاز اي مكسيكي الحدود ليطرح على نحو مبهم الاسئلة نفسها التي اثارها صامويل راموس في « صورة الانسان والحضارة في المكسيك » . وهنا لابد لي من الاعتراف ان الكثير من التأملات التي تؤلف جزءا من هذه الدراسة قد ولدت بعيدا عن المكسيك ، في ذينك العامين اللذين قضيتهما في الولايات المتحدة . واذكر أنني في كل مرة كنت أنصرف فيها الى تأمل الحياة الاميركية كانت تحدوني رغبة على البحث عن معنى لها . ولطالما ألفيت نفسي متسائلا امام صورتي ، تلك الصورة التي ارتسمت في قاع الولايات المتحدة المتلالىء وكانت أول وأعمق اجابة أحصل عليها في تلك البلاد عما أثيره من أسئلة . ولهذا فحينما أردت تسليط الضوء على بعض من ملامح المكسيكي في يومنا هذا ، بدأت بأولئك الذين يحسبون أن كونهم مكسيكيين يعد مشكلة حيوية حقا ان لم تكن مشكلة حياة او موت .

في بداية حياتي في الولايات المتحدة اقمت زمنا بمدينة لوس انجلوس ، تلك المدينة المأهولة باكثر من مليون نسمة من اصل مكسيكي . ومن يزور هذه المدينة سيفاجأ أول برهة بطابع المدينة المكسيكي حد الغرابة والعصي على الوصف مثلما سيفاجئه صفاء سمائها وبشاعة مبانيها الشاهقة والمتفرقة . انها الروح المكسيكية المولعة بالزخارف ، بالاهمال ، بالبهاء ، باللامبالاة بالعواطف وبالكتمان تطفو في الفضاء . واقول تطفو لانها لا تمتزج بالعالم الاخر ولا تتلاشى فيه ، العالم الاميركي المجبول على الدقة والنشاط .. تطفو فيه ولا تجانبه ، تتمايل بفعل الريح ، احيانا تتشظى مثل سحابة وفي احيان اخرى تشمخ مثل صاروخ ساعة انطلاقه ، تزحف ، تنطوي ، تنبسط ، تتقلص، تنام او تحلم بروعة بالية وتطفو لا تمل الكينونة ولا تكل عن التلاشي .

والشيء نفسه يمكن ان يقال عن المكسيكيين الذين نصادفهم في الطرق. فعلى الرغم من السنوات الطوال التي قضوها هناك فانهم مازالوا يحتفظون بنمط ملبسهم وبلغتهم وبشعورهم بالخجل من اصلهم . لذلك لا أحد يخطئهم من بين الاميركيين .

لا يظنن بعضكم ان في ملامحهم ما يميزهم من الاخرين مثلما يعتقد عامة الناس بل ان الفارق بينهم وبين باقي السكان ، كما يبدو لي ، هو هـذه السمة الخفية الزائغـة التي يتفرد بها الاشخاص المتنكرون ، أولاء الذيـن يخشون نظرة الاخرين القادرة على تعريتهم واماطة اللثام عن حقيقتهم . فحينما تحادثهم تجد انهم يبدون نوعا من التردد كما لو أنهم بندول فقد صوابه وراح يتأرجح بعنف ودونما ايقاع . وحالة حضور الروح هذه او حالة غيابها هي التي ولدت ما اصطلح على تسميته : (الباتشوكو) . (فالباتشوكو) ، كما بات معروفا ، هم جماعة من الشباب تقيم بالمدن الجنوبية وتنحدر عموما من اصول مكسيكية . وهذه الجماعة تتفرد بنمط ملبسها وسلوكها ولغتها على حد سواء ، وهي متمردة غريزيا ، وفضلا عن ذلك كانت دوما هدفـا لنقمة العنصرية الاميركية . وهذه الجماعة لا تطالب بحقوق قومية ولا عرقية . وعلى الرغم مما يشي به سلوكها من رغبة عنيدة ومتعصبة بعض الشيء في اثبات كينونتها فانها تظل رغبة لا ترمي الى توكيد شيء معين سوى تصميم غامض ، كما سنرى فيما بعد ، على الا تتشبه بالاخرين ممن يحيطون بها . والفرد منها لا يسعى الى العودة الى اصله المكسيكي ولا يظهر رغبة في الاندماج في الحياة الاميركية . ان كل ما فيه هو اندفاع محض ينكر ذاته ، حتى ليخيل الينا انه بؤرة من التناقضات ولغز . وأول لغز فيه هو أسمه نفسه : « باتشوكو » مفردة لا يعرف لها انتماء ، تعني كل شيء ولا تعني شيئا ، فأي مفردة غريبة هذه التي تفتقر الى المعنى الدقيق ، او على نحو ادق هذه المفردة المشبعة بكل الابداعات الشعبية وبالمعاني الثرة . اذن شئنا ام أبينا فهم مكسيكيون وهم أحـدى النهايات التي ربما سيؤول اليها أمر المكسيكي يوما ما .

يبدو أفراد هذه الجماعة عاجزين عن استيعاب حضارة تنبذهم دون غيرهم • فالباتشوكو لم يلق ردا اخر على هذا المناخ العدواني سوى توكيد شخصيته على هذا النحو الساخط • في حين نجد أن مجموعات اخرى* كان لها ردود افعال مختلفة : فالزنوج ، على سبيل المثال ، الذين يلاحقهم التعصب العنصري لم يثنهم شيء عن محاولتهم اجتياز [الحد الفاصل] الذي يحول دون انضمامهم الى المجتمع ، وعن تطلعهم الى أن يصبحوا كغيرهم من المواطنين • اما المكسيكيون فقد عانوا رفضا اقل عنفا ، الا أنهم راحوا يؤكدون اختلافاتهم ويكرسونها ويسعون الى تبريرها بعيدا عن أية محاولة تأقلم مثيرة للجدل مع تلك البيئات النموذج • لذا فان مظهرهم المتأنق والمضحك وسلوكهم الفوضوي لا يدلان على ظلم المجتمع او عجزه عن احتوائهم انما يفصح عن رغبة شخصية في الابقاء على اختلافهم •

ولعل معرفة الاسباب الكامنة وراء هذا الصراع تغدو مسألة غير ذات اهمية ، ودونها اهمية معرفة اذا ما كان لتلك الاسباب من حل أو لا • ففي أمكنة كثيرة ثمة اقليات لا تتيسر لها الفرص نفسها التي يتمتع بها بقية السكان • واللافت للنظر في هذا هو تلك الرغبة الملحاح في الاختلاف وهذا التوتر القلق الذي يؤكد فيه المكسيكي المعدم ، اليتيم الاهل والقيم ، اختلافاته حيال العالم • لقد خسر الباتشوكو كل موروثه ، لغته ، دينه ، عاداته

---

* في السنوات الاخيرة ظهر في الولايات المتحدة عدد كبير من جماعات الشباب التي تعيد الى الذاكرة صورة « الباتشوكو » تلك الجماعة التي برزت في أعقاب الحرب . ويبدو ظهور هذه الجماعات امرا طبيعيا ، فالمجتمع الاميركي ينغلق على نفسه ، يحيا نوعا من التحجر في داخله حتى اضحت الحياة عاجزة عن النفاذ اليه ، لذا فهي تتبدد مرفوضة ، تحوم على اطراف ذلك المجتمع دونما غاية تدرك ، اي انها تبقى على هامشه شيئا مبهم الملامح لكنه يمضي باحثا عن شكله الحقيقي .

ومعتقداته ولم يتبق له سوى جسد وروح في العـراء بهما يمضي حياتـه اعزل امام نظرات الاخرين . لذا كان تنكره يحميه وفي الوقت نفسه يبرزه ويقصيه أو يخفيه ويستعرضه .

ان غايته من ثيابه المزركشة بافراط والجميلة على نحو مفتعل ، التي لسنا بصدد الوقوف عند دلالاتها ، ليست هي التعبير عن انتمائه الى طائفة او مجتمع معينين . فهذه الظاهرة « الباتشوكوية » هي مجتمع منفتح في هذا البلد الذي يزخر بالاديان وبالتنوع القبلي المكرس في ارضاء رغبة المواطن الاميركـي المتوسط الذي يشعر انه يكون جزءا من شيء اكثـر حيوية وتحديدا مـن الاخلاقية المجردة القائمة على فكرة « الطراز الاميركي في الحياة[٨] » . فثياب الباتشوكو ماهي ببذلة العمل ولا بالملابس القروية ، بل هي ببساطة صرعـة واساس هذه الصرعة شأنها شأن غيرها هو البدعة « والبدعة أم الموت » كما كان ليوباردي[٩] يقول .

ان بدعة هذه البذلة تكمن في المبالغة فيها . فقد أسرف في تعامله مـع هذه الصرعة كي يزيد من جمالها . حسن اذن . ولكن ، أحد المبادىء التي تحكم الصرعات الاميركية هو الراحة ، وعند تحويل البذلة العادية الى بذلة مزركشة بافراط فان الباتشوكو يفقدهـا صفتها العملية . وبهـذا سيتنكر للمبادىء التي استلهم منها نموذجه ، وفي تنكره هذا يكمن سر عدوانيته .

الا ان هذا التمرد لا يعدو أن يكون سلوكا عابثا بحتا . فهو مبالغة في استخدام النماذج التي يزعم التمرد عليها وليس رجوعا الى ارتداء ثياب اسلافه او محاولة لابتكار اخـرى جديدة . وفي الغالب فان اولئك الذين يمضون

---

(٨) وردت هذه العبارة في النص الاصلي باللغة الانجليزية .
(المترجمة)

(٩) جياكومو ليوباردي (١٧٩٨–١٨٣٧) شاعر ايطالي مبرز عاش حياة معذبة سقيمة انطبعت اثارها واضحة في اشعاره فلقب بشاعر التشاؤم .
المترجمـة

حياتهم على اطراف البلاد انما يقصدون من خلال ملبسهم توكيد عزمهم على انفصالهم عن المجتمع ، اما رغبة في تشكيل مجموعات جديدة اكثر انغلاقا ، واما توكيدا لتفردهم . الا اننا نلحظ نوعا من الغموض يكتنف هذه الجماعة ، ففي حين نجد ان ملابسها تفصلها عن المجتمع وتعزلها عنه فان هذه الملابس نفسها تعد تكريما للمجتمع الذي يدعون رفضه .

ربما توضح الازدواجية السابقة نفسها بصيغة اخرى قد تكون اعمق وهي ان « الباتشوكو » مهرج مسالم متمرس لا ينوي اضحاك الاخرين بل يسعى الى افزاعهم . وفي هذا الموقف السادي انحياز الى رغبة في امتهان الذات أحسب أنها تكون جذور شخصيته . فهو يعرف ان التجاوز خطير وان سلوكه يثير حفيظة المجتمع، الا أنه لا يأبه لذلك ويمضي في بحثه ليجتذب المجتمع الى ملاحقته واثارة الفضائح . وبذلك حسب سيكون بوسعه اقامة علاقة اكثر حيوية بالمجتمع الذي يستثيره ، فاما أن يصبح ضحية اذا ما أفلح في العثور على مكان له في هذا العالم الذي كان يتجاهله حتى وقت قريب ، واما مجرما ليغدو بذلك واحدا من ابطاله اللعناء .

كنت اعتقد ان اثارة حفيظة الاميركي انما تعزى الى أنه يرى في الباتشوكو كائنا اسطوريا . لذلك فهو يفترضه خطرا ، وخطورته نابعة من تفرده . فالكل يتفق على انه يرى فيه شيئا هجينا باعثا على القلق وأخاذا . وهو بدوره يظن انه يؤلف مجموعة من الافكار المتضاربة ، اذ يبدو ان تفرده مستمد من قدرات خيرة وشريرة تتناوب فيما بينها . بعضها يسبغ عليه صفات حسية فريدة وبعضها الاخر يكون مصدر شر لا يخلو من شراسة : انسان يفيض حبا وسعادة ، رعبا وبغضا ، هذا الباتشوكو الذي يجسد الحرية

والفوضى والضغينة شيء ينبغي ان يلغى برمته ، وشخص لا يمكن الاتصال به الا سرا او في الظلام .

وسواء أكان الباتشوكو سلبيا أم منبوذا فهو لا يجد بأسا في أن تتراكم فوق رأسه كل الصور المتناقضة كيما تندلع ، على نحو لا تعدم فيه قناعة ذاتية مريرة ، في صراع شبيه بذلك الذي يدور في المطاعم المدرسية او في الثكنات العسكرية او في غارة ما او في تمرد .

حينذاك يحقق ، من خلال الملاحقة ، اصالته بل كينونته الحقة وعريه الاسمى ليمسي انسانا منبوذا ورجلا لا انتماء له ، وهكذا تغلق الحلقة التي ابتدأت بالاستفزاز : هاهو ذا يبدي ميله الى المهادنة والى الانضمام الى المجتمع الذي كان يرفضه ، المجتمع الذي عده خطيئته وفضيحته . الان وقد رأى فيه الضحية فانه يعترف به اخيرا كما هو ثمرة له وابنا . وهاهوذا اخيرا يعثر على ابوين جديدين له .

يسلك الباتشوكو لدى محاولته الاندماج في المجتمع الاميركي سبلا خفية وخطرة كان نفسه يحرم سلوكها . ففي لحظة يطرح نفسه تحديا ووحدة ، يرفض المجتمع الذي قدم منه والمجتمع الاميركي . ثم يلقي بنفسه الى الخارج لا رغبة في الاندغام فيما يحيط به بل ليتحداه ، وفي هذا سلوك انتحاري ، اذ ان الباتشوكو لا يثبت شيئا ولا يدافع عن شيء خلا رغبته الساخطة في الا يكون . وهو بهذا الشكل لا يسفح مافي دواخله وانما يكشف تقرحا ويستعرض جرحا ، جرحا هو الاخر زخرف وحشي متقلب الاهواء ومثير للضحك ، جرحا يضحك من نفسه ، يتأنق كي يذهب الى الصيد . فالباتشوكو هو الطريدة التي تتأنق كيما تلفت انظار الصيادين . لذا كانت الملاحقة تعتقه وتحطم وحدته ، اي ان خلاصه قائم على الوصول الى هذا المجتمع الذي

يتظاهر برفضه . أما الوحدة والخطيئة ، التواصل والعافية فتمسي جميعا مفردات لا فروق بينها* .

ولئن كان هذا شأن اشخاص رحلوا عن بلادهم منذ زمن بعيد ونادرا ما يتحدثون اليوم بلغة ابائهم بعد ان اصاب الجفاف تلك الجذور الخفية التي تصل الانسان بحضارته ، فما قولنا في الاخرين ؟ ان رد فعلهم ليس سقيما ، اذ حالما يخفت ذلك الالق الاول الذي تبعثه فيهم عظمة تلك البلاد حتى يجدوا انفسهم على نحو غريزي في مأزق لا يمت الى التسليم بالامور بصلة . اذكر صديقة لي وقد لفت انتباهها مرة الى روعة وجمال مدينة بيركلي فردت قائلة « نعم انها غاية في الروعة ، ولكن لم يقيض لي فهمها تماما . فهنا حتى العصافير تتحدث بالانجليزية . أنى لي ان أعجب بالزهور مادمت اجهل اسمها الحقيقي، اسمها الانجليزي الذي اذاب الالوان والوريقات ، الاسم الذي بات هو المسمى نفسه ؟» .

فاذا ما قلت الجهنمية ستخالها تلك التي رأيتها في قريتك متسلقة شجرة دردار ، بنفسجية اللون تصلي ، أو تراءت لك ذات مساء وقد انيرت بضوء

---

* لاريب في ان هناك الكثير من العناصر التي لا تظهر في شخصية الباتشوكو في هذا الوصف . غير أني أرى في الهجنة التي تظهر في لغته وفي سلوكه انعكاسا لا يقبل الشك لتردده النفسي بين عالمين لا يمكن النيل منهما يرغب عبثا في المصالحة بينهما وتجاوزهما الا وهما المجتمع الاميركي والمجتمع المكسيكي . فالباتشوكو لا يرغب في ان يكون مكسيكيا كما لا يرغب في أن يكون « يانكيا » . عندما وصلت الى فرنسا في عام ١٩٤٥ ذهلت لرؤية نماذج الملابس التي يرتديها الفتيان والفتيات في بعض الاحياء ، ولاسيما الطلبة والفنانين منهم اذ كانت تقليدا عشوائيا وخياليا لما كان يحسبه هؤلاء الشباب في عزلتهم سنوات صرعة اميركية . وحين توجهت بالسؤال الى عدد منهم اجابوا جميعا أن تلك الملابس فرنسية وانها أبتكرت في اعقاب الاحتلال وعدها بعضهم شكلا من اشكال مقاومة النظام الالماني لما اتسمت به من فنطازيا ومن زركشة . وعلى الرغم من أني لا استبعد احتمال تقليد غير مباشر فيها على هذا النحو او ذاك فأن المصادفة بدت لي مهمة وواضحة .

فضي فوق جدار . ان الجهنمية بعض من كينونتك ، من حضارتك ، هي ذاك الشيء الذي تتذكره بعد ان نسيته . انها حقا رائعة لكنها لا تمت الي بصلة . فما تردده اشجار الاجاص واليوكالبتوس لا يقال من اجلي ولا يقال لي » .

نعم نحن ننغلق على انفسنا ونجعل كل ما نعيه مما يفصلنا ويعزلنا ويميزنا من الاخرين اكثر عمقا وحدة . ثم تكبر وحدتنا لاننا لا نبحث عن مواطنينا هربا من رؤية انفسنا فيهم ولشعور محض ينتابنا دفاعا عما في دواخلنا . غير ان المكسيكي الذي لا يتورع عن البوح بمشاعره يتفادى ذلك . نحن نحيا في قوقعة ، داخل انفسنا شأننا شأن أولئك المراهقين الصموتين . واقولها عرضا انني قلما صادفت مثل هؤلاء المراهقين بين الشباب الاميركي ممن ينطوون على اسرار لا يعرف كنهها ، وممن يظهرون بمظهر متجهم ولا ينتظرون سوى اللحظة الملائمة كيما يبوحوا بتلكم الاسرار .

لعلني لم اكن راغبا في الاستفاضة في وصف هذه الاحاسيس وحالات اليأس وسورات الغضب التي كثيرا ما تأتي متزامنة معها . فثمة قاسم مشترك بينهم جميعا الا وهو حالات الانفجار المباغتة التي تحطم توازنا صعبا بسبب ما يفرض من صيغ تجور علينا وتشلنا . ولئن وجد شعور حقيقي او مزعوم بـ « الدونية » تجاه العالم ، فلعله يفسر لنا جزئيا ما يبديه المكسيكي من تحفظ تجاه الاخرين وعنف مفاجىء تحطم به قواه المقموعة ذلك القناع المسالم الذي يضعه . غير ان ما يفوق هذا الشعور بالدونية عمقا واتساعا هي تلك الوحدة القابعة في داخله . لذا سيغدو توحيد كلا الموقفين في ذات واحدة امرا مستحيلا ، اذ ان الشعور بالوحدة لا يعني شعورا بالدونية ، بل شعور بالاختلاف . والشعور بالوحدة ليس وهما ، كما هو حال الشعور بالدونية في بعض الاحيان انما هو تعبير عن حقيقة واقعة : اذن فنحن مختلفون حقا . ونحن حقا وحيدون .

ليس في نيتي تحليل هذا الشعور العميق بالوحدة هنا ، هذا الشعور الذي يثبت نفسه وينكرها على نحو متناوب ، في الكآبة وفي الفرح ، في الصمت وفي الصراخ ، في الجريمة المجانية وفي الحماس الديني ، فالمرء وحيد في كل مكان . بيد ان وحدة المكسيكي في هدأة الليل الحجري البهيم في هضبة المكسيك المسكونة حتى اليوم بالهة لايسد لهم جوع لمختلفة عن وحدة الاميركي التائه في عالم الاشياء المجردة وعالم الالات والمواطنين والمثل الاخلاقية . ففي وادي المكسيك يداخل المرء شعور بأنه معلق بين السماء والارض يتأرجح بين قوى وقدرات متصارعة ، بين عيون متحجرة وافواه نهمة شرهة . والحقيقة ، في هذا العالم الذي يحف بنا ، قائمة بذاتها وتحيا بذاتها دونما تدخل من جانب الانسان كما حدث في الولايات المتحدة الاميركية، اذ أن المكسيكي يشعر بأنه منتزع من صلب هذه الحقيقة الخلاقة والمدمرة ، الام والقبر في آن واحد وينسى اسمه ، هذه الكلمة التي تربطه بكل هذه القوى التي تتجسد فيها الحياة ، ولذا فهو يصرخ أو يصمت ، يقتل أو يصلي ... ومن ثم يخلد الى النوم مائة عام .

وهكذا فان تأريخ المكسيك هو تأريخ رجل يبحث عن انتمائه وعن اصله ، رجل جعلوا منه مرة فرنسيا واخرى اسبانيا وتارة من السكان الاصليين فراح يجتاز التأريخ كوكبا شاحبا من حجر اليشم يومض بين حين واخر . ترى ما الذي يطارده وهو يجوب البقاع ؟ انه يمضي خلف محنته ، يسعى كي يصبح شمسا مرة اخرى ويرنو الى العودة الى صلب الحياة التي انطلق منها ذات يوم . ربما كان ذلك في الغزو الاسباني او في الاستقلال اذن لا غرو ان كانت جذور وحدتنا وجذور الشعور الديني واحدة فهي يتم ووعي قاتم أننا مقتلعون من كل شيء ، بحث محموم ، هرب وعودة ، واغواء باعادة العرى التي كانت تصلنا فيما مضى بالخليقة .

ليس هناك ما يفوق وحدة الاميركي بعدا عن هذا الشعور . ففي تلك البلاد لا يشعر المرء بأنه منتزع من مركز الخلق ولا معلق بين قوى متصارعة. فالعالم يشيد من اجله ويصنع على وفق مشيئته ، انه مرآته لكنه لم يعد يتعرف الى نفسه في مثل هذه الاشياء الجامدة اللانسانية ولا في مثيلاتها . كما لو انه ساحر يفتقر الى البراعة في صنعته ، وحين يجد ان افعاله السحرية لا تطاوعه ، يبقى وحيدا بينها ، تائها وسط « صحراء قفر من المرايا » على حد تعبير خوسيه غورو ستيثا[١٠] .

يعتقد بعضهم ان الفروقات بيننا وبين الاميركيين هي فروقات اقتصادية صرف فهم اثرياء ونحن فقراء . هم يولدون في ظل الديمقراطية والرأسمالية والثورة الصناعية ، اما نحن فقد ولدنا في كنف الاصلاح المضاد والاحتكار والاقطاعية . ومهما كان عميقا وحاسما تأثير نظام الانتاج في نشوء الحضارة الا أنني أرفض الاعتقاد ان ارساء أسس صناعة ثقيلة في بلادنا كاف لتحريرنا من كل اشكال الامبريالية الاقتصادية أو لازالة هذه الفروقات (ولو أنني اتمنى حقا نقيض ذلك . فأنا اجد فيها واحدا من اعظم جوانب الثورة) . ولكن لم البحث في التأريخ عن جواب لا يمكن لاحد سوانا ان يجيب عنه ؟ . نعم ، فنحن من يشعر بالاختلاف ، ولكن ما أسباب هذا الاختلاف ؟ واين تكمن اختلافاتنا تلك ؟ سأعطي اجابة قد لا تكون مقنعة بكل جوانبها ، وما أقصده بها هو أن أوضح لنفسي في البدء فحوى بعض التجارب التي أقر أن قيمتها قد لا تتعدى كونها ردا شخصيا على سؤال شخصي .

حينما استقر بي المقام في الولايات المتحدة الاميركية كان الامر الاكثر مثارا لدهشتي هو أمان الناس وثقتهم ، فرحهم البادي للعيان وانسجامهم مع

---

(١٠) خوسيه غوروستيثا : (١٩٠١ – ١٩٧٣) واحد من الاسماء الاكثر حضورا في الشعر المكسيكي المعاصر . عمل ايضا ممثلا دبلوماسيا لبلاده . من ابرز اعماله (موت بلا نهاية) . و (اغان على متون السفائن) .

(المترجمة)

العالم المحيط بهم . ومع ذلك فتلك القناعة ما كانت لتحول دون ظهور نقد رصين وحازم لم نألفه في البلدان الجنوبية حيث صيرتنا الدكتاتوريات غاية في الحذر اذا ما أردنا التعبير عن وجهة نظرنا . كان ذلك النقد يحترم بنيةالنظام ولا يتعرض للجذور ابدا . فخطر ببالي حينئذ ذلك الفرق الذي يشير اليه أورتيغا اي غاسيت(١١) بين الاستخدام وسوء الاستخدام كيما يعرف ما اسماه بـ « الروح الثورية » . ان الثوري انسان راديكالي دوما ، أعني انه لا يتطلع الى تصحيح سوء الاستخدام بل الاستخدام نفسه ، اذ كانت كل الانتقادات التي سمعتها على لسان الاميركيين ذات طبيعة اصلاحية ، أي لـم يكونوا ينتقدون البنيـة الاجتماعية او الحضارية بـل كانوا يميلون الى تحديـد الاجراءات أو الى تحسينها ... لقد خيل الي وقتذاك ومازلت اخاله كذلك ، ان الولايات المتحدة الاميركية هي مجتمع لا يسعى الى استبدال مثل اخرى بمثله بل الى تحقيقها ، وان هذا المجتمع مؤمن بتجربته في الحياة على الرغم مما يلوح به المستقبل من تهديدات . ولا أود هنا مناقشة أكان هذا الشعور يجد له تبريرات في الواقع او في العقل ام لا بل الاشارة الى وجوده ليس غير . صحيح ان تلك الثقة بما جبلت عليه الحياة من طيبة ومن ثراء لامتناه في القدرات لا وجود لها في الادب الاميركي الحديث لانها وجدت ضالتها في

---

(١١) خوسيه اورتيغا اي غاسيت (١٨٨٣ ــ ١٩٥٥) فيلسوف وناقد اسباني. مؤسس فلسفة العقل الحيوي . عد مدرسة في الفلسفة والنقد لجيل كامل من الكتاب . اتسمت اعماله باسلوب جزل قل مثيله ، وبافكار ثاقبة اصيلة . من مؤلفاته المهمة (تأملات في دون كيخوته) و (موضوعة زماننا) و (تمرد الجماهير) وهو مؤسس المجلة الادبية الرصينة (اوكثيدنته او الغـرب) . (المترجمة)

رسم عالم قاتم ، بيد انها تظهر جلية في السلوك وفي الكلام بل حتى في قسمات كل من التقيت بهم* .

حدثوني عن الاميركي ، عن واقعيته وأصالته وهـذه صفات يمكـن استبعادها . فنحن نرى في الانسان الواقعي شخصا متشائما دومـا ، مما لا يمكنه من الابقاء على واقعيته طويلا ان كان يتأمل الحياة تأملا واقعيا حقا . ولربما يغدو القول ان الاميركيين لا يسعون الى معرفة الواقع مثلما يرغبون في استخدامـه اكثر دقـة . فهم في بعض الحـالات ، كالمـوت على سبيل المثال ، تجدهم يتهربون من معرفته وفضلا عن ذلك يتفادون حتى التفكير فيه .

ذات يوم تعرفت الى بعض السيدات المسنات اللائي لم يفقدن الامـل بالحياة ولم يتخلين عن رسم خطط للمستقبل ، كما لو ان ذلك المستقبل لا ينضب . وبدا لي انهن كن يفندن بذلك مقولة نيتشه التي تدين النساء بمبدأ شك فج : « قدرما يحيا الرجال على المثل تحيا النساء على الاوهام حسب » وهكذا تبدو الواقعية الاميركية واقعية من طراز خاص جدا . فأصالتهم لاتشذ عن المواربة بل حتى عن النفاق ، ذلك النفاق الذي هو سوءة في الشخصية ونزعة في الفكر ، فهو يكمن في رفض كل أوجه الواقع التي تبدو مقيتة لا معقولة وباعثة على الاشمئزاز .

يشكل سلوك المكسيكي بكل ما يتسم به على نحو متناقض من خوف وود ودماثة ابرز ملامح شخصيته . فتماثيل المسيح المضرجة بالدم والمتناثرة

---

* كتبت هذه الاسطر قبل ان يتنبه الرأي العام لخطر الابادة العالمية الذي تنطوي عليه الاسلحة النووية . ومذاك فقد الاميركيون تفاؤلهم لكنهم لم يفقدوا ثقتهم ، ثقتهم القائمة على الرفض والتعنت . والحق ان لا احـد منهم يصدق او يريد ان يصدق ان هذا التهديد حقيقي ووشيك علـى الرغم من ان بعضهم يؤكد ذلك شفاها .

في كنائس القرى والروح السوداوية التي تطالعنا بها بعض العناوين الرئيسة التي تتصدر الصحف . وجلسات السمر الليلية . وتناول الخبز والحلوى المصنوعة على هيأة عظام وجمجمة ، هذا التقليد المتبع في الثاني من تشرين الثاني . هي جميعا عادات متوارثة عن الهنود الاسبان الا أنها تبقى ابدا جزءا لا يتجزأ من كينونتنا . فعبادتنا الموت ماهي الا عبادة للحياة . والحب الذي هو جوع الى الحياة . ما هو الا توق الى الموت ايضا . كما ان استعذابنا تدمير الذات لا ينبع من ميول مازوكية حسب بل ينبع من بعض حس ديني ايضا .

بيد ان فروقاتنا هذه لا تقف عند هذا الحد . فهم يتصفون بسرعة التصديق اما نحن فنؤمنون . وهم يعشقون حكايات الحواري والقصص البوليسية ، اما نحن فمولعون بالخرافات والاساطير . والمكسيكيون يكذبون حبا في الخيال واليأس لتجاوز حياتهم الشحيحة . أما هم فلا يكذبون بل يستبدلون بالواقع الحقيقي البشع دوما واقعا اجتماعيا . نحن نثمل كي نبوح بما في دواخلنا وهم يثملون رغبة في النسيان . هم متفائلون ونحن عدميون . غير ان عدميتنا ليست بالفكرية بل انها رد فعل غريزي ، لذا فهي قابلة للرفض . المكسيكيون لا يثقون بالأخر . اما هم فمنفتحون عليه . نحن مولعون بالحزن وبالسخرية ، وهم يهوون المرح والهزل . هم ينشدون الفهم ونحن ننزع الى التأمل . هم يؤثرون النشاط ونحن نميل الى السكون . نحن نستمرىء جروحنا وهم يتلذذون بابتكاراتهم ، يؤمنون بالتعقيم . بالصحة ، بالعمل وبالسعادة . الا انهم لا يعرفون الفرح الحق ، الفرح الذي هو نشوة وزوبعة . فعندما نصرخ احتفالا بليلة العيد تنفجر اصواتنا اضواء وتتحد الحياة بالموت . واما حيويتهم تلك فتتحجر في ابتسامة : ابتسامة ترفض الشيخوخة والموت لكنها تشل الحياة .

ترى أي سبب ذاك الذي ينطوي عليه وجود موقفين على هذا القدر من التباين ؟ أحسب ان العالم لدى الاميركيين هو شيء بوسعه ان يبلغ كماله . أما بالنسبة الينا فهو شيء يمكن ان يبلغ خلاصه . فهم عصريون ونحن . شأننا شأن اسلافهم البيوريتانيين ، نؤمن بأن الخطيئة والموت هما القرار الاخير للطبيعة البشرية ، الا أنهم يرون في النقاء صنوا للصحة . ومن هنا جاءت فكرة الزهد الذي يطهر النفس وما تبعه من عبادة العمل من اجل العمل ، الكفاف في الحياة ، اي الاكتفاء بالخبز والماء لا غير ، الغاء وجود الجسد مادام ذلك يعني التلاشي في جسد الاخر او العثور على الذات فيه . فكل اتصال يفضي الى الدنس : الاجناس ، الافكار ، العادات ، الاجساد الغريبة كلها تحمل في داخلها بذرة الضياع والرجس . والطهر الاجتماعي لا يكتمل بسوى طهر النفس والجسد . وخلافا لهذا فقد كان المكسيكيون القدامى يؤمنون بالتواصل الجماعي وبالاعياد ، اذ لا صحة دونما اتصال بالاخرين . وكانت تلازوليتوتل ربة للرجس والخصب والطبائع الدنيوية والبشرية عند الازتيك مثلما كانت ربة لحمامات البخار والعشق الجنسي والاعتراف بالخطيئة . ونحن اليوم لم نفترق كثيرا عنهم ، فالكاثوليكية هي الاخرى تؤمن بهذا التواصل الجماعي .

ارى ان التوفيق بين كلا الموقفين يبدو متعذرا ان لم يكن غير واف بالغرض في الوضع الراهن . وسأكون كاذبا اذا ما قلت انني رأيت يوما هذا الشعور بالذنب قد آل الى شيء اخر غير الحقد ، او اليأس المستوحد او الوثنيه العمياء . ان الحس الديني لدى شعبنا متأصل فيه تأصل بؤسه وضياعه الهائلين . غير ان حماسه لا يقود الى سوى الدوران في دوامة كناعور عتيق منذ قرون . وسأكون ايضا كاذبا اذا ما زعمت أنني أؤمن بخصب المجتمع المؤسس على فرض بعض المبادىء الحديثة . فالتأريخ المعاصر يبطل الايمان بالانسان مخلوقا قادرا على التغير جوهريا من خلال التوسل بهذه الادوات .

التربوية او الاجتماعية او تلك ، فما الانسان بثمرة للتأريخ او للقوى التي تحرك ذلك التأريخ حسب ، ولا التأريخ بنتيجة للارادة البشرية بحسب الزعم الذي يتأسس عليه ضمنيا نظام الحياة الاميركية . بل ان ما اؤمن به هو ان الانسان لا وجود له في التأريخ مادام هو تاريخا بذاته .

يميل النظام الاميركي الى رؤية الجانب الايجابي من الواقع فقط . فهو يخضع الرجال والنساء منذ الطفولة لعملية تطبيع لا تعرف الرحمة ، تتقوم على مبادىء محدودة ومضامين في صيغ موجزة ترددها بلا انقطاع الصحافة والاذاعة والكنائس والمدارس واولئك الناس المتمرسون السذج والامهات والزوجات الاميركيات . وهكذا يظل الجميع حبيس تلك الهياكل كما لو انه نبتة يضيق بها أصيص الزرع فتختنق .. فاؤلاء الرجال والنساء لا يكبرون ولا ينضجون ابدا . وما كان لتآمر عليهم من هذا القبيل الا ان يفجر صيغا عنيفة من التمرد الفردي . هاهي ذي عفويتهم تنتقم بالف صورة ، رقيقة أكانت ام فظة . فذلك القناع الرقيق ، اليقظ ، المهجور الذي سيحل بدلا من حيوية القسمات المأساوية ، وتلك البسمة التي سترسم على مضض يكشفان الى اي مدى يمكن لسرية الانسان ان تتقوض اذا ما قدر للمبادىء أن تنتصر على الغرائز انتصارا عقيما ، ولعل السادية القابعة تقريبا في كل صيغ العلاقات في المجتمع الاميركي المعاصر ماهي الا هروب الى التحجر الذي تفرضه الاخلاقية القائمة على فكرة النقاء المعقم ، الاديان الجديدة ، المذاهب والنشوة التي تعتق « الحياة » وتفتح ابوابها . أراه مدهشا هذا المعنى الفلسفي الى حد ما والمدمر الذي يستقر في اعماق هذه العبارة : ان تحيا يعني ان تتجاوز ذاتك ، ان تحطم القواعد ، ان تجرب الاحاسيس وان تمضي حتى النهاية ولكن (الى اي نهاية ؟) . فالتعايش هو تجربة (لكنه تجربة احادية الجانب ، فاشلة) الا ان ما ترمي اليه هذه الاسطر هو وصف ردود الافعال لا غير . ويكفي ان اقول اني ارى ردود الافعال هذه جميعا ، بما في

ذلك ردود الافعال المكسيكية التي تجانبها لا تشي بسوى عجزنا عن التصالح مع دفق الحياة وهو العجز الذي نشترك فيه جميعا •

ستكشف لنا أي دراسة في الاساطير الانسانية الرائعة المتعلقة بأصل الانواع ومغزى الوجود البشري على وجه البسيطة وترى في الحضارة عملية ابداع واسهاما مشتركا بين القيم أن مثل هذه الرؤية ستكون نابعة من قناعة مؤداها ان الانسان الدخيل قد انتهك نظام الكون وخرقه • ولربما تقتحم حالة الفوضى العالم ثانية من خلال هذه « الثغرة » او فتحة الجرح التي أحدثت يوما في جسد العالم المحكم البناء هذا ، وهي الحالة القديمة للحياة ان لم نقل حالتها الطبيعية • ان عودة « اللانظام الاصلي القديم » هو تهديد بات متسلطا على الوعي الانساني على مر العصور • وقد عبر هولدرلين [١٢] في قصائد عدة عن الرعب الذي تثيره الفوضى التي تبدو كأنها تفغر فاها خاويا وهائلا وتمارس اغواءها الكون والانسان اغواء حتميا • فهو يقول في ابياته الاتية :

••• اذا ما بعيدا عن الدرب الصواب
كأحصنة جامحة ، تثور القوى الاسيرة
ونواميس الارض القديمة •• ورغبة في العودة الى الشوه
تنبجس دونما انقطاع • سيبقى الكثير
لنذود عنه •• فلابد لنا من الوفاء

« الثمار اليانعة »

لابد لنا من الوفاء ، ثمة الكثير كي ندافع عنـــه • اذن فالانسان يسهم اسهاما فاعلا في الدفاع عن النظام الكوني المهــدد دوما بالشوه • واذا ما

(١٢) فريدريك هولدرلين : (١٧٧٠ -- ١٨٤٣) شاعر الماني عاش حياة عاصفة مضطربة . اتسمت اشعاره بايحاءات هيلينية . كان واحدا من رواد الحركة الرومانسية . أصيب بالجنون قبل مماته .

(المترجمة)

تقوض هذا النظام فلا مناص من اقامة آخر جديد ليمسي اذ ذاك ملكا له .
ولكن لابد لحالات من النفي والتكفير والتوبة من أن تعقب تصالح الانسان
مع الكون ، هذا التصالح الذي لم يقيض للمكسيكيين ولا الاميركان الفوز
به . والادهى من ذلك هو خشيتي من ان نكون قد أضعنا مغزى الاسهام
الانساني : اي التيقن من سريان نظام يتوافق فيه الوعي والبراءة والانسان
والطبيعة . ولئن باتت وحدة المكسيكي هي نفسها وحدة المياه الراكدة فان
وحدة الاميركي هي وحدة المرآة . اما نحن فلم نعد ذلك النبع الذي كناه .

ان ما ندعوه بالخطيئة لن يتعدى كونه تعبيرا اسطوريا عن وعينا وعن
وحدتنا ، اذ تحضرني الان ذكرى ايام الحرب في اسبانيا ، يومئذ كانت لي هيئة
اخرى بل كنت « انسانا آخر » وكنت استشعر نوعا اخر من الوحدة . لم
تكن وحدة منغلقة ولا آلية انما كانت منفتحة على كل ماهو فذ وعظيم .
لا ريب ان الوجود على مقربة من الموت ومن اخوة لنا في السلاح يخلق
في كل حين ومكان مناخا خصبا لكل ماهو استثنائي ولكل ما يتجاوز الشرط
الانساني ويحطم اغلال الوحدة التي تطوق كل انسان . فقد كان يتراءى لي
في تلك الوجوه الغليظة ، الصعبة المراس ، الوحشية ، الفظة ، الشبيهة بتلك
التي صورتها لنا الرسوم الاسبانية بواقعية مجسمة تخلو من اي باعث على
الاعجاب ، شيء اقرب الى اليأس المترع بالامل ، شيء محدد وفي الوقت
نفسه عالمي جدا . ومذاك لم اعد الى رؤية وجود شبيهة بها ثانية .

واليوم ربما يعد بعضهم شهادتي هذه باطلة وربما يعمد الى الغائها على
هذا الاساس ، لكنني اتصور أنه لمن العبث التوقف ازاء اعتراض كهذا ،
فهذه بديهية أضحت جزءا من كينونتي لا انفصام له . كنت وقتئذ أخال ان
رجالا (آخرين) راحوا يشرقون في اولئك الرجال . فالحلم الاسباني ، لا
بوصفه اسبانيا بل لكونه عالميا وتجديدا في ان واحد امسى حقيقة كما لو أنه
جسد من دم ولحم ومن عيون يقظة وهو الحلم نفسه الذي آل مصيره الى

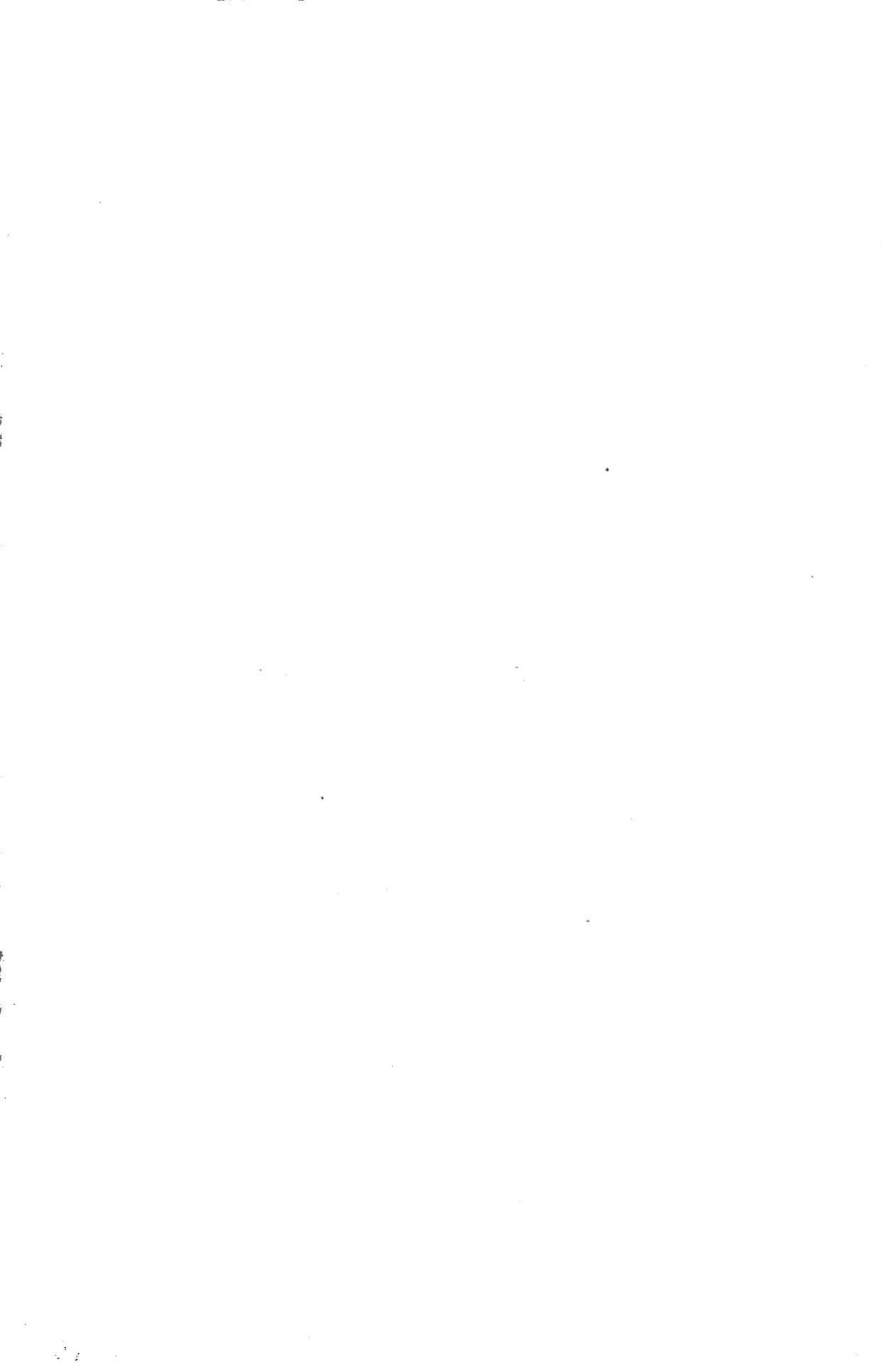
التشويه والتدمير فيما بعد . اما تكلم الوجوه التي عرفتها فقد عادت الى ما كانت عليه في سابق عهدها قبل ان يتمكن منها الامان البهي (ولكن ما الذي يبعث أمانها ذاك أهي الحياة ام الموت ؟) كانت وجوها لأناس سامتها البساطة والخشونة ... ما فتئت ذكراهم حية لاتبارحني ... فمن شهد منكم الامل لن ينساه وسيحيا ابدا يبحث عنه تحت كل السماوات وبين كـل البشـر .. وسيراوده دوما حلم العثور عليه ثانية ذات يوم .. لا يعرف أين ... فلعله يجده بين آمالكم .. وسيبقى ينبض داخل كل انسان أمل بان يكون ... او على نحو ادق بأن يغدو ثانية انسانا آخر .

الفصل الثاني

أقنعة مكسيكية

أيها القلب الملتاع
اخف اشجانك

أغنية شعبية



سواء أكان المكسيكي شيخا ام مراهقا ، اصيلا ام هجينا ، جنرالا ام عاملا ام خريج جامعة ، فهو في رأيي كائن ينغلق على نفسه ويصونها • وجهه قناع وابتسامة قناع • متسمر في وحدته القاسية ، فظ ومهذب في آن واحد يسخر كل شيء للدفاع عن نفسه : الصمت والكلام ، التهذيب والازدراء ، السخرية والرفض ، يحرص على اسراره حرصه على اسرار الاخرين • قلما يسترق النظر الى جاره : فقد تثير نظرة كهذه حفيظة تلك النفوس المشحونة ، يمضي حياته هشا ، كل شيء قادر على ان يجرحه ، الكلام والارتياب في الكلام • لغته مفعمة بالتورية ، بالرموز ، بالتلميحات وبالنهايات المفتوحة او المغلقة • صمته يخفي الكثير : التقهقر ، التفاصيل الصغيرة ، السحابات الدكن ، اقواس قزح مفاجئة وتهديدات لا يحل لها لغز ، بل حتى في صراعه تراه يؤثر العبارات المقنعة على القذع والسباب ويؤمن بان « الحليم تكفيه الاشارة » خلاصة القول ان المكسيكي يشيد جدارا من اللامبالاة ومن البعد (بين شخصه والواقع) ، جدارا لا مرئيا يتعذر تخطيه • فهو يؤثر البقاء بعيدا •• بعيدا عن العالم •• بعيدا عن الاخرين وبعيدا عن نفسه •

تجسد لنا اللهجة الشعبية الى اي مدى ندافع عن انفسنا ازاء الخارج ، فمبدأ « الرجولة » يكمن في عدم التراجع البتة • وأولاء الذين يبوحون بما في داخلهم ماهم الا جبناء • فنحن ، خلافا للسائد بين شعوب اخرى ، نعد هذا البوح دليل ضعف او خيانة • وربما يحدث ان يركع المكسيكي وان يمتهن وان ينحني لكنه « لا يتراجع » ، فهذا التراجع يعني السماح للعالم الخارجي بالتوغل في دواخله • ومن « يتراجع » سيغدو انسانا غير موضع ثقة ، خائنا

او رجلا ذا اخلاص مشبوه مادام يفشي السر وليس اهلا لتحمل الصعاب كما ينبغي . واما النساء فهن كائنات اقل شأنا من الرجال لانهن عندما يهبن انفسهن فانما يفشين كل مافي دواخلهن .. ودونيتهن هذه هي أمر خلقي . اذ هي تكمن في ذلك الثلم الذي ينطوي عليه جنسهن أو ذلك الجرح الذي لا يندمل ابدا .

ان انغلاقنا على أنفسنا هو مصدر ريبتنا وفقدان ثقتنا ، وهذا نابع من اننا غريزيا نحسب الوسط الذي يحف بنا خطيرا . ولعل رد الفعل هذا يجد ما يبرره اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار ما كان عليه تأريخنا وما كانت عليه طبيعة المجتمع الذي انشأناه . فقساوة المناخ وشدة وطأته وهذا التهديد الخفي المبهم السابح دوما في الفضاء ترغمنا جميعا على الانغلاق على انفسنا هربا من المجتمع الخارجي كتلكم الشجيرات التي تنمو في الهضبة وتختزن نسغها تحت قشرة شائكة . غير ان السلوك المشروع اساسا صار نظاما لا يعمل الا على نحو آلي وبات تحفظنا هو رد على ما يبديه الاخرون من رقة ولطف مادمنا لا نعرف أكانت هذه الاحاسيس صادقة أم زائفة . كما أن تكاملنا الرجولي سيتعرض للكثير من الاخطار بسبب من دماثة الاخرين او عدوانيتهم، لذا فان كل انفتاح في كينونتنا سيحمل في طياته تنازلا ما عن رجولتنا .

اما علاقتنا بالرجال الاخرين فهي ايضا تتسم بالحذر . وكلما وثق المكسيكي بصديق او شخص يتعرف اليه ازداد « بوحه » وتخليه عن ذاته . الا انه يخشى ان يكون بوحه هذا لذلك الشخص الثقة متبوعا بالازدراء ، فالبوح يحط من قيمة المرء وفي الوقت نفسه تراه خطيرا ، وعاقبة تلك الخطورة انما تعود على الشخص الذي يمارسه او الذي يصغي اليه . لذلك يتعين علينا الا نغرق انفسنا في عين الماء التي تنعكس فيها صورتنا ، مثلما فعل نرسيسيوس ، بل أن نفقأها . الا ان ما يؤجج غضبنا ليس خوفنا من ان يستغلنا اؤلاء الذين كانوا موضع ثقتنا حسب ، وهو خوف شائع بين كل

البشر ، بل خجلنا من تخلينا عن وحدتنا • وهكذا يؤول مصير من يمنح الاخر ثقته الى الاغتراب ، مما يجعلنا نردد دوما : « لقد بعت نفسي لفلان » عندما نضع ثقتنا في شخص ليس أهلا لها ، وهذا ما أرمي اليه بعبارة « اننا نتراجع » اي ان يتوغل شخص ما في حصننا المنيع ، فقد اختفت تلك المسافة التي تباعد بين الرجل والرجل وتخلق الهيبة والامان المتبادلين • وبتنا اليوم نعيش تحت رحمة الدخلاء • بيد أن الامر لم يقف عند هذا حسب ، بل ترانا قد تنازلنا عن ذواتنا ايضا • هذه التعابير كلها تبين لنا ان المكسيكي يرى الحياة صراعا• وهو في هذا لا يفترق عن سائر الرجال العصريين • فمبدأ الرجولة لدى الشعوب الاخرى يتجسد في الاستعداد الصريح والعدواني على القتال • اما نحن فنولي الجانب الدفاعي والتأهب لصد الهجوم الاهمية فـ « الذكر » هو كائن كتوم ، منغلق على نفسه ، قادر على ان يصونها وصون ما يؤتمن عليه • والرجولة تقاس بـ (المقدرة على التصدي) للاسلحة المعادية وتأثيرات العالم الخارجي وباتت رباطة الجأش هي اسمى خصالنا في ميداني الحرب والسياسة •

ولو عدنا الى تأريخنا لوجدناه زاخرا بالجمل وبالصفحات التي تظهر المكابرة التي كان يبديها ابطالنا ساعة الالم والخطر • اما نحن فقد اعتدنا ان نتعلم منذ نعومة اظفارنا المكابرة عند الهزائم وهذا مبدأ لا تعوزه العظمة • واذا لم يكن بوسعنا ان نجعل من رباطة الجأش واللامبالاة خصلتين فينا ، كما كان من قبلنا خواريث[1] وكواوتيموك[2] ، فسيغدو حريا بنا ان نسلم بالقدر

---

(1) بنيتو خواريث (١٨٠٦ ـ ١٨٧٢) سياسي ليبرالي مكسيكي بارز ورئيس سابق للدولة المكسيك . اشتهر بقوانين الاصلاح التي سنها وبنضاله ضد التدخل الفرنسي أيام حكم الامبراطور ماكسميليانو . اعيد انتخابه غير مرة . (المترجمة)

(2) كواويتموك (أو غواوتيمو كتزين) : (١٥٠٢ ؟ ـ ١٥٢٥) وتعني (الصقر الذي يهوي) : اخر اباطرة الازتيك قاد حملة الدفاع عن مدينة تينو تشتتلان أيام الغزو الاسباني حتى وقع اسيرا في قبضة القائد الاسباني ايرنان كورتيس الذي اعدمه شنقا . (المترجمة)

وان نكابر وان نتحلى بالصبر ، اذ أن التسليم بالقدر هو احـدى الخصال الحميدة التي يتصف بها شعبنا ولذلك كان هول المصائب يهز مشاعرنا اكثر مما يهزها ألق النصر .

كان السمو الذي يتصف به كل ماهو منغلق ازاء ماهو منفتح لا يعبر عن نفسه باللامبالاة وفقدان الثقة والتهكم والحرص دون سواها ، بل يتجلى ايضا بالولع بالشكل . فالشكل يحتوي خصوصيتنا وينغلق عليها ، يحـول دون طغيانهـا ، يقمـع انفجاراتها ، يفصلها ، يعزلها ويصونها ، وما مارسه السكان الاصليون والاسبان مـن تأثير مزدوج ليتلاءم وولعنا بالطقـوس وبالصيغ وبالنظام . وخلافا لاي تفسير سطحي مفترض لتأريخنا ، فالمكسيكي يصبو الى ارساء عالم منظم على وفق مبادىء شاخصة . ومن جانب آخر نجد ان اضطراب صراعاتنا السياسية واحتدامها يبرهنان لنا الى اي مدى تلعب الافكار القانونية دورا مؤثرا في حياتنا العامـة . أما في الحيـاة اليومية ، فالمكسيكي انسان يسعى الى أن يكون رجلا أصوليا من السهل ان يتحول الى انسان مولع بالاشكال والتقاليد الرسمية . وهذا أمر قابل للتفسير اذ ان النظام القضائي والاجتماعي والديني او الفني يكون بمجموعه محيطا آمنا وراسخا . وفي اطار هذا النظام يمسي الانسجام مع ما ينظم الحياة من مبادىء وصيغ جاهزة كافيا ، فلا أحد يضطر الى اللجوء الى ما يشترطه المجتمـع المنفتح من ابتكار دائم كيما يعبر عن نفسه . ولعل تقليديتنا التي تعـد احد ثوابت كينونتنا ومصدر تماسك شعبنا وعراقته تنبع مما نشعره من ولـع بالشكل ، وفي هذا السياق فان اصول اللياقة وتعقيداتها وهاجس التيـار الانساني الكلاسيكي والميل الى الاشكال المغلقة في الشعـر (السوناتات والقصائد العشارية على سبيل المثال) وولعنا بالاشكال الهندسية في فنون الديكور وبالتخطيط والتوليف في فن الرسم ، وكذلك البؤس الذي اتسمت به حركتنا الرومانسية مقارنة بالروعة التي امتاز بها فننا الباروكي ، وتمسكنا

بالتقاليد الرسمية في مؤسساتنا السياسية ، واخيرا هذا الميل الخطير الـذي نبديه تجاه الصيغ الاجتماعيه والاخلاقيه والبيروقراطية تصبح صيغا تعبيرية اخرى عن هذه النزعة في شخصيتنا ، وهذا ما يجعل المكسيكي لا يعزف عن البوح حسب ، بل عن التعبير ايضا .

كانت تلك الاشكال تبدو شديدة الوطأة علينا احيانا . فقد اجتهد الليبراليون عبثا خلال القرن الماضي في اخضاع البلاد الى سلطة دستور ١٨٥٧ مما ادى الى قيام دكتاتورية بروفيريو دياث[٣] وثورة ١٩١٠ . وبصيغة او بأخرى نجد ان تأريخ المكسيك شأنه شأن تأريخ اي مكسيكي ، يقوم على فكرة الصراع بين الاشكال والصيغ التي يزعم انها تقيد كينونتنا باغلالها والانفجارات التي تثأر بها تلقائيتنا لنفسها ، فقلما كان الشكل ابداعا اصيلا بذاته او توازنا بلغناه من خلال الافصاح عن غرائزنا ورغباتنا لا على حسابها. اما الاشكال القانونية والاخلاقية فهي على النقيض من ذلك لانها كانت كثيرا ما تجعل كينونتنا موتورة وتلجمنا عن التعبير عن ذواتنا وتأبى اشباع رغباتنا الحيوية .

لقد كان الولع بالشكل ، حتى الاجوف منه ، حاضرا على امتداد تأريخ الفن المكسيكي منذ عصر ما قبل كورتيس حتى يومنا هذا ، اذ يبين لنا انطونيو كاسترو ليال في بحثه القيم في خوان رويث دي الاركون[٤] كيف ان التحفظ

---

(٣) بورفيريودياث : رئيس جمهورية المكسيك من ١٨٧٦ الى ١٩١٠ وهو العام الذي اندلعت فيه شرارة الثورة المكسيكية لوضع حد للطغيان والاستبداد اللذين اتسمت بهما فترة حكمه . (المترجمة)

(٤) خوان رويث دي الاركون (١٥٨١ ؟ — ١٦٣٩) كاتب مسرحي مكسيكي قضى سنوات طوال من حياته في اسبانيا . حقق نجاحا كبيرا مما دفع مجايلوه الى السخرية من عوقه اذ كان احدب . تميزت مسرحياته بمضامينها الاخلاقية السامية ، من ابرز اعماله « الحقيقة المشبوهة » و « نساج شيقوبية » . (المترجمة)

الذي استقبلنا به الرومانسية التي كانت في جوهرها حركة منفتحة وواضحة كان سائدا في القرن السابع عشر حتى قبل ان يكون لنا وعي بقوميتنا .

اذن فقد كان معاصرو خوان رويث د ي الاركون على صواب حينما اتهموه بالانطواء على الرغم من أنهم اسهبوا في الحديث عن عوقه اكثر مما ابدوه من اهتمام بفرادة اعماله . فقد الغى الاركون في الجزء الاعظم من اعماله المسرحية بحق اعمال معاصريه من الاسبان وموقفه هـذا يتضمن على نحو غامض الالغاء الذي كثيـرا ما قابلت به المكسيك اسبانيا . فمسرح الاركون كان ردا ايجابيا ومتألقا في ذلك العصر على الحيوية الاسبانية وقد تشل ذلك الرد بـ « نعم » عظيمة للتأريخ وللعواطف . وفي حين راح لوپه دي بيغا[٥] يمجد الحب ، البطولة ، الانسانية الخارقة واللامعقول ، طرح الاركون حيال هذه المفاهيم المبالغ فيها صفات اخرى اكثر رقة وبرجوازية الا وهي : الكبرياء ، دماثة الخلق ، المكابرة المشوبة بالأسى والحياء البهي . فما كانت المشكلات الاخلاقية لتعني لوپه الذي كان يهيم بالحدث المسرحي على غرار معاصريه وسيأنف كالديرون[٦] فيما بعد ، شأنه شأن لوپه ، من طروحات علم النفس ، فالصراعات النفسية وحالات التذبذب والاخفاق وما يعتمل في النفس البشرية ماهي الا استعارات مجازية تشف عن مأساة لاهوتية ستصبح ابرز

---

(٥) لوبه دي بيغا (١٥٦٢ ـ ١٦٣٥) شاعر وكاتب مسرحي وروائي اسباني ، عد واحدا من رموز الادب الاسباني الاكثر تألقا وتأثيرا في العصر الذهبي ولاسيما في المسرح ، وقد ناصب خوان رويث دي الاركون العداء . من مسرحياته « السيدة البلهاء » « العاشقة المتكتمة » « فارس اولميدو » .
(المترجمة)

(٦) كالديرون دي لاباركا (١٦٠٠ ـ ١٦٨١) شاعر وكاتب مسرحي اسباني . . اشتهر بمسرحياته الدينية التي بلغت الثمانين ، من اشهر اعماله « الحياة حلم » و « عمدة ثلميه » التي طرحت افكارا فلسفية عميقة في الانسان والوجود .
المترجمة

شخصيتين فيها الخطيئة الاصلية والعناية الالهية • وخلافا لذلك نجد في ملاهي الاركون التي مثلت اكثر من غيرها ان السماء بكل ما تحمله من معان دينية موضوعة غير ذات شأن أسوة برياح العاطفة التي تعصف بشخوص لوبه •

يرى المكسيكي ان الانسان ماهو الا مخلوق مركب • فالخير والشر يمتزجان في روحه امتزاجا شفيفا ، لذا فهو يؤثر التحليل على القياس • اي ان البطل يغدو مشكلة • فمسألة الكذب تثار في ملاه عدة • الى اي مدى يكذب الكذاب حقا ويميل الى الخداع حقا ؟ ألا يكون هو أول ضحايا خداعه وتكون نفسه تلك التي تخدع ؟ ان الكذاب ليكذب على نفسه : اي انه يخشى نفسه • وعند طرح مشكلة الاصالة ، قدم الاركون سلفا واحدة من الموضوعات الثابتة في تأمل المكسيكي ، وهي الموضوعة التي سيتصدى لها فيما بعد ردولفو او سيغلي[٧] في عمله الموسوم بـ « الايمائي » •

لاينتصر عالم الاركون للعاطفة ولا للرحمة وكل شيء فيه خاضع للمعقول • أما النموذج السائد في شخوصه فانهم اولئك الذين يتحلون بروح متفائل غفور • واذا ما استبدلنا بتلك المثل الحيوية الرومانسية التي نادى بها لوبه نماذج مجردة من اخلاق كونية معقولة ، ألا نراها تهرب منا أو انها كينونتها تتسرب من بيننا ؟ فرفضها الشبيه برفض المكسيك لايثبت تفردنا حيال تفرد الاسبان • والقيم التي يقرها الاركون تنتمي الى البشر جميعا وهي موروث يوناني روماني مثلما هي ارهاص بالاخلاق التي سيفرضها العالم البرجوازي اذ انها لا تعبر عن عفويتنا ولا تفض نزاعاتنا ، انما هي اشكال لم نكن نحن من ابتدعها ولا قاساها ، او انها أقنعة • ولم يحدث ان قدر لنا ان تتصدى لتلك الـ « نعم » الاسبانية بـ « نعم » مكسيكية الا في أيامنا هذه

(٧) رودولفو اوسيغلي : (١٩٠٥ —) كاتب مسرحي مكسيكي . كتب الكثير من المسرحيات الساخرة الاجتماعية والتأريخية . منها « صبي الضباب » و « الايمائي » وغيرهما .
المترجمة

نعم اننا لم نقدم اثباتا فكريا خلوا من خصوصياتنا ، واذا وضعت الثورة المكسيكية باكتشافها الفنون الشعبية اللبنة الأولى لاصول الرسم الحديث فحينما اكتشفت اللغة المكسيكية خلقت الشعر الحديث .

واذا كان المكسيكي يهمو الى خلق عوالم مغلقة في السياسة والرسم والشعر ، في محيط العلاقات اليومية ، يسعى الى سيادة مفاهيم الحياء والحشمة والتحفظ المتكلف . فهذا الحياء النابع من الخجل من عرينا الشخصي او من عري الاخرين ليكاد يكون انعكاسا جسديا بيننا . ولاشيء يفوق هذا الموقف هذا سوى الخوف من الجسد الذي يعد احدى ميزات الحياة الاميركية . ان جسدنا لا يخيفنا ولا يخجلنا ، بل نحن نواجهه على نحو طبيعي ونحيا ذلك بنوع من الزهو وهو ما نفترق به عن البيوريتانيين . ونحن نؤمن ان للجسد وجوده وهو الذي يمنح كينونتنا ثقلها وابعادها كما اننا نتعذب به ونستعذبه ، فهو ليس ثيابا ألفنا الاقامة بها ولا هو بالشيء الغريب عنا : اذن نحن جسدنا . الا ان نظرات الغرباء تنتهكنا ، لأن جسدنا لا يواري دواخلنا ولكنه يشف عنها . وبهذا المعنى يكتسب الحياء صفة دفاعية ليصبح بمثابة سور الصين الذي يحيط خلقنا او تلك الاسيجة التي تشيد في الحقول من مواد تالفة او من نبات الصبار كيما تفصل بين اكواخ المزارعين . ومن هنا أمست الحشمة هي اكثر الفضائل التي نقيم لها وزنا لدى النساء ، والكتمان هو ابرز صفة لدى الرجال ولهذا كان لابد للنساء من الحفاظ على اسرارهن .

لاشك في ان ما يشعر به « السيد » من زهو رجولي يتدخل في مفهومنا عن الحشمة الانثوية ، ذلك الزهو الذي توارثناه عن الهنود والاسبان . فالمكسيكيون كما هو شأن الشعوب الاخرى لايرون في المرأة سوى أداة لاشباع رغبات الرجل او لتنفيذ الغايات التي يمليها عليها القانون والمجتمع والاخلاق . ولابد لنا من القول انه لم يحدث قط أن سئلت عن موافقتها فيما يتعلق بهذه الغايات وانما كانت دوما تشارك في تحقيقها مشاركة سلبية بوصفها

تجسيدا لبعض القيم . وسواء أكانت المرأة بغيا او الاهة او سيدة عظيمة ، او حبيبة فهي ابدا تنقل القيم والقدرات التي توكلها اليها الطبيعه والمجتمع ، وتصونها ، الا انها لا تبتدعها . وهكذا تعدو المرأة في عالم خلق على وفق مشيئة الرجل رجعا لارادة الذكور ورغباتهم حسب . وبسلبيه تامـه تستحيل الاهة او حبيبة او كائنا يجسد عناصر الكون القديمة والثابتة : اي الارض ، اما وبكرا . اما اذا ما أبدت بعض الايجابية فستعـد آنذاك دوما وظيفه او وسيلة او ممر عبور ... لان الانوثة لا يمكن لها ان تغدو أبدا غاية بذاتها مثلما هي الذكورة .

وفي بلدان اخرى تنجز بعض هذه الوظائف علانية وفي وضح النهار ، ففي بعضها تحظى البغايا والعذارى بموضع احترام وفي بعضها الاخر تكـرم الامهات وتكاد في جميعها تلقى الجدة كل الاجلال والتبجيل . غير اننا نحبذ ان نخفي مثل هذه الخصال او الفضائل . فلابد للسر من أن يصبح رفيقـا للمرأة . ولكنها ينبغي ألا تواري نفسها حسب بل ان تبدي نوعا من اللامبالاة المتفائلة ازاء العالم ، ولابد ان تكون « محتشمة » في اشواطها الغرامية و « ملتاعة » عند المحن ، وورود افعالها في كلا الموقفين لن تكون غريزية ولا شخصية ، بل تتوافق مع نموذج أشمل . وهذا النموذج كما هو الحال عند « الذكر » يرغب في توكيد الجوانب الدفاعية والسلبية ضمن مجموعة مـن القيـم تتأرجـح بين الحياء ، « الحشمـة » ، المكابرة والتسليم بالواقـع واللامبالاة .

يفسر لنا الموروث الاسباني العربي هذا السلوك تفسيرا كاملا ، لان موقف الاسبان من النساء هو موقف غاية في البساطة ويتجلى على نحـو وحشي ومقتضب في المثلين الآتيين : « المرأة في الدار كسيرة السـاق » و « بـين القديسة والقديس جدار محكم » . فالمرأة وحـش أليف ، شبقـة وخاطئة بالولادة لا مفر من تطويعها بالعصا وكبح جماحها بـ « رادع الدين » . لذلك

نجد كثرة من الاسبان يعدون الاجنبيات اللائي ينتمين الى بلدان ذات اعراق واديان مغايرة لهم طرائد سهلة . الا ان المرأة في نظر المكسيكي هي كائن غامض ، سلبي وسري . وهو لا يعزو اليها اي غرائز سيئة ، بل يزعم انها لا تمتلكها اساسا . او بعبارة أصح انها لا تعود اليها بوصفها امرأة بل الى جنس المرأة بأسره : المرأة تجسد ارادة الحياة ، التي هي في جوهرها ارادة غير شخصية . ولمثل هذا السبب يغدو مستحيلا ان تحيا حياة خاصة بها ، اذ أن تكون ذاتها سيدة رغبتها وعاطفتها ونزوتها هو خيانة لذاتها ، والمكسيكي الذي يفوق الاسبان حرية والحادا ، بوصفه وريث الاديان الطبيعية العظمى الثلاثة التي سبقت عصر كولومبس ، لايدين العالم الطبيعي ولا يرى ان العشق الجنسي موشح بالحداد وبالرعب كما هو حاله في اسبانيا ... والخطورة لا تكمن في الغريزة بذاتها بل في ممارستها شخصيا . وهكذا تعاود فكرة السلبية الظهور ثانية اي سواء اكانت المرأة مستلقية ام واقفة ، بكامل ثيابها ام عارية فهي لا تمتلك ذاتها ابدا ، انما هي تعبير لامبال عن الحياة ، او ممر عبور الى الشهوة الكونية ، وفي هذا المعنى فهي لا تمتلك اي رغبات امتلاكا صرفا .

تؤيد الاميركيات بعامة غياب الغرائز والرغبات ، غير ان اصل هذا الادعاء لمختلف بل على النقيض من الاول . فالاميركية تخفي بعض الاجزاء من جسدها ... وفي احيان اخرى من نفسها أو تنكرها ، لانها ترى فيها اجزاء تفتقر الى الاخلاق ، أذن هي لا وجود لها ، لكنها بهذا الانكار تكبت عفويتها .. في حين ان المكسيكية هي ببساطة امرأة فاقدة الارادة ، يغفو جسدها ولا يتأجج مالم يوقظه احد . وهي ليست سؤالا البتة ، بل هي جواب ، مادة طيعة رجراجة ينحتها خيال الذكر وحسيته . وازاء الحيوية التي تبديها بعض النساء ، رغبة منهن في ايقاع الرجال في شباكهن بخفة الروح وميد الجسد ، نجد ان المكسيكية تبدي نوعا من الوقار المتصنع وسكونا حقيقته

رجاء وأنفة في آن واحد • اذ الرجل يحوم حولها • يحتفي بها • يتغنى بها ويترك جواده وخياله يجمحان • اما هي فتبقى غارقة في حشمتها وسكونها ، انها معبود • وكأي معبود آخر له من القوة والسحر اللذين تتنامى فاعليتهما وسطوتهما ، مادام الطرف الاخر ، مصدر الايعاز ، خفيا وسلبيا • وهذه مسألة قياس كونية : اي ان المرأة لا تبحث عن الاخر بل تجتذبه ، ومركز جذبها يقبع في جنسها الخبيء السلبي أو في تلك الشمس السرية الساكنة •

واذا ما حسبنا ان المكسيكية هي امرأة حساسة وقلقة جدا فان هذا الفهم الزائف بعض الشيء لا يجعل منها محض اداة او شيء ، لان المكسيكية كسائر النساء الاخريات هي الرمز الذي يجسد الاستقرار وديمومة الجنس البشري • ولهذا تتوحد قيمتها الاجتماعية بقيمتها العالمية : فوظيفتها في الحياة اليومية تكمن في انها تجعل مفاهيم من مثل القانون والنظام والتقوى والعذوبة هي السائدة • كلنا يحرص على ان « لا يعوزنا احترام السيدات » ولاشك في ان هذا تصور عالمي ، الا اننا في المكسيك نتعامل وأياه حتى اقصاه فاليها يعود الفضل في تشذيب الكثير من الجوانب الفظة التي تسود علاقتنا ولاسيما « علاقة الرجل بالرجل » ، ومن الطبيعي كان لابد لنا ان نسأل المكسيكيات رأيهن في هذا « الاحترام » فهو احيانا اسلوب مراء لاخضاعهن واعاقتهن عن الافصاح عما في قرارة انفسهن • فالكثير منهن يحبذن ان يعاملن « باحترام » اقل (وهو ما يقتصر على الحياة العامة حسب) ولكن بحرية اكبر وصدق اكثر • نعم ، ان نتعامل بوصفها كائنا بشريا لا رموزا او وظائف • ولكن كيف لنا ان نسمح لهن بالتعبير عما يعتمل في قرارة انفسهن اذا كانت حياتنا كلها تميل الى ان تشل نفسها خلف قناع يخفي كل مافي دواخله ؟ •

اذن ، لا التواضع الذي تتصف به ولا ما يفرض عليها من رقابة اجتماعية يمكنهما ان يعصما المرأة من الخطأ ، انها معرضة لكل اشكال الخطر

التي تصاب اخلاقها بالعجز أمامها او حماية الذكر اياها . ولعل هذا يعزى الى تكوينها « المنفتح » او الى وضعها الاجتماعي بوصفها ملمنا للشرف حسب المفهوم الاسباني . ان الشر متأصل فيها ، فهي بطبيعتها كائن « مثلوم » ، بل طبقا لالية استعاضة يسهل تفسيرها ، فالمرأة تصنع من ضعفها الاصلي فضيلة لتجترح « اسطورة المكسيكية الملتاعة » . ذلك ان المعبود الهش الذي يحيا ابدا في طور التحول الى كائن بشري ، يمسي ضحية لكنه ضحية متحجرة ، لا تستشعر المعاناة بل اخرستها تلك المعاناة (مادام الشخص « المعاني » اقل احساسا بالألم من شخص قلما عركته عوادي الدهر) . وفي اثر هذه المعاناة تصبح النساء كالرجال في العصمة ، اللامبالاة ورباطة الجاش .

ورب قائل يقول أننا حينما نصنع من عمل مشين فضيلة فاننا نزعم افراغ ضميرنا واخفاء الحقيقة الجسور الكامنة وراءه بصورة او بأخرى . وهذا صحيح ، وصحيح ايضا اننا عندما ننسب الى المرأة الصلابة عينها التي تتوق اليها فانما نسبغ على تكوينها القدري المنفتح على الخارج [illegible] ـة لذلك فالمرأة سرعان ما تتجاوز وضعها لتكتسب مزايا الرجل نفسها بفضل معاناتها وقدرتها على تحملها دونما شكوى .

ومما يثير الفضول ان نلاحظ ان صورة « المرأة السيئة » تكاد تقترن دوما بفكرة الحيوية و « المرأة السيئة » نقيضا « للأم المتفانية » والحبيبة المنتظرة والمعبودة الصامتة .. هذه الكائنات الساكنة ، هي [illegible] تغدو وتروح وتفتش عن الرجال لتهجرهم . واذا ما اتبعنا الآلية الاتفة الذكر فان حركتها المبالغ فيها تجعل منها امرأة صلبة لان الحيوية والتهتك يتحدان فيها وينتهيان الى تحجير روحها . اذن « المرأة السيئة » هي كائن صلب ، كافر ، مستقل مثلها مثل « الذكر » ، واذ تسلك طريقا يختلف عن [illegible] الرجل فانها تتخطى تكوينها الفسلجي وتنغلق على نفسها ازاء العالم .

من ناحية اخرى بات من الضرورة بمكان ان ننظر الى العلاقة المثلية بين الذكور نظرة اكثر رأفة قدر تعلق الامر بالعنصر الايجابي ، في حين ان العنصر السلبي هو ، خلافا لذلك ، كائن حيوي وضيع وخسيس ، انها لعبة « الخطرين » تماما . فالمشادات الكلامية القائمة على التلميحات النابية المزدوجة المعنى التي غالبا ما تمارس في مدينة المكسيك توضح لنا هذا المفهوم الغامض ، اذ يسعى كل متحدث الى الاطاحة بخصمه من خلال ايقاعه في افخاخ كلامية وتراكيب لغوية حاذقة والمنهزم في هذه اللعبة هو ذاك الذي يسقط في يده ولا يقوى على الرد فيتجرع كلمات عدوه على مضض ، تلك الكلمات المشوبة باشارات قاسية جنسيا . والخاسر يستحوذ على غريمه وينال منه ، ليمسي موضع استهزاء وسخرية الحضور . هكذا تبدو العلاقة المثلية بين الرجال متسامحة شريطة النيل من العنصر السلبي . اما المهم في هذه العلاقات بين الذكور فهو « عدم الانفتاح » وفي الوقت نفسه النيل من الطرف المقابل وجرحه .

أرى ان هذه المواقف جميعا ، بخلفياتها المتباينة ، تؤكد شخصية « المنغلق » في ردود أفعالنا تجاه العالم او تجاه نظرائنا . الا أن أساليب التحفظ والدفاع لاتكفي . فالتصنع الذي نغفله بسبب من سلبيتنا ، لانه يشترط ابداعا فعالا او انبعاثا متجددا في كل لحظة ، ماهو الاشكل من اشكال سلوكنا المألوفة . نحن نكذب متعة وخيلاء . نعم ، ككل الشعوب المولعة بالخيال ، ولكننا ايضا نكذب لنخفي أنفسنا ولنلبس لبوس الدخلاء . فللكذب في حياتنا أهمية حاسمة ، في السياسة والحب والصداقة ، ونحن لا نقصد من خلاله خداع الاخرين بل خداع انفسنا ايضا . وفي هذا يكمن سبب خصبه وكل ما يجود به من ابداعات مضحكة تميزه من بقية الشعوب . لذا فان الكذب هو لعبة مأساوية ، بها نجازف بجزء من كينونتنا ولهذا بات استنكاره امرا عقيما .

ينبغي المتصنع ان يكون على غير ما هو عليه . وحركاته تستلزم ارتجالا مستديما والمضي دوما قدما وسط رمال متحركة ، اذ يتحتم عليه في كل لحظة أن يعيد بناء الشخصية التي يتصنعها ويخلقها ويقومها الى أن يبلغ اللحظة التي يختلط فيها الواقع بالشكل .. والحقيقة بالكذب لذا يعتمد المتصنع على سلسلة من الابتكارات الرامية الى ابهار الاخرين على نحو يتفوق فنيا على الواقع . فكذبنا يعكس في آن واحد كل ما نفتقده وما نهفو اليه ، ما ليس نحن عليه وما نصبو الى ان نكون . والتصنع وسيلة بها نقترب من انموذجنا ومن ذلك « الايمائي » الذي رآه أوسيغلي عميقا متوحدا بايماءاته مانحا اياها اصالتها .فموت البروفيسور روبيو . الجنرال روبيو . ذلك الثوري الصادق والرجل القادر على قيادة الثورة الراكدة وتطهيرها نقله الى ماكان يتوق اليه . في عمل أوسيغلي ذاك يختلق البروفيسور روبيو نفسه ليصنع منها جنرالا .. كانت كذبته حقيقية حد أن نابارو الفاسد لم يجد سبيلا اخر سوى الاجهاز على الجنرال روبيو رئيسه القديم .. ليقتل فيه حقيقة الثورة .

ولئن كان بمستطاعنا ان ندرك الاصالة من خلال الكذب فان المغالاة في الصدق قد تفضي بنا الى أشكال سامية من الكذب . نحن بالحب « ننفتح » ونظهر كل مافي دخيلتنا ، فثمة تقليد قديم يميل الى ان يستعرض الصب المعذب مكابداته امام الحبيبة . الا ان هذا العاشق عندما يفصح عن لوعته في الحب فانما يحيل كينونته شيئا او صورة يسلمها الى تأمل المرأة بل تأمله هو نفسه . وحينما يفصح عن نفسه ، فهو يفعل ذلك كيما يتأمله الاخرون بعيون حانية مثلما يفعل هو . وهاهي نظرات الاخرين لاتعريه بل ترفق به وتشفق عليه ، وعندما يستعرض نفسه أمامهم فانما يدعوهم الى تأمله بالعيون نفسها التي يرى ذاته بها ، وفي ذلك هروب من اللعبة الايروسية . هكذا ينجو بكينونته الحقة ويستبدل بها صورة منها ، وينتشل دواخله اللائذة بأعينهم

التي يرى في حقيقتها تأمله ذاته وشفقته عليها .. ثم يستعيد صورته والنظرة التي تتأملها .

عاشت العلاقات الانسانية ولاسيما العاطفية منها دائما وابدا في خطر التحول الى علاقات تتسم بالخطأ ولم تكن النرجسية والمازوكية بنزعتين تقتصران على المكسيكي دون غيره ، بل كنا نلاحظ على الدوام أغاني شعبية وامثالا وممارسات يومية تصور الحب زيفا واكذوبة . وكنا على الدوام نتحاشى مخاطر علاقة عارية من خلال المبالغة في مشاعرنا ، وان كانت مبالغة صادقة في حقيقتها . وصار بديهيا أيضا كيف تتأجج طبيعة الحب الشبقية العدوانية وتحتدم فينا . فالحب محاولة للنفاذ الى كينونة اخرى لكنه محاولة يشترط تحقيقها وجود عطاء متبادل بين كلا الطرفين . اذ يبدو مثل هذا التخلي عن الذات في كل أرجاء العالم امرا شاقا . فضلا عن ذلك فقد كانت هناك قلة ممن يتفقون على مثل هذا العطاء واقل منهم ممن استطاعوا تخطي مرحلة التملك ليبلغوا مرحلة الاستمتاع بالحب على حقيقته : اي ذلك الاكتشاف السرمدي ، ذلك الغوص في أمواه الواقع وذلك الاستمتاع الدائم . نحن نفهم الحب غزوا وصراعا ، لكنه لا يعني اختراق الواقع من خلال جسد ما مثلما يعني خرقه ، والى ذلك يعزى الالتباس في صورة العاشق المحظوظ التي ورثناها عن دون خوان الاسباني وصورة الرجل الذي يلوذ بمشاعره ، الحقة والمختلقة ، لبلوغ المرأة .

كان التصنع ، في اغلب الاحيان ، يعد نشاطا شبيها بنشاط الممثلين و يمكننا التعبير عنه بصور شتى تتظاهر بها كما لو أنها شخوص لنا . غير ان الممثل الحق يهب ذاته تماما للشخصية التي يمثلها ويجسدها تمام التجسيد وما أن ينتهي العرض حتى ينسلخ عنها كما تنض الافعى جلدها عنها في حين ان المتصنع لا يهب ذاته ولا يغفلها أبدا ، اذ ان توحده بصورته سيقتاده الى التخلي عن تصنعه . وفي الوقت نفسه ، فان هذا الاختلاق سيصبح جزءا

هجينا لا يتجزء من كينونته : لقد كتب عليه ان يمثل طوال حياته مادام قد خلق شكلا من التواطؤ بينه وبين شخوصه ، لا ينفصم بسوى الموت أو التضحية ، فقد اقام الكذب بكينونته وأمسى قرارة لشخصيته .

ان التصنع هو الاختلاق او بكلمة ادق هو التظاهر ، وبهذا نتحرر من شرطنا . اما المواراة فانها تشترط رقة أكبر ، اذ بوسع من لا يمثل ان يواري مافي داخله أو أن يسعى الى اخفائه عن الابصار ، أو أن يحيا بلا وعي ولكن دون أن يهجر كينونته . والمكسيكي يغالي في مواراة عواطفه ونفسه ، يخشى نظرة الاخر ، ينطوي على نفسه ، يتضاءل حتى يغدو ظلا ، شبحا وصدى . فهو لا يخطو في مسيره ، بل ينزلق ، لا يقترح بل يلمح ، لا يجيب بل يهمهم ولا يشكو بل يبتسم ، وحتى عندما يغني تراه حين لا ينفجر او يفتح صدره للغناء ، يفعل ذلك من بين أسنانه وبصوت خفيض ليواري غناءه :

لكم هي جائرة
هذه المواراة
التي برغم اشواقها الغريبة
تفعم فؤادي ،
لي نظرات تحد
وصوت مستكين للقدر

لربما ولدت هذه المواراة في فترة الاستعمار ، حينما كان على الهنود المولدين ان يغنوا مثلما ورد في قصيدة ريس[8] « من بين الاسنان لن تسمع كلمات التمرد جيدا » . لقد آل العالم الاستعماري الى الزوال ، غير أن

---

(٨) الفونسو ريس (١٨٨٩ - ١٩٥٩) شاعر ومؤرخ وناقد مكسيكي ، من ابرز اعلام الادب الاميركي اللاتيني الحديث . ومن مؤلفاته « رؤية اناواك » و « ساعة الشمس » و « التجربة الادبية » .. وغيرها ..

(المترجمة)

الخوف وفقدان الثقة والريبة لما تختف بعد ٠ اما الان فنحن لا نواري غيظنا حسب ، بل رقتنا أيضا ٠ يقول القرويون « وار خطئي يا سيدي » عند طلبهم المغفرة فنواري ونواري أنفسنا حتى لا يعود لنا من وجود ٠

تلتقي المواراة في اشكالها الجذرية بالتوحد بالبيئة ، فالهندي يتماهى في الطبيعة ، تتوحد صورته بالسياج الابيض الذي يتكىء عليه مساء ، بالارض الدكناء التي يستلقي فوقها ساعة الظهيرة ، وبالصمت الذي يلفه ، انه يواري تفرده الانساني حد الغائه فيمسي حجرا ، شجرة ، جدارا ، صمتا وفضاء ٠ لا اعني بهذا انه يتقاسم مع كل شيء وجوده تبعا لصيغة وجود الوجود ٠٠ ولا أعني أن في الشجرة الواحدة تلتقي الاشجار جميعا ٠٠ بل هو حقا يختلط على نحو خاص ومحدود بشيء معين ٠

يرى روجيه كايوا[٩] ان التوحد بالبيئة لا يشترط دوما محاولة الاحتماء من التهديدات الخفية المفترضة التي تتناسل في العالم الخارجي ٠ فأحيانا تتصنع الحشرات الموت ، تحاكي اشكال المواد في حالة تحللها ، مأخوذة بفكرة الموت وبخمول الفضاء ٠ ان هذا السحر ، او قوة جذب الحياة هذه كما أطلق عليها ، هو قاسم مشترك بين البشر وحينما يجسد نفسه تماهيا بالبيئة فانه يثبت لنا اننا يجب ألا نعد ذلك تحديدا مصدرا للغريزة الحيوية التي تدفعنا الى الهرب من الخطر ومن الموت ٠

وسواء أكان التوحد بالبيئة دفاعا أمام الخارج أم سحرا امام الموت فهو لا يقوم على تبديل الذات بل تغيير المظهر ٠ ومن المهم ان يكون الشكل الذي نختاره ، سواء أكان موتا أم فضاء ، خاملا وفي حالة سكون ، اذ ان

---

(٩) روجيه كايوا (١٩١٣–١٩٨٧) أديب فرنسي وعضو الاكاديمية الفرنسية عني باداب اميركا اللاتينية وترجم الكثير من اعمال كتابها الى الفرنسية ٠ من كتبه : « الكتابة الحجرية » و « الاسطورة والانسان » و « في قلب الفنطازيا » ٠
المترجمة

يستطيل المرء في الفضاء او يندغم فيه أو أن يصبح فضاء ماهي الا وسائل لرفض المظاهر لكنها ايضا وسيلة كيما يصبح المرء مظهرا ليس غير . والمكسيكي يرهب المظاهر رهبته الحب الذي يكنه له القادة والديماغوجيون. ولذلك فهو يواري وجوده الخاص حد التماهي بالاشياء التي تحف به . وهكذا تفضي به خشيته المظاهر الى أن يغدو مظهرا حسب . فهو يتظاهر بأن يكون شيئا آخر ، بل هو يؤثر ان يتظاهر بمظهر الموت او عدم الوجود قبل ان يبوح بما في دواخله ويتغير . ان مواراة هذا التماهي هي في النهاية واحدة من الصيغ التعبيرية الكثيرة عن تكتمنا .. ولئن كان الايمائي يلوذ بالتنكر ، فنحن نميل الى أن نحيا دونما وعي وفي كلتا الحالتين تخفي كينونتنا تارة وننكرها أخرى . اذكر ذات مساء وقد تناهت الى سمعي جلبة في الغرفة المجاورة لغرفتي فهتفت متسائلا : من هناك ؟ ليجيبني صوت الخادم التي وصلت توا من قريتها : لا أحد يا سيدي ، هذي أنا .

نحن لا نواري انفسنا ونحيلها شفافة وشبحية حسب بل نواري أيضا وجود اشباهنا . ولا أقصد بذلك أننا نتجاهلهم او نستهين بهم ، فهذه أفعال تنم على القصدية والعجرفة . الا اننا نواريهم على نحو قاطع وجذري : اي أننا « لا نؤاحدهم » . وهذه « اللامؤاحدة » تقوم على اساس ان نصنع من أحد ما لا أحد . وهكذا سرعان ما يصبح العدم شخصا له جسد وعينان ويغدو لا أحد .

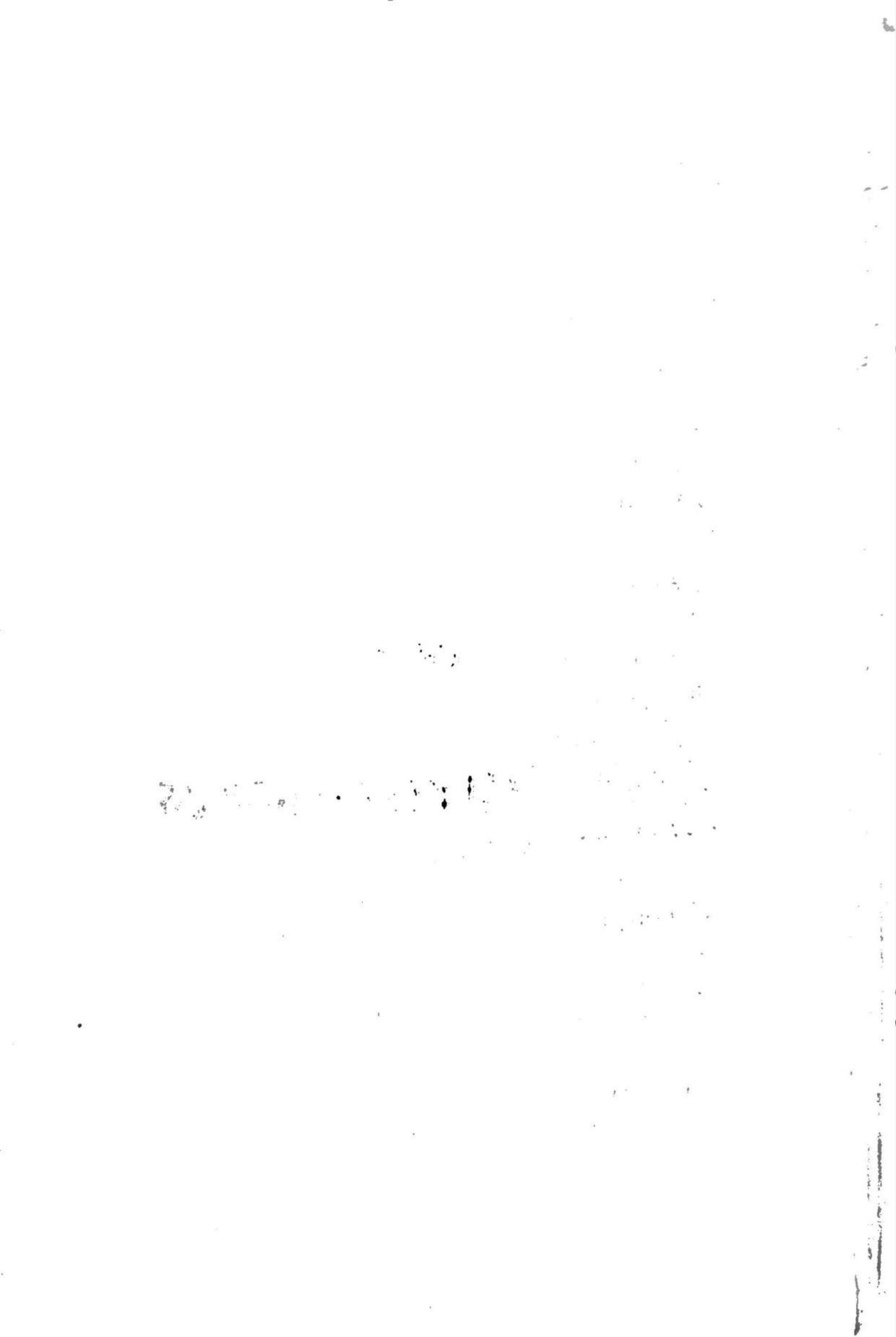
فالسيد نكرة ، هذا الاب الاسباني الذي أنجب « اللاأحد » يتمتع بصفة سيد وهو بطين وله صيت وحساب في المصرف ، ويتحدث بصوت جهوري واثق . والسيد نكرة هذا يملأ العالم بحضوره الفارغ المجلجل . فهو حاضر في كل مكان وله اصدقاء في كل الانحاء ، انه صيرفي ، سفير ، رجل أعمال .. يتنقل بين كل المجالس .. يقلد أوسمة في جامايكا واستوكهولم ولندن ، انه موظف او شخص ذو جاه ، له طريقته الشرسة

والمتعجرفة في الا يكـــون . شخص نكــرة صامت وخجــول .. فــوض امره الى القدر .. حساس ، ذكي ، يبتسم دوما وينتظر دوما .. كلما هــم بالكلام اصطدم بجدار من الصمت . كلما ابتدر أحدا بالتحية الفى امامه جدارا زجاجيا . اذا ما توسل او بكى او صرخ ، تلاشت حركاته وصرخاته في الفراغ الذي يخلقه هذا السيد نكرة بصوته الجهوري . و « لاأحد » هذا لا يجرؤ على الا يكون : فهو يتردد ، يعاود الكرة مرة واخرى في أن يكون أحدا . وفي نهاية المطاف يضيع في ذلك التيه الذي طلع منه ذات يوم .

لعل من الخطل التفكير في ان الاخرين يحولون دون وجــوده . اي ببساطة يوارون وجوده او يتصرفون كما لو أن لا وجود له ، او يمحونه ويلغونه « ولا يؤاحدونه » اذ من اللاجدوى ان يتحدث نكرة او ان ينشر كتبا او ان يرسم لوحات او ان يرأس مجلسا ما . ان نكرة هذا هو الغياب في نظراتنا . هو لحظة التوقف في احاديثنا وهو صمتنا المتكتم .. هو الاســم الذي كثيرا ما تحملنا حتمية غريبة على نسيانه .. انه الغائب السرمدي . ذلك المدعو الذي لم ندعه ، الهوة التي لاتردم .. انه الغاء . وعلى الزغم من كل هذا فأن « لا أحد » حاضر بيننا ابدا . هو سرنا ، جريمتنا وندمنا لذا فمن « لا يؤاحد » أنسانا سيصبح ضحية هذه « اللاموءاحدة » . فهذا اللاأحد هــو الغــاء لأحــد وان كنــا جميعــا لا أحــد . اذن لــن يكون لأي منا وجود ، فالحلقة ستغلق وسيطغى ظل « لا أحد » على المكسيك ، ليضيق الخناق على ذلك الايمائي ويشمل كل شيء . فهناك فوق ارضنا ماهو اقوى من الأهرام والقرابين ، من الكنائس ، من التمرد ، ومن الاغاني الشعبية ... انه الصمت الذي يسبق بوجوده التأريخ .. الصمت العائد كي يرين ثانية .

الفصل الثالث

كل القديسين، يوم الموتى



يهوى المكسيكي المستوحد الاعياد والتجمعات الشعبية ، ويخلق من كل شيء مناسبة للقاء ، اذ تبدو كل ذريعة صالحة لكسر سير الزمن وللاحتفال بالاعياد والطقوس والبشر والاحداث . فنحن شعب مولع بالطقوس وهذا الولع يذكي مخيلتنا ورهافة حسنا اليقظتين والمشحوذتين دوما ، وما فتىء فن العيد ، هذا الفن الذي أسيء اليه كثيرا في مختلف ارجاء العالم ، عندنا سليما معافى ، اذ قلما يقيض للمرء ان يحيا اجواء مماثلة لتلك الاعياد الدينية الكبرى في المكسيك بألوانها الفاقعة بطعمها الحريف الخالص ، برقصاتها وشعائرها بالعابها النارية وثيابها الغريبة وبذلك الكم الهائل من المفاجآت ، من الفاكهة والحلوى وكل ما يباع في مثل هذه الايام في الساحات والاسواق .

لذا فان تقويمنا مأهول بالاعياد . ففي أيام معينة نرى أن البلاد بأسرها ، سواء في أطرافها القصية أم في مدنها الكبرى ، تصلي ، تهتف ، تأكل ، تثمل وتقتتل اكراما لعذراء غوادا لوبه[1] وللجنرال ثاراغوثا[2] ،

---

(١) عذراء غوادالوبه : هي السيدة العذراء التي يعتقد أنها ظهرت ذات يوم للهندي خوان دييغو وانطبعت صورتها على ردائه لذلك اتخذت منها بلدان اميركا اللاتينية شفيعة لها منذ عام ١٩١٠ . (المترجمة)

(٢) اغناثيو ثاراغوثا : (١٨٢٩ – ١٨٦٢) جنرال وسياسي مكسيكي شغل منصب وزير الحرب في عام ١٨٦١ حقق نصرا كبيرا على الغزاة الفرنسيين في مدينة بويبلا . (المترجمة)

وفي الخامس عشر من أيلول من كل عام وفي الساعة الحادية عشرة ليلا ، نحتفل في ساحات المكسيك قاطبة بعيد الصرخة ، حيث تصرخ الجموع المهتاجة طوال على مدى ساعة ، ولعلها تفعل ذلك كي تحسن الصمت بعدئذ بقية العام . أما في الايام التي تسبق اليوم الثاني عشر من كانون الاول والتي تعقبه فان الزمن يوقف سباقه ليعلن هدنة ، وبدلا من يخطو بنا الى الامام ، الى غد كاذب صعب المنال .. يهب لنا حاضرا ناجزا مكتملا من الرقص والأنس ، ومن المآدب ومن التواصل مع كل قديم خبيء ، اذ ذاك يكف الزمن عن تعاقبه ويعود ثانية الى سابق عهده ليستحيل حاضرا يتصالح في نهايته الماضي والمستقبل .

غير ان الاعياد التي تقدمها لنا الكنيسة والجمهورية والبلاد ليست بكافية ، فحياة كل مدينة وكل قرية مرتهنة بقديس يحتفى به بخشوع وانتظام . كما ان الاحياء والتجمعات السكنية لها ايضا اعيادها السنوية واحتفالاتها ومواكبها . خلاصة القول ان لكل منا ، ايا كان انتماؤه ، سواء أكان ملحدا ، كاثوليكيا أم لا منتميا ، قديسه الذي يحتفل به ويمجده كل عام . لذا فالاعياد التي نحتفل بها لا تعد ولاتحصى ناهيك عن الوقت والاموال التي تنفقها في تلكم الاحتفالات . تحضرني الان ذكرى رئيس بلدية في قرية متاخمة لمدينة « متلا » سألته منذ سنوات خلت : كم تبلغ موارد البلدية من الاشتراكات ؟ فأجابني : نحو ثلاثة آلآف بيسو . نحن فقراء جدا ، ولذلك يقدم لنا كل من السيد المحافظ والاتحاد المعونات لنستكمل نفقاتنا . سألته ثانية ، وفيم تنفقون هذه الثلاثة الآف بيسو ؟ أجابني : الحقيقة .. نكاد تنفقها كلها في الاحتفالات ، صحيح ان قريتنا صغيرة ، الا أن للقرية قديسين شفيعين .

وهذا الجواب ليس غريبا ، فنحن نستطيع قياس فقرنا من خلال عدد الاعياد الشعبية وبذخها ، في حين ان الاعياد في البلدان الغنية قليلة حيث

لا فائض في الوقت ولا تحدوهم رغبة على ذلك ، فضلا عن أنهم لا يجدونها ضرورية ، فأمامهم الكثير كي ينجزوه ، واذا ما رغبوا في الاستمتاع بوقتهم لجأوا الى الاحتفالات الصغيرة • ان التجمعات الحديثة هي تحشدات من المتوحدين ، وفي المناسبات الكبرى في باريس وفي نيويورك يتحشد الناس في الساحات او في الملاعب الرياضية ويبدو واضحا غياب الشعب فيهما : انهم يتجمعون أزواجا او زرافات ، ولكن دون ان نشاهد البتة أي تجمع حيوي من تلك التجمعات التي يذوب فيها شخص الانسان وينتشل في آن واحد • ولكن كيف يمكن لمكسيكي معوز ان يحيا دونما ذينك العيدين او تلك الاعياد الثلاثة التي تعوضه عن شظف عيشه وبؤسه • فالاعياد هي ترفنا الوحيد وهي بديلنا ـ وهذا بذاته حسنة ـ من المسرح ومن الاجازة ومن عطلة « نهاية الاسبوع » و « حفل الكوكتيل » التي يتسلى بها الساكسونيون ومن حفلات الاستقبال البرجوازية وحفلات تناول القهوة لدى شعوب حوض المتوسط أيضا •

في هـذه الاحتفالات الوطنية ، المحلية ، الجماعية او العائلية يفتح المكسيكي دواخله نحو الخارج لانها تمنحه الفرصة كي يجهر بما في قرارة نفسه ولكي يناجي العناية الالهية ، الوطن ، الاصدقاء او الاقرباء • وفي مثل هذه الايام نجد المكسيكي الصامت وهو يصفر ، يصرخ ، يغني ، يطلق المفرقعات في الفضاء ويفرغ حشوة مسدسه في الهواء ليفرغ بذلك شحنة روحه •• ثم تتعالى صرخته لتبلغ عنان السماء كتلك الصواريخ التي استأثرت باعجابنا دوما ولتنفجر بعدها انفجارات خضر وحمر وزرق وبيض•• ثم تهوي سريعا مخلفة وراءها ذيلا من الشرر الذهبية ، وفي تلك الليلة يشرع الاصدقاء الذين لم يتفوهوا أشهرا بسوى كلمات المجاملة القسرية في احتساء الخمرة معا والتسار بأسرارهم ، يبكون الاحزان نفسها ، ويعثرون على اخوة لهم وفي احايين اخرى يتقاتلون فيما بينهم اثباتا لذواتهم • وهكذا يصخب الليل بالاغاني وبالصراخ ، يوقظ العشاق حبيباتهم على أنغام موسيقاهم ••

وتدور الاحداث والفكاهات خلل الشرفات والارصفة حيث لا احد يتحدث بصوت خفيض ، تتطاير القبعات في الهواء وتنهمر الكلمات البذيئة والكركرات شلالا من نقود ثقيلة وتصدح القيثارات . صحيح ان الفرح كثيرا ما ينتهي نهاية سيئة: عندما تندلع المشادات الكلامية والقذف والسباب والاطلاقات النارية والطعن بالمدى ، الا ان هذا يمسي ايضا جانبا من جوانب العيد ، فالمكسيكي لا ينشد المتعة انما تجاوز ذاته والقفز فوق جدار الوحدة التي راحت تفصله عن العالم بقية العام . حينئذ يبدو الكل مأخوذا بالعنف ، فتنفجر النفوس انفجار الالوان والاصوات والمشاعر . أتراهم بذلك ينسون ذواتهم ويميطون لثاما عن أوجه حقة ؟ لا أحد يعرف ، ما يهم هو الخروج والتحرر من الهموم فالمكسيك تحيا عيدها ، وهذا العيد الذي تتقاطع فيه البروق والهذيانات هو القفا الساطع لصمتنا وجمودنا ، لتحفظنا وفظاظتنا .

يعد بعض علماء الاجتماع الفرنسيين العيد انفاقا طقسيا ، اذ ان ما تقوم به الجموع من اسراف يجعلها تستظل بظل الغبطة الالهية والبشرية لان الاضاحي والقرابين تطيب من خاطر الالهة والقديسين الشفعاء وتبتاعهم . اما الهبات وعطايا العيد فانها تشتري الشعب وتخدره . وكل هذا الافراط في الانفاق وفي تبذير الطاقات انما يؤكد اليسر الذي يرفل به الناس ، وهذا البذخ دليل عافية واستعراض للثراء والجاه أو هو فخ سحري لان بعضهم ظن ان التبذير يستجلب الثراء الحقيقي بالعدوى ، أي ان المال يأتي بالمال ، والحياة حين تروى تهب لنا حياة اكثر ، اما العربدة والافراط الجنسي فهما ايضا احتفال بالتناسل البشري . اذن فهم يرون في الاسراف قوة ، لذا كانت لاحتفالات نهاية العام في كل الحضارات معان أعمق من كونها محض تخليد لتأريخ معين . فهذا اليوم هو توقف يبلغ الوقت فيه نهايته فعلا ويفنى ، وكل ما يمارس من طقوس احتفاء بفنائه انما هو مكرس في استبعاثه . ان عيد نهاية العام هو ايضا عيد العام الجديد ، عيد الزمن الذي يبتدىء . ومن

هنا كان كل شيء يستجلب نقيضه . خلاصة القول ان للعيد وظيفة ذات نفع يفوق الاعتقاد السائد والاسراف يستثير او يستجلب اليسر كما انه استثمار مثله مثل أي استثمار اخر ، غير ان الربح فيه لا يمكن قياسه او احصاؤه لانه متعلق بالحصول على القوة والحياة والصحة ، وفي هذا السياق يكون العيد من الاشكال الاقتصادية الموغلة في القدم بفضل العطايا والقرابين التي تقدم فيه .

لطالما بدا لي هذا التأويل قاصرا . فقد كتب للعيد ان يدور في فلك كل ماهو مقدس لذلك اصبح ، قبل كل شيء ، حدوث ماهو غير مألوف لانه محكوم بقواعد خاصة ومحرمة تميزه وتصيره يوما استثنائيا . وهذه تأتي مترافقة مع منطق واخلاقية بل سلوك اقتصادي كثيرا ما يفترق عما هو سائد في باقي الايام . كل هذا يحدث في عالم مسكون . فالزمن هو زمن اخر (زمن قائم ضمن ماض اسطوري او حاضر رائق) . والمكان الذي تستحيل فيه الاشياء حقيقة يتغير شكلا وينسلخ عما تبقى من الارض ثم يزين ويحول الى « مكان للعيد » وفي أغلب الاحيان تكون الامكنة المنتقاة امكنة خاصة قلما تكون مطروقة . واما الاشخاص المشاركون في العيد فهم يتخلون عن مكانتهم الاجتماعية والانسانية ليصبحوا محض تجسيدات حية بيد أنها فانية . هكذا يدور كل شيء كما لو لم يكن يقينا ، او كما هي الاحلام . وبغض النظر عما يحدث فان سلوكنا يكتسب خفة اكبر وثقلا مغايرا ، اي سيكتسب دلائل مختلفة سنتصرف أزاءها باحساس فريد بالمسؤولية وسنتخفف من وطأة الزمن والعقل علينا .

وفي اعياد معينة تتلاشى فكرة النظام نفسها وتعاود الفوضى الظهور ويسود المسموح .. فكل شيء مباح .. أذ تختفي التدرجات المألوفة والفروقات الاجتماعية والجنسية والطبقية والتجمعات . الرجال يتنكرون في زي النساء والسادة في زي العبيد والفقراء في زي الاغنياء ، الكل يسخر من

الجيش والقساوسة والقضاة ويتولى الاطفال والمجانين زمام الحكم وتنتهك الحرمات والمقدسات على نحو قسري ويعود الحب ثانية مشوبا بالغموض واللبس • وفي أحيان أخرى يغدو العيد قداسا اسود أي قداسا لتمجيد الشيطان • حينئذ تخرق القواعد والتقاليد والاعراف ، فيرمي الانسان الوقور قناعة الادمي وملابسه القاتمة التي تفصله عن الاخرين ليرتدي الوانا قانية وليختبىء في قناع يحرره من نفسه •

اذن فالعيد ليس افراطا وتبذيرا طقسيا في الموارد التي جمعت بمشقة طوال العام حسب ، بل هو ايضا تمرد وغوص مباغت في كل ما هو خارج عن المألوف في الحياة الخالصة • في العيد ينطلق المجتمع من اسار القواعد التي فرضها على نفسه ، يسخر من آلهته ، من مبادئه ومن قوانينه ، اي انه يرفض نفسه •

العيد تمرد بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة ، ففي تلك الفوضى التي تعم ينحل المجتمع ويغرق ، بوصفه منظومة تحكمها بعض اللوائح والمبادىء ، لكنه يغرق في ذاته ، في فوضاه وفي حريته الاصلية ، لان كل شيء موصول بعضه ببعض : الخير بالشر ، الليل بالنهار ، المقدس بالمحرم ، وكل شيء يتعايش مع بعضه ، يفقد شكله وتفرده ويعود الى خامته الاولى • ومن جانب اخر ، العيد عملية كونية : انه تجربة اللانظام ، التقاء العناصر والمبادىء المتنافرة لاستبعاث الحياة ، اذ أن طقوس الموت تستثير الانبعاث والغثيان والرغبة والعربدة العقيمة بذاتها ، خصب الامهات او الارض • والعيد هو رجوع الى حالة طاعنة في القدم واللامبالاة ، حالة ما قبل الولادة او ما قبل المجتمع وان صح القول هو عودة وبداية تبعا لجدلية الاحداث الاجتماعية •

فالجموع تخرج مطهرة ومتماسكة من حمام الفوضى هذا ، بعد ان غاصت في ذاتها وفي الحشاشة عينها التي انطلقت منها او بعبارة اخرى : ان العيد يرفض المجتمع بصفته مجموعة عضوية من الاشكال والمبادىء المتباينة ،

الا انه يؤكده مصدرا للطاقةوالابداع • انهحالةاعادة خلق حقة ونقيضلما يحدث في العطل الحديثة التي تخلو من أي طقس او أحتفال لانها فردية وعقيمة شأنها شأن العالم الذي اختلقها •

في العيد يتواصل المجتمع مع نفسه •• لان أعضاء المجتمع جميعا يعودون الى الغموض والحرية الاصليين • كما تتقوض البنية الاجتماعية وتجترح اشكال جديدة من العلاقات ومن القواعد الطارئة وتظهر شرائح متقلبة الاهواء ، فالكل يهجر ذاته ليتوغل في ازمنة وأمكنة غالبا ما كانت محظورة عليه وتمحي الحدود التي تفصل بين المشاهدين والممثلين ، العاملين والحضور، الكل يشكل جزءا من العيد والكل يتلاشى في زوبعته • وأيا كانت طبيعة العيد او هويته او مغزاه فهو مشاركة ، وهذا الملمح هو ما يميزه في نهاية الامر من الظواهر والاحتفالات الاخرى : اي سواء أكان العيد دنيويا ام دينيا ، عربدة ام سهرة ماجنة فهو يظل حدثا اجتماعيا قائما على مشاركة الحضور الفعالة •

يخرج المكسيكي بفضل العيد من عزلته ليشارك أشباهه ويتواصل معهم ومع القيم التي تمنح وجوده الديني والسياسي معنى • ولعله امر بالغ الدلالة ان نرى بلدا على هذا القدر من الحزن كبلدنا له هذا العدد الكبير من الاعياد المفرحة • ان ديمومتها وهذا الألق الذي تبلغه والحماس الذي نسهم فيه جميعا كلها دليل على اننا لولا هذه الاعياد لآل بنا الامر الى الانفجار • فهذه الاعياد هي التي تعتقنا من أسارنا وتحررنا على نحو مؤقت من كل تلك الضغوط التي لا مهرب منها ، ومن تلك المواد القابلة للاشتعال الكامنة في داخلنا • ولكن العيد المكسيكي خلافا لما هو عليه الحال في المجتمعات الاخرى ، ماهو الا عود الى حالة اصلية من اللامبالاة ومن الحرية ، اذ أن المكسيكي لا ينشد العودة الى ذاته ، بل الى الخروج منها والى تجاوزها • فنحن نرى ان العيد ماهو الاانفجار او اندلاع لان الموت والحياة، الافراح والاتراح ،

الغناء والنواح تتوحد كلها في احتفالاتنا ٠ وليست غايتنا هي اللهو والتعرف بعضا الى بعض بل نهش احدنا الاخر ٠ لا فرح يفوق فرح عيد مكسيكي ولا حزن ايضا يفوق حزنه ، فليلة العيد هي ليلة حداد ايضا ٠

ولئن كنا نخفي انفسنا في حياتنا اليومية ، فنحن نطلق لها العنان في دوامة العيد ، لا نبوح بما في داخلها حسب بل نمزقها ٠ كل شيء يؤول الى الصراخ والتمزق : الغناء والحب والصداقة ٠ وبذلك يبين لنا العنف الذي تتصف به أعيادنا الى أي مدى يسد علينا انغلاقنا على أنفسنا سبل الاتصال بالعالم ، اذ أننا نجسد الهذيان والغناء والصراخ والمناجاة ، لكننا نجهل الحوار ٠ واعيادنا كاسرارنا وعلاقاتنا في الحب ومحاولاتنا اعادة تنظيم مجتمعنا ، كلها اشكال للقطيعة القاسية ازاء كل ماهو قديم وقائم ٠ وكلما استشعرنا رغبة في التعبير عن انفسنا الفينا بنا حاجة الى هذه القطيعة مع ذواتنا ٠ ولعل العيد هو المثال الاكثر تقليدية على هذه القطيعة العنيفة ، ولن يتعذر علينا ان نسوق امثلة اخرى مماثلة من مثل اللعب الذي كثيرا ما نمضي فيه حتى النهاية ، وغالبا ما يكون مميتا ومن مثل اسرافنا في الانفاق الذي يتناقض واستثماراتنا المتواضعة ومشاريعنا الاقتصادية واعترافاتنا ٠ ان المكسيكي كائن فظ منطو على نفسه ينفجر على حين غرة ، يفتح صدره ويستعرض نفسه بنوع من الرضا ويتوقف عند الجوانب المخجلة والمخيفة من دواخله ، ونحن قد نخشى الصراحة الا ان الصدق الذي تتحلى به قادر على أن يصيب أوربيا ما بالهلع ٠ والطريقة المتفجرة والمأساوية بل الانتحارية التي نعري بها أنفسنا ونسلمها بها الى الاخرين ، عزلا تقريبا ، تكشف لنا ان شيئا ما يخنقنا ويبعث فينا الخجل ، شيئا يحول دون كينونتنا ٠ ولاننا لا نمتلك الجرأة والقدرة على مواجهة كينونتنا هذه فاننا نلوذ بالعيد ، لانه يلقي بنا الى الفراغ ، الى النشوة المتلظية طلقا ناريا في الهواء والعابا نارية ٠

ان الموت مرآة تعكس كل ما تأتي به الحياة من ايماءات عقيمة . فهذا اللبس العشوائي من التصرفات ، من حالات الالغاء ، من الندم ، من محاولات الاتيان بأعمال جسيمة او ترهات تشكل بمجموعها الحياة لا يجد في الموت مغزى له او تفسيرا بل نهاية ، وحياله ترسم حياتنا مسارها وتصاب بالجمود . الا انها قبل ان تتقوض وتتداعى في العدم تشكل نفسها وتستعيد كمال هيأتها : نحن لا تتغير الا لنتلاشى كما لو أن موتنا يضيء حياتنا . اما اذا افتقر موتنا هذا الى المعنى ، فذلك لان حياتنا كانت تفتقر اليه . لذا اعتدنا القول « ان فلانا سعى وراء حتفه » اذا ما مات احدهم ميتة عنيفة . وهذه حقيقة ،اذ أن لكل منا ميتة ينشدها ، ميتة يصنعها ، سواء اكانت ميتة راهب ام ميتة كلب ، انها جميعا انماط للموت تعكس انماطا للحياة ، واذا ما غدر بنا الموت ولقينا حتفنا على نحو سيء فسيأسف على ذلك الجميع : اذن لابد لنا أن نموت كما نحيا لان الموت كالحياة كلاهما لا يقبل التحول . واذا لم نمت كما حيينا فلأن الحياة التي عشناها لم تكن حياتنا حقا ولم تكن تنتمي الينا مثلها مثل سوء الحظ الذي لا ينتمي الينا ويميتنا اذن أخبرني كيف تموت لأنبئك من انت .

لم يكن التعارض بين الموت والحياة لدى قدماء المكسيكيين مطلقا كما هو شأنه معنا الان ، فقد كانت الحياة تستطيل بالموت والعكس يصح ايضا . ولم يكن الموت هو النهاية الطبيعية للحياة ، انما حلقة من سلسلة لا نهاية لها . الحياة ، الموت ، البعث .. كل هذا بات مسارح لعملية كونية تتكرر على نحو لا يعرف الشبع . وما كان للحياة من وظيفة اسمى من كونها تصب في الموت ، نقيضها ومكملها . والموت بدوره ما كان نهاية بذاته ، اذ كان المرء يلتهم بموته شراهة الحياة المطالبة ابدا بالمزيد . وكان للقربان غاية مزدوجة : فمن ناحية كان الانسان يأخذ على عاتقه عملية الخلق (عندما كان يوفي نذوره آنيا الى الالهة ، بما كان يستدينه ، للابقاء على الجنس البشري) ومن ناحية

اخرى كان يديم الحياة الكونية والحياة الاجتماعية التي كانت تستمد بقاءها من الاولى • ولعل الملمح الاكثر تميزا في هذا المفهوم هو المعنى اللاشخصي للتضحية ، فقد كان موتهم يفتقر الى مغزى شخصي ، كما هي حياتهم التي لم تكن تمت اليهم بصلة • والاموات ، بمن فيهم اولئك الذين يخرون صرعى في سوح الوغى ، او النساء اللائي يفقدن حياتهن ساعة الوضع ، رفاق أوتيزيلو بوتشلي[٣] اله الشمس ، كانوا سرعان ما يختفون بعد مرور وقت معين اما للرجوع الى « بلاد الظلال الامبالية » واما للتماهي في الهواء ، في الارض ، في النار •• وفي ذلك الجوهر الذي يحيي الكون • وبات اسلافنا لا يؤمنون بانتماء موتهم اليهم ولم يكونوا يحسبون ان حياتهم كانت حقا حياتهم بالمعنى المسيحي للكلمة ، فقد أضحى كل شيء يتواءم كي يثبت منذ الولادة حياة الانسان وموته ، الطبقة الاجتماعية ، السنة ، المكانة ، اليوم والساعة • اذن لكم كانت ضئيلة مسؤولية الازتيكي تجاه سلوكه وتجاه موته• كان المكان والزمان متحدين معا وهما يشكلان كلا لا يتجزأ فثمة زمن خاص لكل مكان ولكل واحدة من الجهات الاربع ولكل مركز تسكن فيه حركة تلك الجهات ، وهذه المعادلة المعقدة من الزمان ــ المكان لها مواصفاتها وسلطاتها الخاصة التي تؤثر تأثيرا عميقا في الحياة البشرية ، وتحدد مساراتها • كانت الولادة في يوم ما تعني الانتماء الى مكان وزمان ولون ومصير ، اذ كان كل شيء مرسوما من قبل ، وفي الوقت الذي كنا نضع فيه فاصلا بين الزمان والمكان ، هذين المسرحين المجردين اللذين تدور فيهما رحى حياتنا ، كانت حياتهم تعج بالكثير من الازمنة والامكنة على هيأة تشكيلات يزخر بها التقويم الكهنوتي وقد أعطوا كلا منها اهمية نوعية خاصة تفوق الارادة البشرية •

(٣) اويتزيلو بوتشلي : اله الشمس والحرب عند قدماء المكسيكيين .
(المترجمة)

لقد حكم الدين والقــدر حياة الازتيكي مثلما احتلــت الاخــلاق والحرية الصدارة في حياتنا • فبينما ندور اليوم في فلك الحرية ونرى في كل شيء ، بما في ذلك القدرية التي يؤمن بها الاغريق ورحمــة اللاهوتيين ، اختيارا وصراعا •• اقتصرت معضلة الازتيكيين على البحث عن ارادة الالهــة التي كثيرا ما افتقرت الى الوضوح • ومن هنا برزت اهمية الممارسات الكهنوتية حتى اضحى الالهة هم الاحرار الوحيدين القادرين على الانتقاء أو بمعنى أعمق على ارتكاب الخطيئة •• كانت الديانة الازتيكية تضج بالالهة الخطاة العظام وخير مثال على ذلك الاله كيتز الكواتل[٤] •• الهة تخــور قدراتهم ولا يتورعون عن خذلان المؤمنين بهم شأنهم شأن المسيحيين الذين يجدفون احيانا بآلهتهم ، لذا فان غزو المكسيك يغدو أمرا يتعذر تفسيره بمعزل عن غدر الهته يوم خذلت شعبها •

لقد غير مجيء الكاثوليكية هذا الوضع تغييرا جذريا ، لان القربان وفكرة الخلاص التي كانت في البدء جماعية عادت لتصبح فردية • والحرية اكتسبت صفات انسانية وتجسدت في البشر وكانت المسألة الجوهرية لدى قدامــى الازتيكيين هي ضمان ديمومة الخلق ، أما القربان فما كان لينطوي على منح الخلاص في العالم الاخر ، بل كان القصد من ورائه سلامة الكون • كان العالم بأسره ، لا الفرد وحده ، يستمد حياته من دماء البشر وموتهم • بيد أن الفرد في الديانة المسيحية هو الغاية ، اما العالم ، التأريخ ، المجتمع ، فهذه كلهــا مدانة من قبل • وموت المسيح يعني تحديدا خلاص كل انسان وكان كل منا هو ذلك الانسان الذي أودعت في داخله أمال الجنس البشري وقدراتــه ولكن الخلاص كان عملا شخصيا بحتا •

---

(٤) كيتزا لكواتل : وتعني « الافعى ذات الريش » . شخصية تاريخيــة اتخذ منها المكسيكيون الها علم شعبه فنون الزراعة والعمل والتقاويم وبشر بديانة تدعو الى المحبة والقدرية . (المترجمة)

ثمة نقطة مشتركة بين كلا الموقفين علـى الرغم مما يبدوان عليه مـن تناقض الا وهي ان الحياة ، سواء أكانت جماعية أم فردية ، منفتحة على افاق موت هو الاخر حياة جديدة ، فالحياة لا يمكن تجاوزها او تبريرها بسوى تحقيقها في الموت . وهذا ايضا تجاوز يفوق الاول لانه يكمن في حياة جديدة . ان الموت عند المسيحيين انتقال وقفزة مهلكة بين حياتين ، الحيـاة الفانية والحيـاة الاخرى . وأما عند الازتيكيين ، فهو الصيغة الابلغ للاسهام في رفد قـوى الخلق على نحو دائم ، تلك القوى المهددة ابدا بخطر الزوال مالم ترو بالدم ، ذلك الزاد المقدس . وفي كلا النظامين ، يفتقر الموت والحياة الى الاستقلال لكونهما وجهين لحقيقة واحدة ، وكل ما ينطويان عليه من معنى انما ينبع من تلك القيم الاخرى التي تحكمها على انهما دلالتان على حقائق لامرئية .

يخلو الموت الحديث من اي مغزى يمكن ان يجعله يتجـاوز القيم الاخرى او يشير اليها ، فهو ببساطة وفي كل الاحوال النهاية الحتمية لعملية طبيعية . وفي عالم يزخر بالاحداث يمسي الموت حدثا اخر لا غير . ولأنه حدث بغيض يطرح على بساط الحكم مفاهيمنا كلها ومغزى حياتنا نفسها ، فان فلسفة التقدم (في اي اتجاه . ومن اي اتجاه كما يتساءل شيلر) تسعى الى أن تجنبنا حضوره ، اذ أن كل مافي العالم الحديث يعمل كما لو كان الموت لا وجود له . لا احد يعول عليه شيئا .. وكـل شيء يلغيه : اي خطـب الساسة ، الاعلانات التجارية ، السلوك العام ، العادات ، الفرح المبتذل ، والصحة التي في متناول اولئك الذين يؤمنون لنا المستشفيات والصيدليات وملاعب الرياضة . غير ان الموت ، لا بوصفه انتقالا ، بل بوصفه فما هائـلا خاويا لا يعرف الشبع ، حاضر في كل ما نقدم عليه ، لان عصر الصحة والنظافة وموانع الحمل والعقاقير العجيبة والاغذية الصناعية هو ايضا عصر معسكرات الاعتقال والدولة البوليسية والابادة النووية و « قصص جرائم القتل » . لا أحد يفكر في الموت ، في موته الخاص ، كما كان يرغب في ذلك ريلكـه ،

اذ لا أحد يحيا حياة خاصة ، أما المجازر الجماعية فهي نتيجة لاكتساب الحياة صفتها الجماعية •

ان الموت يفتقر الى المغزى بالنسبة الى المكسيكي المعاصر ولم يعد انتقالا أو ممرا يفضي الى حياة تفوق حياتنا حياة • الا ان انتفاء خطورة الموت لا يحملنا على محوه من حياتنا اليومية • فالموت بالنسبة الى المقيمين بنيويورك او باريس او لندن هو الكلمة التي لا أحد يتفوه بها أبدا لان التفوه بها يحرق الشفاه • اما المكسيكي فهو على النقيض من ذلك يطرقها دوما ، يفتضها ، يلاطفها ، ينام وأياها ويحتفي بها ، انها واحدة من العابه الاثيرة وهي حبه الاكثر خلودا • حقا ثمة خوف ما يسوم سلوكه ولكنه خوف يشاطره اياه الاخرون ، ولعله في الاقل خوف لا يخفى ولا هو يخفيه ، بل يتأمله بنفاد صبر واستخفاف وسخرية : « ان كنتم ستزهقون روحي غدا فلتزهقوها مرة واحدة » •

ان لا مبالاة المكسيكي بالموت لمستمدة من لا مبالاته بالحياة • وهو لا يقر بلا أهمية الموت حسب بل بلا أهمية العيش ايضا • فأغانينا وأمثالنا ، أعيادنا وتأملاتنا الشعبية تظهر على نحو لا يقبل اللبس ان الموت لا يفزعنا لأن « الحياة شفتنا من المخاوف » • ان الموت امر طبيعي بل يمكن ان نتمناه وكلما وافانا مبكرا كان ذلك خيرا لنا ، اما لامبالاتنا بالموت فانما هي الوجه الاخر لعدم مبالاتنا بالحياة • نحن نمارس القتل ، لان حياتنا وحياة الاخرين لا قيمة لها • لذا فمن الطبيعي ان يكون الامر كما يأتي : الموت والحياة لا ينفصل أحدهما عن الاخر ، وكلما فقدت الحياة معناها غدا الموت لا أهمية له • ولذلك فالموت المكسيكي ماهو الا مرآة لحياة المكسيكيين ، وحيالهما ينغلق المكسيكي على نفسه ويتجاهلهما •

لا يتنافى ازدراء الموت مع الطقوس التي نمارسها فيه • الموت حاضر في اعيادنا ، في العابنا ، في عشقنا وفي تفكيرنا • الموت والقتل هاجسان قلما

يهجراننا ، والموت يغوينا . ولربما ينبع ذلك السحر الذي يمارسه فينا من تكتمنا ومن جموحنا الذي نقوض به ذلك التكتم . لان الضغوط التي تفرضها علينا حيويتنا وتتجلى قسرا في صيغ خؤون تعلل لنا الطبيعة الفانية والشرسة والانتحارية التي تتسم بها انفجاراتنا . فنحن في لحظة الانفجار نبلغ اقصى توترنا لنمس ذروة الحياة الراعشة ، وهناك في أوج ذلك الهيجان نستشعر الدوامة .. دوامة الموت الذي يغوينا .

من ناحية اخرى ، يثأر الموت لنا من الحياة ، يعريها من كل مظاهر زهوها وتبجحها ويعيدها الى ماهيتها : عظام عارية مقشورة وتكشيرة مرعبة. في عالم مغلق لا منفذ له ، كل ما فيه موت ، يمسي الموت هو الشيء الوحيد الذي ينطوي على قيمة ولكننا بهذا نثبت أمرا منفيا..والجماجم المصنوعة من السكر او من الورق الصيني والهياكل العظمية الملونة في الالعاب النارية ، هذه النماذج الشعبية التي تجسدنا انما هي دوما تسفيه للحياة واثبات عدمية الوجودالبشري ولاجدواه لاننا مازلنا نزين بيوتنا بالعظام ونتناولفييومالموتى خبزا له هيأة العظام ، مازلنا نستمتع بأغان ونوادر تضحك فيها جماجم الموت الصلع . غير ان كل هذا التعامل الودود الذي نتبجح به ، لا يغنينا عن السؤال الملحاح الذي نطرحه جميعا . ما الموت ؟ لكننا لما نعثر له على جواب جديد بعد . وكلما تساءلنا عن ذلك لم نحر جوابا .. بم يعنيني الموت ان كانت الحياة لا تعنيني بشيء .

ترى أيفتح المكسيكي المنغلق حد العناد على نفسه ، على العالم وعلى نظرائه .. دواخله للموت ؟ انه يحابيه ، يحتفي به ، يشذبه ويعانقه عناقا ابديا ، الا أنه لا يهب نفسه له ، فكل شيء قصي عن المكسيكي ، كل شيء غريب عنه ولاسيما الموت الذي يحتل المرتبة الاولى في ذلك ..والمكسيكي لايهب نفسه للموت ، مادام ذلك يعني تضحية .. والتضحية بدورها تعني ان يكون هنالك طرف يعطي وآخر يأخذ حقا ، ان يكون هنالك من ينفتح

ليواجه واقعا يتخطاه • والموت المكسيكي في هذا العالم الفاقد الاهمية ، المنغلق على ذاته ، لا يعطي ولا يأخذ بل يستهلك ذاته بنفسه ويشبعها •

اذن فعلاقاتنا بالموت حميمة ، ولربما كانت اكثر حميمية من علاقة أي شعب اخر • لكنها علاقة عارية من المعنى ، وخلو من الشهوانية لان المـوت المكسيكي عقيم ، لا يتناسل كما هو الحال عند الازتيك والمسيحيين •

لا موقف يفوق موقف الاوربيين والاميركان تعارضا مع هذا الطموح• لأن القوانين والعادات والاخلاق العامة والخاصة تنزع كلها الى الابقاء على الحياة البشرية • وهذه النزعة الى الابقاء لا تحول دون ان يظهر باطـراد قتلة عباقرة وبارعون ومنفذون مهرة في الجريمة الكاملة والمتسلسلة • ان هذا الهجوم المتكرر لمجرمين محترفين يعملون على انضاج اغتيالاتهم واحصائهـا بدقة لا يطولها اي مكسيكي ، او ذلك التلذذ التي يروون به تجاربهم ومتعهم واجراءاتهم ، وذلك الشعور بالافتتان الذي ينتاب الجمهور والصحف التي تجمع اعترافاتهم ، واخيرا الفشل المعترف به لاجهزة القمع التي يزعم انهـا تعمل على تفادي وقوع جرائم جديدة • كل هذا يدلل على ان أحترام الحياة الذي دأبت على التفاخر به الحضارة الغربية ماهو الا فكرة قاصرة ومضللة •

ولئن كانت عبادة الحياة عميقة وشاملة حقا ، فستغدو ايضا عبادة للموت وكلاهما لا يتجزأ بعضه عن بعض ، اما الحضارة التي تنكر الموت فسيؤول بها الامر الى انكار الحياة واما كمال المجرمين المعاصرين فما هو بالنتيجة التي يسفر عنها التقدم التقني الحديث بل هو نتيجة لاحتقار الحياة الكامن حتما في محاولة تفاد طوعية للموت على حد سواء • وبوسعنا ان نضيف الى ذلك ان كمال التقنية الحديثة والشعبية التي تحظى بها « قصص جرائم القتل » هو نتيجة لفهم متفائل واحادي الجانب عن الوجود ، [كما هو شأن المعتقـلات النازية واستخدام اساليب الابادة الجماعية] • ولذا فمن غير المجدي ان نستبعد الموت من كل ما يجسد حياتنا ، من كلماتنا ، ومن افكارنا ، فذلك

سيفضي بنا الى الغائنا جميعا ولا سيما اولاء الذين يمضون حياتهم ناكرين اياه أو يتصنعون انكاره •

حينما يفكر المكسيكي في القتل بسبب العار او المتعة او ارضاء لنزوة ما فانه يقتل انسانا شبيها به • اما المجرمون والساسة المعاصرون فهم لا يقتلون ، بل يعمدون الى الالغاء ، وهم يجربون ذلك مع اشخاص فقدوا صفتهم بشرا •

وفي معسكرات الاعتقال تراهم يلجأون الى امتهان الانسان في البدء ومتى ما أحالوه الى محض شيء ، عمدوا الى تصفيته جماعيا ، فالمجرم التقليدي في المدن الكبرى ، بغض النظر عن بعض الدوافع المعينة التي تدفعه، يمارس على نطاق ضيق ماينفذه الجلاد على نطاق اشمل : وهو يتعاطى باسلوبه الخاص دس السم، اذابة الجثث بالمواد الحامضية ، حرق النفايات و « تشييء » ضحاياه • وهكذا اختفت العلاقة القديمة التي كانت تربط القاتل بالضحية • وهي الشيء الوحيد الذي يسم الجريمة بسيماء الانسانية ويجعلها امرا يمكن تخيله • اما اليوم ، فلم يعد هنالك سوى جلادين ومحض اشياء وادوات اللذة والدمار على غرار ما يحدث في روايات الماركيز دوساد • ان غياب الضحية يجعل وحدة القاتل النهائية لا ترحم ومطبقة باطراد ، فالجريمة مافتئت بالنسبة الينا علاقة ، وفي هذا السياق سيكون لها المعنى المتحرر عينه الذي ينطوي عليه العيد او الاعتراف • وهذا سبب مأساويتها وشاعريتها ، ولنقل ايضا عظمتها مادامت تمكننا من بلوغ اهمية زائلة •

يقول ريلكه في الابيات الاولى من مرثية دوينو الثامنة : ان المخلوق ، ذلك الكائن في براءته الحيوانية ، يتأمل ماهو منفتح على النقيض منا نحن الذين لانتطلع الى الامام •• الى المطلق • فالخوف يجعلنا نشيح بوجوهنا عن الموت ونوليه ظهورنا • وحينما نعزف عن تأمله ننغلق انغلاقا قدريا ازاء الحياة وهذه شمولية تحملها الحياة في داخلها • والمنفتح هو ذلك العالم الذي

تتصالح فيه الاضداد ويتوحد فيه الظل بالضوء معا • وهذا المفهوم انما يرمي الى ان يعيد الى الموت معناه الاصيل الذي أفقده أياه عصرنا : اي ان الموت والحياة نقيضان يكمل أحدهما الاخر ، كلاهما يشكل نصف دائرة ولا يسعنا نحن الواقعين تحت تأثير الزمان والمكان الا ان نلمحهما • ففي عالم ما قبل الولادة يدغم الموت في الحياة وفي عالمنا هذا يجانب احدهما الاخر ، ثم يعودان الى الالتقاء ثانية في العالم الاخر ، الا ان ذلك لن يحدث في فترة العمى الحيواني التي تسبق الخطيئة والوعي بل سيبدو براءة مستعادة • ويستطيع الانسان ان يتخطى ذلك التعارض المؤقت الذي يفضي الى الشقاق بينهما ولا يكمن فيهما بل في وعيه وان يفهمها وحدة سامية • بيد ان هذه المعرفة لن تفعل فعلها مالم تنطلق من الفهم الاتي : لابد للمخلوق من التخلي عن حياته الفانية ، وعن حنينه الى اليمبوس[5] ، والى العالم الحيواني • لابد له ان ينفتح على الموت ان رغب حقا في الانفتاح على الحياة ، واذذاك « يمسي كالملائكة » •

اذن ، ثمة موقفان من الموت : اولهما تطلع الى الامام ، يرى الموت خلقا ، وثانيهما رجوع الى الماضي يصور نفسه سحرا ازاء العدم او حنينا الى اليمبوس • ولعلنا لا نجد خلا ثيسار باييخو[6] شاعرا من الشعراء المكسيكيين او من شعراء اميركا اللاتينية قد اقترب من هذين المفهومين • وخلافا لهذا

(٥) اليمبوس في الديانة المسيحية هو المكان الذي تعود اليه ارواح الاطفال الذين لم يعمدوا بعد مماتهم •
المترجمة

(٦) ثيسار باييخو : (١٨٩٢–١٩٣٨) من اعظم شعراء اميركا اللاتينية وكتابها . ولد في بيرو ، جاب اوربا وتوفي في باريس . تتجلى عظمته في الشعر . من دواوينه « قصائد انسانية » و « اسبانيا ، فلتبعدي عني هذه الكأس » وله ايضا مؤلفات سياسية واجتماعية قيمة .
المترجمة

فان اثنين من شعراء المكسيك وهما خوسيه غوروستيثا وخابيير بياوروتيا[٧] قد تصديا للمنحى الثاني منهما . واذا كانت الحياة في رأي غوروستيثا (موتا بلا نهاية) وسقوطا دائما في العدم ، فهي بالنسبة الى بياوروتيا ليست سوى (حنين الى الموت) .

ان الصورة الموفقة التي اختارها بياوروتيا عنوانا لديوانه (حنين الى الموت) تفوق كونها محض توفيق لفظي . فقد شاء المؤلف من خلال هذا العنوان ان يهدينا الى المعنى الاخير في شعره : ان الموت بوصفه حنينا وليس ثمرة اوخاتمة للحياة ليعدل توكيدا مؤداه اننا لم نجيء من الحياة بل من الموت . فالرمس هو كل قديم وأصيل وهو حشاشة الام وليس الرحم . ولعل الخطر الذي يتهدد هذا الاثبات ليكمن في أنه يشكل تناقضا لاطائل من ورائه او تكرارا لمكان قديم مشترك : كلنا من التراب ، واليه سنعود . أحسب اذن ان الشاعر يصبو الى ان يعثر في الموت (الذي هو حقا الاصل الذي انحدر منه) على مالم تمنحه اياه الحياة ، اي ايحاء بالحياة الحقة .. فساعة الموت :

عقرب الثواني
سيدور دورته ،
لكل شيء ستتسع الثانية ،
وربما سيقدر لنا
ان نحيا بعيد الممات

ان العودة الى الموت الاصلي ستصبح عودة الى حياة ما قبل الحياة ، الىحياة ماقبل الموت ، الى (اليمبوس) والى حشاشة الام . واما موت بلا

---

(٧) خابيير بياوروتيا : (١٩٠٣ – ١٩٥٠) : شاعر ومسرحي وكاتب مقالة وروائي مكسيكي . من آثاره الشعرية . « انعكاسات » و « ليليون » « حنين الى الموت » وروايته « سيدة الافئدة » .

(المترجمة)

نهاية » قصيدة غوروستيثا ، فلربما كانت الشهادة الاسمى التي في حوزتنا نحن الاميركان الاسبان على وعي حديث حقا ، منطو على ذاته ، فريسة ذاته، وشهادة على وضوحه الخاص الذي يعشو الابصار • فهذا الشاعر الساخط واليقظ في آن واحد يرغب في ان يسقط عن الوجود قناعه كيما يتأمله في عريه • لقد أمسى الحوار بين الانسان والعالم ، هذا الحوار القديم قدم الشعر والحب كالحوار بين الماء والقدح الذي يحويه ، او كالحوار بين الفكر والشكل الذي يصب فيه ويؤول الى التآكل • فالشاعر ، أسير المظاهر والاشجار والافكار ، الحجارة والعواطف ، الايام والليالي وساعات الغسق التي هي ليست سوى صور بلاغية او شرائط ملونة ، يمضي محذرا أن الهواء الذي ينفخ في المادة ليمنحها قالبها وشكلها هو نفسه الذي سينخرها ويغضنها ويطيح بها من عرشها •

وفي هذه الدراما المسرحية الخالية من الشخوص التي كل ما فيها لا يعدو كونه انعكاسات وصورا تنكرية لشخص منتحر يناجي نفسه بلغة المرايا والاصداء ، يصبح الذكاء فيها هو ايضا محض انعكاس وشكل هو الاكثر نقاء للموت ، ذلك الموت الهيمان بنفسه • فكل شيء يتهافت في وضوحه الخاص ، كل شيء يغرق في بريقه وكل شيء يمضي صوب ذياك الموت الشفيف • فالحياة صورة مجازية ، بدعة يبغي الموت من خلالها الخداع ، خداع حتى نفسه •• وهذه القصيدة هي تصعيد متوتر لموضوعة نرسيسيوس القديمة التي لا يرد ذكرها سوى مرة واحدة •

ليس الوعي هو الذي يتأمل نفسه في امواهها الرقراقة المتلألئة التي هي مرآة وعين في آن واحد حسب ، مثلما يحدث في قصيدة بول فاليري ، بل ان العدم الذي يفند نفسه شكلا وحياة ، أنفاسا ورئة ويتصنع التفسخ والموت ينتهي الامر به الى التعري ، حتى اذا ما بات اجوف ، انطوى على نفسه ليهيم بذاته في داخلها و ليصبح موتا لا يكل ولا ينتهي •

ولنخلص الى القول اننا اذا ما فتحنا دواخلنا في اثناء العيد او في حالة الثمل او في لحظة الاحساس بالثقة ، فانما نفعل ذلك على نحو من العنف نمزق فيه أنفسنا حتى ننتهي الى الغائنا ، اذ اننا نواجه الموت والحياة بلا مبالاة ونقابلهما بصمت أو بابتسامة ساخرة . العيد والجريمة العاطفية او المجانية يوضحان لنا ان الاتزان الذي نختال فيه ماهو الا قناع مهدد دوما بخطر التمزق اثر انفجار مفاجىء في دواخلنا .

تشير هذه المواقف بأسرها الى ان المكسيكي يستشعر في قرارة نفسه وفي عقر داره وجود وصمة غموضها يفوق حيويتها ، وصمة أصيلة لا تمحي . وكل تصرفاتنا ترمي الى اخفائها ، اخفاء هذا الجرح الطري ابدا ، المتأهب دوما للاشتعال والاضطرام تحت لهيب الشمس التي تؤججها نظرة غريبة .

حسن اذن ، فهذا الاستنتاج ينكأ جرحا . واذا تحفظت في مسألة معرفة كيف ومتى ولد هذا الاستنتاج فاني لا أجد بدا من ان أشير الى ان اي قطيعة لنا (مع انفسنا او مع المحيطين بنا ، او مع الماضي او الحاضر) تولد شعورا بالوحدة . وفي الحالات الاكثر تطرفا من مثل الانفصال عن الوالدين ، عن الرحم ، عن مسقط الرأس ، موت الالهة او الوعي الحاد بالذات ، فان الوحدة تبلغ مبلغ اليتم ، وكلاهما بعامة يعبر عن نفسه وعيا بالخطيئة . وبوسعنا ان نعد العذاب والخجل اللذين تولدهما حالة الانفصال ، تبعا لما تبشر به فكرتا التكفير والخلاص ، تضحيات لابد منها ووعودا بتواصل جماعي آت ليضع خاتمة هذا المنفى . وقد يقيض للذنب ان يختفي ، وللجرح ان يندمل ، وللمنفى ان يحل في التواصل الجماعي ، وبذا تتخذ الوحدة صفة تطهيرية وتكفيرية ، فالمستوحد او المنعزل يتجاوز وحدته ويحياها كما لو انها اختبار أو وعد بتواصل جماعي قادم . وكما ظهر لنا في التوصيفات التي أتينا على ذكرها ، فالمكسيكي لا يتخطى وحدته بل هو خلافا لهذا يتقوقع فيها ، اذ اننا نقيم

بوحدتنا مثلما أقام فيلوكتيتس[٨] بجزيرته ، لا انتظارا بل خشية من العودة الى العالم . لذا تجدنا لانطيق وجود رفقة لنا ، فننطوي على انفسنا ، ليس التياعا او اغترابا ، انما لنستنفد وحدة دون ايماءة الى مخلص هنا او خالق هناك ونبقى تتأرجح بين ان نهب انفسنا او نبقيها بين الصراخ والصمت ، بين العيد والهجوع ليلا مع الموتى دون ان نهب أنفسنا البتة . ان لامبالاتنا تقنع الحياة بقناع الموت وصرختنا تهتك هذا القناع ، تصاعد الى كبد السماء حتى تبلغ حدا تنبسط فيه ، تتحطم وتهوي كالهزيمة وكالصمت : وفي كلتا الحالتين يعتزل المكسيكي العالم ، والحياة والموت .

---

(٨) فيلوكتيتس : واحد من اكثر المحاربين الاغريق شهرة في مدينة طروادة . الهمت بطولاته ومآثره سوفوكليس واحدة من اروع ماسيه الشهيرة في ٤٠٩ ق.م .

(المترجمة)

الفصل الرابع

ابناء لامالينتشه

---

(١) لامالينتشه او مارينا : هندية مكسيكية ، رافقت القائد الاسباني الغازي ايرنان كورتيس مستشارة وحبيبة وانجبت له ابنه مارتين كورتيس - (المترجمة)

لقد أفضت الدهشة التي يثيرها تكتمنا الى اجتراح اسطورة المكسيكي ذلك الكائن الذي لا يسبر غوره ، واخذت ريبتنا تستوقف الغريب . واذا كان سلوكنا المهذب يجتذب الاخر فان تكتمنا يصيبه بالجمود . اما حالات العنف المباغتة التي تمزقنا والبهاء المضطرب او الرصين الذي تتميز به أعيادنا وعبادتنا الموت ، فهي جميعا تفقد الغريب توازنه . غير ان الاحساس الذي نولده في الاخرين لا يختلف عما يولده الشرقيون فيهم ، فالصينيون والهندوس هم ايضا متكتمون ولا يحل لهم لغز ، بل هم ايضا مالبثوا يجرجرون أسمال ماض ما برح حيا . اذن ثمة غموض مكسيكي مثلما هناك غموض أصفر أو أسود ، والمشاهد هو الذي يمنح هذه التعبيرات معناها ولكنها بمجموعها تتفق على ان ترسم لنا صورة غامضة ان لم تكن متناقضة : نحن لسنا موضع ثقة وردودنا شبيهة بصمتنا لا احد يتوقعها ولا ينتظرها ، فالخيانة والوفاء والجريمة والحب كلها تستقر في اعماق نظرتنا ، كما اننا نجتذب الاخرين ونصيبهم بالنفور .

ولن يصعب فهم الدوافع الكامنة وراء هذا الموقف ، فالاوربي يرى في المكسيك بلدا يقع على هامش التأريخ العالمي . وكل ما يقع بعيدا عن مركز المجتمع يبدو غريبا ويصعب الولوج فيه . ان القرويون الذين يعيشون في مناطق نائية يرتدون ملابس بالية ويتحدثون بلغة قديمة بعض الشيء . وهؤلاء الفقراء المغرمون بالتعبير عن أنفسهم باشكال وصيغ تقليدية غالبا ما يمارسون سحرا

حيال الرجل المتحضر . وهم يمثلون في أرجاء العالم كافــة العنصر الاكثــر قدما وسرية في المجتمع . كما انهم يجسدون لدى الجميع ، عدا انفسهم ، كل ماهو خفي وخبيء ، الشيء الذي لايهب نفسه الا بعد تمنع ، الكنز الدفين ، السنبلة التي تنضج في باطن الارض والحكمة القديسة المطمورة بين طبقات الارض .

والمرأة هي كائن اخر من اولاء الذين يحيون منزوين ، انها مخلــوق غامض ، بل بعبارة أفضل انها اللغز بعينه . فهي تثير الاخر وتصده شأنهــا شأن انسان ينتمي الى جنسية او عرق غريبين . وهي صورة للخصب لكنها ايضا صورة للموت . فربات الخلق في كل الحضارات تقريبا هن الاهات الدمار . انها سر حي يمثل غرابة الكون ولاتجانسه الجذري . هذه هي المرأة ، أتراها تخبيء الموت ام الحياة ؟، فيم تفكر ؟ أتحسن التفكير ؟ أتشعر حقا ؟ أهــي شبيهة بنا ؟. تبدأ السادية انتقاما من التكتم الانثوي او محاولة يائسة لنبلغ استجابة جسد نخشى ان يكون فاقد الاحساس . وكمــا يقــول لويــس ثيرنودا[2] : « الرغبة سؤال جوابه لا وجود له » فعلى الرغــم من عريهــا المكتمل ، التام لكن في صور المرأة ثمة شيئا ما ينبغي دوما اماطة اللثام عنه .

ايفا وثيبرس يكشفان اللغز

في قلب العالم .

اما روبن داريو[3] فهو كالشعراء الكبار الاخرين ، لا يرى في المرأة اداة

---

(٢) لويس ثيرنودا : (١٩٠٢ ــ ١٩٦٣) شاعر اسباني من شعراء جيل ال ٢٧ اشتهر بديوانيه « حيث يقيم النسيان » و « كمن ينتظر الفجر » اللذيــن يشكلان علامة مضيئة في الشعر الوجداني الاسباني المعاصر .
(المترجمة)

(٣) روبن داريو (١٨٦٧ ــ ١٩١٦) شاعر وكاتب من نيكاراغوا ، مــن ابرز رموز الشعر ورواد حركة الحداثة . اتسمت اشعاره وموضوعاته بايقاعات متناسقة وذائقة شعرية رهيفة . من اهم اعماله : « ازرق » و « اناشيد الحياة والامل » و « النشيد الشارد » .
(المترجمة)

معرفة حسب ، بل المعرفة بعينها ، المعرفة التي لن ندركها ابدا وحاصل جهلنا النهائي : انها السر الاسمى •

من الواضح ان افكارنا على مستوى الطبقة العاملة لا تحمل مشاعر متماثلة • فعلى الرغم من أن هذه الطبقة تعيش بعيدا عن مركز المجتمع فهي تتقوقع في احياء خاصة بها • وحينما يلجأ روائي معاصر الى أن يجعل شخصية ما من شخوص رواياته رمزا للعافية او للدمار ، للخصب او للموت فلن يختار ـ كما تتوقع ـ عاملا ما يحمل في دواخله صورة لموت مجتمع قديم وولادة اخر • يصف د•هـ• لورنس الذي يعد واحدا من النقاد الاكثر عمقا وعنفا في العالم الحديث في أعماله كلها تقريبا المزايا التي تصير الانسان المشتت في يومنا هذا انسانا حقا او انسانا يمتلك رؤية شمولية للعالم • وبغية تجسيد هذه المزايا يختلق شخوصا تنحدر من أعراق بائدة او غير أوربية ، أو أنه يبتدع شخصية ميلرز حارس الغابات وأبن الارض • ولعلنا نجد في طفولة لورنس التي عاشها في مناجم الفحم الانجليزية تفسيرا لهذا الغياب المتعمد • من المعروف انه كان يمقت العمال والبرجوازيين على حد سواء • ولكن ، ما الذي يفسر لنا عدم ظهور البروليتاريين في الروايات الثورية العظيمة كلها أبطالا بل خلفية للاحداث ؟ ، كان البطل يظهر في الجزء الاعظم منها بصورة المغامر ، المفكر ، الثوري المحترف ، الانسان المتوحد الذي هجر طبقته وأصله ووطنه • ومما لاريب فيه أن جعل البطل كائنا يقف على الضد من المجتمع لهو من مخلفات الحركة الرومانسية ، فضلا عن ان العامل هو شخص حديث العهد جدا وهو يشبه أسياده أي انهم جميعا ابناء الماكنة •

ان ما يعوز العامل الحديث هو الفردية • فالطبقة أقوى من الفرد وشخص الانسان ينحل في الجماعة ، اذ أن تحويل الانسان الى أجير صناعي عد أول حالة بتر عاناها الانسان واشدها خطورة • لقد جردت الرأسمالية الانسان من انسانيته ، وهذا مالم يحدث مع العبد ، لانها أختزلت كيانه كله

وقصرته على قوة العمل ، وبهذا الشكل أحالته الى شيء لا غير • وكما هو شأن الاشياء والبضائع كلها اضحى شيئا هو عرضة للتأثر بالبيع والشــراء • لقد فقد العامل على نحو وحشي وجراء وضعه الاجتماعي كل آصرة انسانية واضحة له مع العالم ، فالادوات التي يستخدمها ليست ملكا له ، وثمرة جهوده لن تصبح ملكا له ، بل انه لا يتعرف تلك الثمرة • وفي حقيقة الامر فهو ليس بالصانع لانه لا يأتي اعمالا ولا يعي الاعمال التي يصنعها ، انما هو عامل ، اسم مجرد لا يدل على عمل محدد ، بل وظيفة ما • وهكذا فان عمله لا يميزه من باقي البشر كما هو شأن الطبيب او المهندس او النجار وهذا التجريـد الذي ينعت به ، أي العمل الذي يقاس بالوقت ، لا يفصله عن مجردات اخرى بل يصله بها • ومن هنا كان غيابه الغامض المثير للجدل وشفافيته التي لاتفترق عن شفافية اي اداة اخرى •

لقد افضى تعقيد المجتمع المعاصر وما يقتضيه العمل من تخصص الى ان يشمل وضع العامل المجرد هذا فئات اجتماعية اخرى • وراحت تتردد كثيرا مقولة « نحن نعيش في عالم التقنيين » • وعلى الرغم من الفروقات الجلية في الاجور وفي المستوى المعاشي فان وضع هؤلاء التقنيين ما كان ليختلف في جوهره عن وضع العمال اي انهم ايضا أجراء وهم ايضا يفتقرون الى وعيهم بالعمل الذي ينجزونه • وبذلك تغدو حكومة التقنيين ، وهي النموذج الذي يصبو اليه المجتمع المعاصر ، هي حكومة الالة • وفي نهاية المطاف تستبـدل الوظيفة الوسيلة بالمبدع • اما المجتمع فسيواصل مسيرته ولكن دونما وجهة• كما ان ما تتميز به الماكنة من تكرار الحركة نفسها سيقودنا الى نمط مجهول من السكون : سكون النظام الذي يتقدم من اللاجهة الى اللاوجهة •

لم تفعل الانظمة التوتاليتارية شيئا سوى نشر هذا الوضـع واشاعته بالقوة او بالدعاية على حـد سواء • وقـد عانـى ذلك البشر الخاضعين لامبراطورية هذه الانظمة • وربما يتعلق الامر بشكل او بآخر بحالة الانتقال

الى المضمارين الاجتماعي والسياسي اللذين اوجدتهما النظم الاقتصادية الرأسمالية ، لأن الانتاج الجماعي لا يتحقق بسوى صنع قطع متفرقة لتجمع فيما بعد في مصانع خاصة بهذا الغرض . اما الدعاية والعمل السياسي التوتاليتاري والرعب والقمع فهذه جميعا تخضع للنظام نفسه . فوسائل الدعاية تعمل على نشر حقائق منقوصة على نحو متسلسل او مقاطع متفرقة ، ومن ثم ترتب هذه المقاطع وتحول الى نظريات سياسية وحقائق مطلقة تطلع عليها الجماهير . والرعب أيضا يخضع للمبدأ عينه ، فعملية الملاحقة تبدأ بمجموعات منفصلة تتمثل باعراق ، او فئات ، منشقين او اشخاص مشكوك فيهم حتى تبلغ على نحو تدريجي حدا يطول الجميع . وعند البدء بهذه الملاحقة ستقف فئة من الشعب موقف المتفرج من عملية تصفية جماعات اخرى من المجتمع او انها تسهم في الملاحقة حينما تستثار الاحقاد الدفينة . وهكذا يتحول الجميع الى شركاء في الجريمة ويعم الشعور بالذنب المجتمع بأسره ويشيع الخوف ولا يعود هناك سوى ملاحقين وملاحقين ، وما اسهل ان يتحول الملاحق الى ملاحق ، اذ تكفي دورة واحدة في عجلة الآلة السياسية ، حينئذ لن يبقى احد بمنجى من هذه الجدلية الشرسة .

انه عالم الخوف ، الشبيه بعالم الانتاج المتسلسل ، هو عالم مصنوع من الاشياء والادوات وهذا ما يفسر عبثية الصراع القائم فيما يتعلق بمدى الصلاحية التأريخية التي ينطوي عليها الخوف المعاصر . فلم تكن تلك الادوات غامضة او ملغزة قط ، اذ ان الغموض ينجم عن عدم تحديد الكيان او الشيء الذي يحتويه . فخاتم ما غامض ، على سبيل المثال سرعان ما ينطلق من أسار جنسه خاتما ليتخذ له حياة خاصة به ويكف عن كونه شيئا فقط لان المفاجأة تقبع خبيئة متأهبة للوثوب في داخل هيأته ، لذا فالغموض هو قوة او مزية خفية خارجة عن طوعنا لا علم لنا متى او كيف تعبر عن نفسها . بيد ان تلك الادوات لا تخفي في داخلها شيئا ، لا تسألنا عن شيء ولا تجيبنا

عنه ، فهي ادوات شفافة لا تقبل الخطأ . انها محض استطالات لاذرعنا ، لا حياة لها سوى تلك التي تمليها عليها ارادتنا . انها تخدمنا لتستهلك وتبلى ، ثم نلقي بها الى سلة النفايات دون ان يحز ذلك في أنفسنا ، او الى مقبرة للسيارات العاطلة او الى معسكر اعتقال .. وقد يبلغ بنا الامر ان نقايضها حلفاءنا او اعداءنا باشياء اخرى .

غير ان قوانا كلها وعيوبنا أيضا لا تتفق مع مفهوم العمل هذا بوصفه جهدا غير شخصي يتكرر في اجزاء متساوية وفارغة من الوقت اي البطء والدقة في العمل ، حب العمل المنجز وحب كل جزء منه ، والذوق الرفيع الفطري بسبب من كونه ارثا راح يتشكل على امتداد الاف السنين ، واذا كنا لا تنفع في الانتاج المتسلسل فأننا حتما سنتفوق في فن [اللانفع في شيء] الشاق والفريد واللامجدي .. مما لا يعني ان المكسيكي سيتعذر عليه ان يصبح عاملا جيدا ، فكل شيء يتطلب وقتا ولا شيء سوى تحول ما تأريخي يصعب تصديقه ويزداد بعدا باطراد يمنع المكسيكي من الا يكون مشكلة او كائنا غامضا ليتحول الى تجريد اخر .

وفي حين ننتظر ان تأزف اللحظة التي ستحل بالتصفية كل تناقضاتنا لابد لي ان اشير الى ان الاستثنائي في وضعنا يكمن في اننا لا نشكل لغزا امام الغرباء حسب بل امام انفسنا أيضا . أن المكسيكي يعني دوما مشكلة لمكسيكي اخر ولنفسه . حسن اذن ، ليس هنالك اسهل من ان نختصر كل هذه المجموعة المعقدة من المواقف التي تميزنا ، وبخاصة الموقف الذي نعده مشكلة ، الى ما يمكن ان نطلق عليه تسمية « اخلاقية العبد » نقيضا ل « اخلاقية السيد » وللاخلاقية البروليتارية او البرجوازية الحديثة ايضا على حد سواء ان فقدان الثقة ، المواراة والتكتم المهذب الذي يحول دون دخول الغرباء ، السخرية كلها ، والتذبذبات النفسية التي تجعلنا تتفادى انفسنا بتفادينا نظرة الاخر هي جميعا ملامح لاناس مغلوب على امرهم ، أناس

يخافون السيد ويتصنعون أمامه . ومن الواضح ان ما نكتمه في دواخلنا لا يمكن له ان يزدهر على نحو طبيعي دون حافز معين كالعيد او الكحول او الموت . رقيق وعبيد وأعراق مستكينة معظمها يبدو مقنعا بقناع بائس او عبوس لا يجرؤ على ان يتصرف على سجيته عندما يكون وحيدا او في اللحظات العظام . فعلاقاتهم كلها مسمومة بالخوف والريبة .. خوف من السيد وريبة تجاه امثاله ، احدهم يراقب الاخر اذ من الممكن ان يتحول الصديق الى خائن وأن يجد العبد حاجة به الى ان يتخطى الصعاب وأن يشرب حتى الثمالة وان ينسى نفسه كي يستطيع الخروج من ذاته ، ان يحيا مستوحدا دونما شهود عليه ، وبالوحدة حسب سيجرؤ على ان يكون .

ان التشابه الذي لا يقبل الشك والذي يلاحظ بين مواقفنا ومواقف المجموعات الخاضعة لسلطة سيد ما أو طائفة او دولة اجنبية يمكن ان يجد له حلا في الاثبات الاتي : ان شخصية المكسيكيين هي نتيجة للظروف الاجتماعية السائدة في مجتمعنا وأن تأريخ المكسيك الذي هو تأريخ لهذه الظروف ليقدم اجابات عن كل تلك الاسئلة . فحالة الشعب ابان الفترة الاستعمارية تعد خلفية لموقفنا المنغلق المزعزع . وسيسهم تأريخنا ، بوصفنا دولة مستقلة ، في ادامة علم نفس العبودية وجعله اكثر نقاء ، لاننا لم تتمكن من القضاء على شقاء الشعب وعلى الخلافات الاجتماعية البغيضة على الرغم من انقضاء قرن ونصف من الصراعات والتجارب الدستورية . كما ان توظيف العنف مصدرا جدليا وما يقوم به المتنفذون من استغلال لسلطاتهم ، هذه العادة السيئة التي لما تختف بعد ، وما يتصف به الشعب من ريبة واستكانة مما يمكن ملاحظته اليوم اكثر من اي زمان مضى بسبب الاحباطات المتتابعة التي اعقبت الثورة .. كل هذا سيسهم في تكامل التفسير التأريخي الانف الذكر .

ان عيب التأويلات من قبيل ما ذكرته توا ليكمن تحديدا في بساطتها . فموقفنا من الحياة ليس محكوما بالاحداث التأريخية ، او في الاقل ليس على هذا النحو الدقيق السائد في عالم الميكانيك حيث تحدد مجموعة من العوامل المعروفة سرعة القذيفة او مسارها . وانه لتأريخ أيضا موقفنا الحيوي ، الذي هو عامل لن نتمكن ابدا من معرفته تماما ، مادام التغير وعدم التحديد هما الثابتين الوحيدين في وجوده وبذا اعني ان الاحداث التأريخية ماهي بالاحداث حسب ، بل هي احداث مشوبة بالانسانية ، بل بالاشكالية، ولا هي محض نتيجة تمخضت عنها أحداث اخرى وانما هي وليدة ارادة نسيج وحدها قادرة على ان تحكم قدريتها ضمن حدود معينة . لذا فالتأريخ ليس آلية ، والتأثيرات التي تمارسها المكونات المتباينة بوصفها حدثا تأريخيا ماهي ، كما قيل مرارا ، بالتأثيرات المتبادلة . ولذلك فان ما يميز حدثا تأريخيا من الاحداث الاخرى هو صفة ذلك الحدث التأريخية . وما اقصده هنا هو ان الحدث يكون بذاته وبمفرده وحدة محكمة ازاء اخريات . وحده محكمة لاتنفصم وان الحدث التأريخي ليس هو حاصل جمع ما يسمى بعوامل التأريخ ، انما هو حقيقة لا تطمس . والظروف التأريخية تفسر لنا شخصيتنا قدر ما تفسر شخصيتنا ايضا تلكم الظروف ، فكلاهما سيان . ولهذا يغدو كل تفسير تأريخي بحت غير واف الا ان هذا لا يعني انه تفسير زائف .

وبغية تقليل التشابه الحاصل بين اخلاقية العبيد واخلاقيتنا الى نسبه الحقيقية حسبنا ملاحظة واحدة هي ان ردود افعال المكسيكي المألوفة لاتقتصر على طبقة او عرق او مجموعة منعزلة في وضع متدن ، اذ ان الطبقات الثرية هي ايضا منغلقة ازاء العالم الخارجي وهي ايضا تعاني التمزق عند كل محاولة للانفتاح على ذلك العالم . فالامر يتعلق اذن بموقف يتخطى حدود الظروف التأريخية ولو انه يفيد منها كيما يعبر عن نفسه ويقوم جوهره ساعة الاتصال ها . ولهذا فان المكسيكي كسائر البشر الاخرين عندما يسعى الى الافادة

من الظروف فانه يحيلها الى مادة مطواعة لينصهر فيها ولينحتها ، وعندما يفعل ذلك سينحت نفسه معها •

واذا استعصى علينا احداث نوع من التطابق بين شخصيتنا وشخصية الجماعات المستعبدة لن يسهل علينا انكار صلتنا بها• لاننا نجد في كلتا الحالتين ان الفرد والجماعة يجاهدان على نحو متزامن ومتناقض بغية اخفاء انفسهم واظهارها • بيد ان هناك فارقا يفصل بيننا • فسواء اكانوا عبيدا أم مستخدمين أم اعراقا ضحايا لاي سلطة غريبة (كزنوج اميركا الشمالية على سبيل المثال) فهم جميعا يخوضون معركة لها واقع محدد • اما نحن ، فخلافا لهم ترانا نتصارع وكيانات خيالية ، بل مسوخ من الماضي أو اشباح من صنع ايدينا • غير ان تلك الاشباح والمسوخ تبدو حقيقية بالنسبة الينا في الاقل ، وحقيقتها تلك انما تعزى الى طراز دقيق فظيع • انها حقيقة شبيهة بخيال الظل ، لان تلك الاشباح والمسوخ لايمكن مسها ولا قهرها ، مادامت لا تقيم خارج ذواتنا بل بداخلها ، وحينما تشن رغبتنا في الكينونة صراعا ضدها فانها تستنجد بحليف جبار خفي الا وهو خوفنا من ان نكون • ومن كل ما تقدم سنلاحظ ان كنه المكسيكي المعاصر يمكن ان يختزل في مايأتي ان المكسيكي لايريد ان يكون هو نفسه او انه لايجرؤ على ذلك •

وكثيرا ما تتبدى هذه الاشباح كما لو انها مسوخ لحقائق غابرة ، نشأت في ايام الغزو والاستعمار والاستقلال والحروب التي خضناها ضد (اليانكيز) او الفرنسيين • وثمة اشباح اخرى تعكس مشكلاتنا الراهنة ولكن على نحو غير مباشر ، اذ انها تخفي أو تموه طبيعتها الحقة • أو ليس غريبا اذن ان يظل المعلول في غياب العلة ؟ او ان يخفيها ؟• لعل من المستحيل في سياق كهذا فصل العلة عن المعلول • وتوخيا للحقيقة فنحن لسنا بصددهما الان بل بصدد مجموعة من ردود الافعال والميول المتداخلة تداخلا متبادلا ، اذ أن الوجود ألملح لبعض المواقف والحرية والاستقلال التي تنهض

جميعا في مواجهة الاسباب التي ولدتها تقودنا الى دراستها في صلب الحاضر وليس في النصوص التأريخية .

قصارى القول : سيغدو بوسع التأريخ ان يوضح اسباب الكثير من اشباحنا الا انه لن يبددها مادمنا الوحيدين القادرين على مواجهتها ، او لاحرى ان التأريخ سيمدنا بفهم بعض مقومات شخصيتنا شريطة ان نكون اهلا لنبذها او اداتتها سلفا فنحن وحدنا قادرون على الاجابة عن الاسئلة التي يطرحها علينا الواقع وكينونتنا المحض .

في لغتنا اليومية ثمة مجموعة من الكلمات المحرمة ، السرية التي تفتقر الى الوضوح في فحواها ، ومن غموضها الساحر نستمد الثقة بالتعبير عن خلجاتنا وانفعالاتنا الاكثر وحشية او رقة . انها كلمات لعينة ، تتلفظ بها بصوت مسموع حين لا نكون في كامل قوانا ، فهي تعكس ما في قرارة انفسنا على نحو مبهم . جموح حيويتنا يزيدها اشراقا ، وانطفاء روحنا يزيدها قتامة . انها لغة قدسية ، كلغة الاطفال .. والشعر والمذاهب . فثمة حياة مزدوجة تسري في أحرفها ومقاطعها ، الا انها في الوقت عينه حياة مشرقة ومعتمة تظهرنا وتوارينا . كلمات لا تنبىء بشيء وتقول كل شيء ، يتفوه بها المراهقون بصوت أجش حينما يختالون بصيرورتهم رجالا . اما السيدات فانهن يرددنها حبا في الافصاح عن روح حرة أو ابداء لحقيقة مشاعرهن . اذن هي كلمات ماضية حاسمة على الرغم من الغموض الذي يغلفها ومن السهولة التي تتنوع فيها معانيها . تلك هي الكلمات النابية ، اللغة الحية الوحيدة وسط عالم من المفردات الهزيلة وعالم الشعر في متناول الجميع .

لاريب في ان لكل بلد كلمته . وفي كلمتنا هذه ، بمقاطعها القصيرة المجزأة الشرسة والخاطفة كالومض الذي يبعثه نصل سكين عند وضعها قبالة جسم معتم صلب ، تحتشد كل شهواتنا ، جموحنا ، عنفواننا ، توقنا وكل تلك المشاعر التي تمور في اعماقنا دون ان تعبر عن نفسها . هذه الكلمة هي كلمة

سرنا ، بها تتوسل وفيها تتعرف الى انفسنا وسط الغرباء وبها نلوذ في كل مرة يورق على شفاهنا شرط كينونتنا • وما معرفتها او استخدامها او القاؤها في الفضاء كما لو انها لعبة زاهية او التلويح بها كنصل مشحوذ الا وسائل لاثبات مكسيكيتنا • كل هذا التوتر القلق الذي يسكننا يجد له تعبيرا في عبارة واحدة سرعان ما تقفز الى شفاهنا حينما تحدونا سورات الغضب والغبطة والعنفوان على تمجيـــد شرطنا كمكسيكيين : فلتحيـــا المكسيك يا أبناء ال « تشنغادا »

ان في هـــذه العبارة لتحديا وتوكيدا •• فهـــي اطلاقة مسددة الـــى عدو وهمي وانفجار في الفضاء • هكذا تبرز لنا مرة اخرى بنوع من القدرية الساطعة المطواعة صورة الصاروخ الصاعد الى السماء الذي يتشظى شررا ليهوي بعدئذ على نحو معتم •• او تلك الصرخة برنينها الغامض نفسه التي نختتم بها غناءنا : اي ذلك الفرح الحقود وذلك التوكيد الممزق الذي يشق الصدر ويستهلك ذاته •

بهذه الصرخة التي هي تحديدا صرخة الخامس عشر من أيلول من كل عام وهي الذكرى السنوية للاستقلال نؤكد انفسنا ونؤكد بلادنا امام الاخرين على الرغم منهم • ولكن من يكون اولاء الاخرون ؟ الاخرون هم ابناء ال « تشنغادا » الغرباء « نموذج المكسيكيين السيىء ، اعداؤنا وخصومنا • وعلى اي حال ، فهم « الاخرون » • حقا انهم ، بكل بساطة ، اولئك الذين ليسوا على شاكلتنا • وهؤلاء الاخرون لا يعرفون بسوى كونهم ابناء أم مجهولة وغامضة شأنها شأنهم تماما •

فمن هي هذه ال «تشنغادا» ؟• بدءا هي الام •• ليست الام الحقة بل هي رمز اسطوري « تشنغادا » هي احدى الصور المكسيكية التي تجســـد الامومة مثل « لاليورونا او المنتحبة ، او الام المكسيكية الملتاعة التي نحتفي بها في العاشر من مايس • « التشنغادا » هي الام التي اوقع بها فعل شائن سواء اكان ذلك مجازا أم حقيقة ، ذلك الفعل الذي ينخر داخلها وتنطوي

عليه المفردة التي اضحت اسما لها • لذا بات الوقوف عند وقع هذه الكلمة امرا يستحق العناء •

يبحث الشاعر روبن داريو في كتابه الموسوم « الفوضى اللغوية في أميركا الاسبانية » في اصل هذه الكلمة ويحصي المعاني التي تمنحها اياها الشعوب الناطقة بالاسبانية قاطبة • ولعلها مشتقة من اصل ازتيكي : فبعض اشتقاقاتها يعني بذرة أحد البقول وآخر يعني شراب السيزال المعتق • اذن فهذه المفردة وصيغها الاخرى جميعا في ارجاء اميركا كلها تقريبا وفي بعض مناطق اسبانيا لها صلة بالمشروبات الكحولية ، ومنها ما يعني البقايا او الثفل المتبقي في القدح • وفي غواتيمالا والسلفادور وأواتشاكا يطلق اشتقاق اخر منها على ثفل القهوة • اما في المكسيك فهم يسمون الكحول بـ « تشنغيري » وهذا يعني نوعا من الشراب • اما في شيلي وبيرو والاكوادور فمنها ما يعني الحانة • والفعل « تشنغار » في اسبانيا يدل على الافراط في الشرب او الثمل ، وفي كوبا يشتق منه ايضا ما يدل على جرعة من الكحول •

من معاني هذا الفعل الاخرى الاخفاق في عمل شيء ••• ففي شيلي والارجنتين يستخدم هذا الفعل ليدل على المفرقعة التي لا تنفجر وهو ايضا الشركات التي تخفق في اعمالها والعيد الذي يتعكر صفوه •• والافعال التي لا تبلغ غاياتها • بهذا الفعل اذن يعبرون عن كل هذه الصور • اما في كولومبيا فانه يعني التعرض للنصب والاحتيال • والثوب الـ « تشنغادو » في لابلاتا هو الثوب البالي • وهنالك اجماع في كل هذه الانحاء على ان هذا الفعل يعني : سخر منه او اخفق • ويستخدم في بعض انحاء أميركا الجنوبية مرادفا للفعل ازعج ، خدش احساسا وسخر من ، لذا فهو كما نلاحظ فعل عدواني في الغالب من معانيه : بتر ذنب الحيوان ، أثار او اهاج الديكة ، استهزأ من ، خيب ، أضر ، ضيع واخفق •

ومن هنا نرى ان معاني هذه الكلمة لاتعد ولاتحصى • فهي كلمة ذات وقع سحري • وحسبنا أي تغير في النبرة او تنغيم في الصوت كـي يختلف معناها • اذن ثمة دقائق واساليب كثيرة في التنغيم : اي معان ومشاعر ثره ، اذ بمستطاعنا جعلها « تشنغون » التي تستخدم في التجارة او في السياسة او في الجريمة او مع النساء • واما الـ « تشنغاكيديتو » فهو الصموت ، المواري، الشخص الذي يدبر المكائد في الظل ويتقدم خلسة كي يوخز اخر بالدبوس، مثلما يمكن جعلها « تشنغوثيتو » • غير ان تنوع معانيها لا يحول دون أن تكون فكرة العدوان بكل درجاتها حاضرة معنى أخيرا لهذه الكلمة بدءا بالمعنى البسيط ، أقلق ، لسع ، جرح ، اغتصب ، هتك عرضا وانتهاء بأزهق روحا • اذن فالفعل يدل على العنف ، يخرج من ذاته ليلج عنوة في فعل اخر ، كما هو شأن الافعال : جرح ، خدش ، اغتصب الاجساد والارواح والاشياء على حد سواء وحطم • فعندما يكسر شيء ، نستخدم هـذا الفعل وحينما يقدم احد ما على عمل غير منضبط ومناف للقواعد العامة نعلق على ذلك : « لقد اتى بتشنغادا » اي لقد أتى بعمل شائن •

وهكذا تعاود فكرة الكسر والفتح الظهور تقريبا في معظم التعابير : فجرس هذه الكلمة مشوب بالجنس ، الا أنه ليس مرادفا للفعل الجنسي ، اذ يمكن ممارسة هذا الفعل مع امرأة ما دون امتلاكها • وعند الاشارة الى الفعل الجنسي سواء أكان الاغتصاب أم الخديعة فهم يعيرونه اهتماما خاصا • ان من يمارس هذا الفعل لا يفعل ذلك أبدا بموافقة من يقع عليه الفعل • خلاصة القول ان هذا الفعل يعني ممارسة العنف حيال شخص اخر • لذا فهو فعل ذكوري ، نشيط ، قاس فهو يلدغ ، يجرح ، يهتك ويلطخ ، بل يولد شعورا مريرا ومقيتا بالراحة لدى الشخص الذي يمارسه •

في حين ان الـ « تشنغادو » هو الشخص السلبي ، الخامل ، المنفتح على نحـو مغايـر لمـن يمارس هذا الفعل ، فهو نشيط ، عدوانـي ومنغلق ،

وال « تشنغون » هو الذكر الفاتح ، في حين ان « تشنغادا » هي الانثى السلبية المحض ، الخاملة ازاء العالم الخارجي • والعلاقة بين كليهما علاقة عنيفة ، محكومة بقوة الطرف الاول ووقاحته وعجز الطرف الثاني • كما ان فكرة العنف هذه تحكم على نحو غامض المعاني جميعها وبذا تكتمل جدلية « المنغلق » و « المنفتح » بدقة تبلغ مبلغ الشراسة •

ان السطوة السحرية التي تسم هذه الكلمة لتزداد حدة بسبب من طبيعتها المحرمة • فلا احد يتلفظ بها علانية • وليس غير لحظات الاحتدام والانفعال وسورات الهذر مسوغا للنطق بها جهارا • فهي كلمة لا يسمع لها صوت الا بين الرجال او في الاعياد الكبرى • وحينما نهتف بها نمزق نقاب الحياء والصمت والرياء ، لنسفر عن انفسنا الحقة ، اذ أن الكلمات النابية تمور في داخلنا كما تمور المشاعر ، وحينما تخرج من داخلنا فهي تخرج بفظاظة ووحشية ، او صرخة تحد او غضب • فاذا هي قذائف او مدى تنهش فينا •

يستخدم الاسبان ايضا التعابير الحادة بافراط • ولو قارنا المكسيكي بهم لوجدناه مهذبا على نحو لا مثيل له • ولكن ، بينما يلقى الكفر والكلمات البذيئة هوى في نفوس الاسبان فاننا لنكاد نختص بالقسوة والسادية ، اذ ان الاسباني انسان بسيط : يجدف بالرب لانه يؤمن به •

يقول انطونيو ماتشادو[4] « ان الكفر صلاة معكوسة » • واللذة التي يستشعرها الكثير من الاسبان ، بما في ذلك أرفع شعرائهم منزلة ، عند

---

(٤) انطونيو ماتشادو : (١٨٧٥ ـ ١٩٣٩) من كبار الشعراء والكتاب الاسبان والرموز البارزة لجيل ال ٩٨ . امتاز بشاعرية خلاقة اصيلة مترعة بافكار ومضامين انسانية وفلسفية . من أبرز دواوينه « حقول قشتالة » « عزلات » و « اغان جديدة » . واشترك مع اخيه مانويل ماتشادو في كتابة بعض المسرحيات . (المترجمة)

الاشارة الى النفايات وعند خلطهم الغائط بكل ما هو مقدس لتبدو شبيهة الى حد ما بتلك المتعة التي يحياها الصغار وهم يلهوون بالوحل . وهناك ، فضلا عما يضمرون من ضغينة ، ولعهم بالاضداد الذي ادى الى ظهور الطراز الباروكي وتلك المأساوية التي تسم الرسوم الاسبانية الفذة . كما يتفرد الاسباني بكونه الشخص الوحيد الذي يستطيع ان يمنح نفسه حق الحديث عن دون خوان[٥] وأونان[٦] . وعلى النقيض من ذلك نرى المصطلحات المكسيكية تخلو من الازدواجية الاسبانية التي يرمز اليها التعارض القائم بين الواقعي والمثالي ، بين الصوفيين والصعاليك ، بين كيبيدو[٧] السوداوي وكيبيدو المولع باستخدام مفردات عن النفايات والقذارة ، بل اننا نلاحظ افتراقا بين المغلق والمنفتح ، اذ ان الفعل تشنغار يشير الى غلبة المنغلق ، الذكر القوي على المنفتح .

ان كلمة تشنغار ، بكل هذه المعاني المتعددة ، تعرف جانبا كبيرا من حياتنا وتصنف علاقاتنا ببقيـة اصدقائنا ومواطنينا . فالحياة بالنسبة الـى المكسيكي هي امكانية ان تمارس هذا الفعل أو أن تكون ضحيته اي أن يقع عليك تأثيره ، ان تمتهن ، ان تعاقب وان يساء اليك أو أن تكون نقيض ذلك . وهذا المفهوم عن الحياة الاجتماعية بوصفها معتركا يفضي على نحو قدري

(٥) دون خوان : شخصية اسطورية مـن الادب الاسباني اكتسبت شهـرة عالمية . الف فيها كبار الكتاب منهم تيرسودي مولينا ، ثوريا ، آثورين ، موليير ، لورد بايرون ، بوشكين وغيرهم ووضع فيها موزارت احـدى سمفونياته . (المترجمة)

(٦) اونان : أبن يهودا . ورد ذكره في سفر التكوين . (المترجمة)

(٧) فرانثيسكو دي كيبيدو : (١٥٨٠ ــ ١٦٤٥) من اعلام الادب الاسباني في العصر الذهبي . نشأ في البلاط وتلقى ثقافة واسعة فيه . برع في اجناس ادبية عـدة ، في الشعر والرواية الصعلوكية . اتسمت كتاباته بأسلوب هجائي ساخر . من مؤلفاته . « العالم من الداخل » « قصة حياة المحتال دون بابلوس » . (المترجمة)

الى تقسيم المجتمع أقوياء وضعفاء : فالاقوياء فئة (التشنغون) هم الذين لا تغرب لهم شموس والاشداء ممن لا تلين لهم عريكة اذ تحف بهم دوما ولاءات متأججة قائمة على المصلحة والخنوع للمتنفذين ، ولاسيما بين طبقة « الساسة » ، اولئك المحترفين شؤون التجارة العامة ، ماهو الا احدى عواقب هذا الوضع الاليمة ، والعاقبة الاخرى التي لا تقل عنها امتهانا هي هذا الالتصاق بالاشخاص وليس بالمبادىء • كثيرا ما يخلط ساستنا شؤون التجارة العامة بالخاصة ، بيد ان هذا ليس بالامر المهم فثراؤهم ونفوذهم في الادارة يتيحان لهم امتلاك حاشية اصطلح الشعب على تسميتهم بـ (اللحاسين) وهو اشتقاق الفعل لحس •

لقد خلق الفعل « تشنغار » ، هذا الفعل الخبيث ، اللعوب ، الشبيه بحيوان طريد الكثير من المصطلحات التي صنعت من عالمنا غابة : فثمة نمور في التجارة ، وصقور في المدارس او في المعامل ، وأسود بين الاصدقاء ، واما الرشوة فهم يسمونها ، عضة ، والبيروقراطيون « يطحنون عظامهم » اي (الوظائف العامة) • وفي عالم من فئة التشنغون هؤلاء ومن العلاقات القاسية التي يطغي عليها العنف والريبة حيث لا احد ينفتح ولا يثلم ، والجميع يتوقون الى « التشنغار » تصبح الافكار والاعمال قليلة الشأن • والشيء الوحيد الذي يحتفظ بقيمته هو الرجولة ، تلك القيمة الشخصية القادرة على فرض نفسها •

ثمة معنى اخر اكثر تقييدا لهذه الكلمة : حينما نقول لاحد ما « اذهب الى « التشنغادا » » فانما نبعث به الى عالم ناء غامض لا حدود له ، الى بلاد الاشياء المهشمة، ، البالية ، بلاد رمادية اللون لاوجود لها في أي مكان ، مترامية الاطراف ومقفرة ، بلاد نقرنها بالصين لاسباب تفوق الشبه اللفظي بينهما فهي ايضا بلاد مترامية الاطراف ونائية • ولكثرة استخدام كلمة « التشنغادا » وتضارب معانيها وطريقة تلفظها بين شفاه مهتاجة ومحمومة

فانها تؤدي الى استهلاك نفسها واستنفاد معانيها والى التلاشي • انها كلمة جوفاء لا تعني شيئا ، بل هي العدم بعينه •

بعد هذا الاسهاب في شروحات هذه الكلمة سيغدو باستطاعتنا أن نجيب عن السؤال : من هي التشنغادا ••؟ انها الام التي كانت ضحية لحادث اعتداء أو اغتصاب او هتك عرض بالقوة • اما أبن التشنغادا فهو وليد ذلك الاغتصاب او الاعتداء او هتك العرض • واذا ما قارنا هذه العبارة بالعبارة الاسبانية (ابن الفاجرة) سنلاحظ حالا الفرق بينهما • ففي التعبير الاسباني نجد ان وصمة العار تكمن في كونه ابنا لامرأة تهب نفسها بملء ارادتها ، امرأة بغي • واما المكسيكي فهو ثمرة حادث اغتصاب •

لقد جعلني مانويل كابريرا[8] الاحظ ان الموقف الاسباني يعكس مفهوما تأريخيا واخلاقيا للخطيئة الاصلية • في حين ان الموقف المكسيكي يتفوق في عمقه واصالته ويتخطى الحدث التاريخي والاخلاق • حقا ان كل امرأة ، حتى تلك التي تسلم نفسها طواعية ، هي منتهكة وهي « تشنغادا » من جانب الرجل ، وبمعنى او باخر فاننا جميعا ابناء « التشنغادا » مادامت النساء تلدننا ، أو اننا ابناء حواء ، بل ان ابرز ما يميز المكسيكي ، في رأيي ، يكمن في امتهان الام ، ذلك الامتهان المتعسف الساخر وفي توكيد الاب وهو الذي لا يقل عنه عنفا • والنساء اكثر تحسسا لهذا الوضع الغريب • فقد لفتت انتباهي صديقة لي الى تأمل مسألة ان الاعجاب بالاب الرمز المنغلق العدواني القادر على « التشنغار » وعلى الفتح يتجلى في عبارة ألفنا تكرارها عندما نبغي فرض تفوقنا على الاخر ، وهي (أنا أبوك) • خلاصة القول ان مسألة الاصل اضحت المركز السري الذي يقوم عليه توقنا وهمنا والتوقف مليا عند المعنى الذي ينطوي عليه كل ذلك لامر جدير بالاهتمام •

---

(٨) مانويل كابريرا : (١٨٥٧ — ١٩٢٤) رجل دولة وسياسي . حكم غواتيمالا في العقدين الاولين من القرن العشرين . (المترجمة)

نحن مستوحدون ، والوحدة هـذه الخلفية التـي يعزى اليها همنـا بدأت ساعة انطلقنا من بيئتنا الامومية لنسقط في عالم غريب وعدواني . نعم لقـد سقطنا وسقوطنـا هذا ، بل ادراكنـا اياه بات السبب الذي جعلنـا آثمين . ولكن ما اثمنا ؟ اثمنا جريمة ليس لها اسم . وجريمتنا هي اننا ولدنا . وهذه المشاعر تخلو من كل ما يجعلها تقتصر على المكسيك لانها مشاعر يشترك فيها سائر البشر . اذن فالامر لا يتعلق باعادة وصف كثر تداوله بل عزل بعض الملامح والمشاعر التي تضيء شرط الانسان العالمي بضوء خاص .

في سائر الحضارات تطرح صورة الالـه ـ الاب ، الذي قلمـا يخلع الالاهات الاناث ، رمزا يحمل معاني متناقضة . فمن ناحية نرى ان هذا الاب سواء أكان يهوه أم الاله الخالق أم زيوس أم ملك الخليقة أم حاكم الكون ، انما يجسد القوة المتمثلة بديمومة النسل وأصل الحياة . ومن ناحية اخرى ، هو البداية سلفا وهو الواحد الذي يولد منه كل شيء وفيه يصب ، غير أنه الى جانب ذلك هو مالك البرق والسوط ، وهو الطاغية والغول الذي يأتي على الحياة . يهوه الهائج اله الغضب ، ساتورنو ، زيوس مغتصب النساء .. كل ذلك هوما يظهر على نحو خاص في نماذج التماثيل الشعبية التي يجسد فيها المكسيكي القوة الرجولية . ف « الذكر » يمثل القطب الذكري في الحياة، وعبارة « أنا أبوك » تعوزها نكهة أبوية وهي لا تقال من اجل حماية الابنـاء والذود عنهم او توجيههم بل رغبة في فرض التفوق وفي الاذلال . لذا كان معناها الحقيقي لا يفترق كثيرا عن معنى الفعل « تشنغار » وبعض اشتقاقاته. فالذكر يصبح « التشنغون الكبير » وهي كلمة تختزل الشراسة واللامبالاة والعصمة والاستخدام العاري لعنف الذكر وصفاته الاخرى بل هي : القوة ، القوة العارية من أية فكرة نظام : القوة التعسفية والارادة الجامحـة التـي لا يعرف لها مسار .

وهكذا يضيف العنف عنصرا طارئا الى شخص « الذكر » . انه شخص ساخر وفكاهاته هائلة وغير مألوفة ، وهي تصب دوما في اللامعقول . وأحسبها معروفة حكاية ذلك الشخص الذي افرغ حشوة مسدسه في رأس صديقه وهما يتنزهان ليضع حدا للصداع الذي كان هذا الاخير يعانيه . وسواء أكان ذلك صحيحا أم لا فان الحادث يبرهن على الدقة الجائرة التي يتدخل فيها منطق اللامعقول في الحياة ، اذ ان الذكر يأتي بـ «تشنغاديراس» اي بافعال غير متوقعة تؤدي الى الارتباك والرعب والدمار . انه يفتح العالم ، وعندما يفعل ذلك يهدمه . وهذا الدمار يثير ضحكة كبيرة حزينة . والذكر يتصف بالعدل بأسلوبه الخاص ، فهو يعيد توازن الاشياء ، يضعها في نصابها ويحيلها ترابا وبؤسا وعدما . لذا فروح الفكاهة لدى « الذكر » ماهي الا عمل انتقامي .

ورب عالم نفساني يقول ان الضغينة هي خلفية لشخصيته . ولن يصعب أيضا ان نفهم الميول الشاذة عند الذكور كاستخدام المسدس والتعسف في استخدامه ، هذا الرمز الذكوري الذي يدل على الموت لا الحياة ، وكالولع بتجمعات الذكور المغلقة ... الخ . ولكن أيا كان أصل هذه المواقف فان القوة ، هذه المزية الجوهرية « للذكر » ، لتكاد تفصح عن نفسها دوما متمثلة بالقدرة على الجرح والثلم والتصفية والاذلال . لذلك فان لامبالاته ازاء الذرية التي ينجبها تصبح امرا طبيعيا لا يتفوق عليه اي شيء . فهو لا يعد مؤسس قوم ولا بطريرك يمارس سلطته الابوية ، انما هو السلطة بعينها ، يحيا معتكفا في قوته نفسها دونما علاقة او التزام يشدانه الى العالم الخارجي . انه الحجر المحض ، العزلة التي تنهش ذاتها وتلتهم كل ما تمسه . كما انه لا يمت الى عالمنا بصلة ولا الى مدينتنا ، ولا يحيا في حينا . فهو القادم من بعيد ليبقى ابدا بعيدا : انه الغريب . لذا بات مستحيلا الا نلاحظ الشبه القائم بين صورة « الذكر » وصورة الغازي الاسباني فها هو ذا

النموذج الذي تتفوق الاسطورة فيه على الواقع والذي يتحكم في الصورة التي يجسدها الشعب المكسيكي عن الجبابرة : شيوخ القبائل ، اصحاب الاملاك والاقطاعيات : الساسة ، الجنرالات وربابنة الصناعة ، هؤلاء الذكور جميعا أو « التشنغونات » .

ليس للذكر نموذج بطولي او الهي . فأيدالغو[٩] (ابو الوطن) ، كما اعتاد الناس تسميته بلهجتهم الريفية في الجمهورية ، هو كهل طاعن في السن أعزل . كان رمزا يجسد الشعب المسكين حيال القوة اكثر مما هو صورة للاب المستبد الذي يمثل السطوة والغضب . وعلى الرغم من كثرة القديسين الشفعاء للشعب المكسيكي فاننا لا نكاد نجد بينهم من يقدم نموذجا شبيها بالالهة الذكور العظام . ففي نهاية الامر ليس هنالك اي طقوس خاصة بتمجيد الرب ـ الاب في الثالوث المقدس . هذا الرمز الذي اوشك ان يمحي . وعلى النقيض من هذا نجد أن عبادة المسيح الاله ـ الابن ، الاله الشاب بوصفه الضحية الفادية تكاد تكون غالبة وثابتة . حيث تنتشر التماثيل المجسمة ليسوع المصلوب وجسده مثخن بالجروح والكدمات في كنائس البلاد ، اذ تلتقي في هذه التماثيل الواقعية التي جاء بها الاسبان والرمزية المأساوية . فما هذه الجروح الا ازاهير وآيات البعث لكنها تثبت في الوقت نفسه ان الحياة ماهي الا قناع اليم للموت .

ولربما سيصبح باستطاعتنا أن نرى في الحماس الذي يكمن وراء عبادة الاله الابن اول برهة موروثا للديانات التي سبقت الفترة الاسبانية . والحق،

---

(٩) ايدالفو اي كوستيا . راهب ووطني مكسيكي (١٧٥٣ ـ ١٨١١) يعد ابا الاستقلال المكسيكي . تزعم الحركة الثورية ، وفي ١٦ أيلول ١٨١٠ اطلق صرخته الشهيرة ، صرخة الالام التي كانت الشرارة الاولى لحرب الاستقلال . خاض سلسلة من المعارك على رأس جيش من الهنود ثم القي القبض عليه وأعدم . (المترجمة)

عندما وصل الاسبان البلاد كان كبار الالهة جميعهم تقريبا من الذكور ، خلا « تلالوك » الطفل ـ الشيخ في آن واحد ، المعبود الطاعن في القدم . جميعهم كانوا الهة أبناء مثل « تشيبه » اله يبادر الذرة الشاب وأويتزيلوبوتشلي[10] «محارب الجنوب» . ولابأس ان نذكر ان في ولادة هذا الاله أكثر من وجه شبه بولادة المسيح ، فقد أدركوه بالبصيرة ايضا دونما وجود اتصال مادي بينهم . والرسول الالهي كان ايضا طائرا ترك ريشته تتهاوى في احضان كواتليكوه[11] ، واخيرا تعين على الطفل أويتزيلوبوتشلي أن ينفذ بجلده من مطاردة هيرودس اسطوري ، الا ان من العسف توظيف هذا الشبه في تفسير عبادة المسيح ، ومن العسف ايضا ان نسب هذه العبارة الى محض ديمومة لعبادة الابناء ، فالمكسيكي يجهل المسيح المضرج بالدماء ، المسيح الذي ذاق الهوان ، الذي أوجعه الجند ضربا وأنزل به حكم القضاء ، مادام قد رأى فيه صورة تجسد قدره الشخصي . وهذا نفسه يقوده الى الاقرار بكواوتيموك ، الامبراطور الازتيكي الذي خلعه ايرنان كورتيس عن عرشه ونكل به وازهقه روحه .

تعني كلمة كواوتيموك (الصقر الذي يهوي) . فالزعيم المكسيكي يرتقي سدة الحكم ساعة بدء حصار المكسيك ـ تينوتشتيتلان ، عندما راح الالهة يتخلون الواحد تلو الاخر عن الازتيك ، مثلما تخلى عنهم زعماؤهم وحلفاؤهم . يرتقي تلك السدة كي يهوي بطلا اسطوريا . وتلتقي حتى علاقته بالمرأة بنموذج البطل الشاب ، حبيب الاله وابنها في ان واحد . وهكذا يقول لوبث بيلارده[12] ان كواوتيموك يخرج للقاء كورتيس ، أي انه يمضي صوب

---

(10) أويتزيلو بوتشلي : اله الحرب لدى قدماء المكسيكيين .
(المترجمة)

(11) كواتليكوه : اله الارض والموت عند الازتيك . (المترجمة)

(12) لوبث بيلارده : شاعر وكاتب مكسيكي (١٨٨٨ ـ ١٩٢١) . من اكثر الشعراء المكسيكيين أصالة . من اشعاره ديوان « الدم الورع » .
(المترجمة)

التضحية الاخيرة « منطلقا من ثنايا صدر الامبراطورة » فهو محارب لكنه طفل . بيد أن حلقة البطولة لا تغلق : البطل الشهيد ما فتيء ينتظر بعثه . ولن يغدو غريبا ان يصبح كواوتيموك بالنسبة الى الكثير من المكسيكيين هو « الشاب الجد » اصل المكسيك ، اي ان قبر البطل هو نفسه المهد الـذي ينشأ فيه الشعب : هي ذي جدلية الاساطير ، كواوتيموك هو اسطورة قبل ان يكون رمزا تاريخيا . وهنا يتدخل عنصر حاسم آخر . هذه المناظرة التي تصنع من التاريخ قصيدة حقا تبحث عن خاتمة لها . فالجهل بالموضع الذي يقع فيه قبر كواوتيموك ، وسر المرقد الذي دفنت فيه رفاته هو هاجس من هواجسنا ، والعثور عليه سيعني لنا الرجوع الى أصلنا ولاشيء اخر ، اي استئناف انتمائنا ، وتحطيم وحدتنا . وسيعني لنا الانبعاث أيضا .

واذا توجهنا بالسؤال الى الطرف الثالث من هذا الثالوث اي الى الام فاننا سنواجه باجابة مزدوجة . ليس خافيـا على أحـد ان الكاثوليكية المكسيكية تقوم على عبادة عذراء غوادالوبه : ابتداء اذن ، فالامـر يتعلق بعذراء هندية ومن ثم مكان ظهورها (في حضرة الهندي خوان دييغو) الذي هو رابية كانت في سابق عهدها معبدا مكرسا في عبادة « توناتنزين » « أمنا » ربة الخصب عند الازتيك . وكما هو معروف فقد تزامن الغزو الاسباني مع ذروة عبادة المعبودين الذكرين : كيتز الكواتل ، اله الفـداء (اذ تحكـي الاسطورة ، انه خلق العالم عندما القى بنفسه في لظى تيوتيواكان المستعرة) وأويتزيلوبوتشلي الاله الشاب المحارب المضحي . واما هزيمة هذين الالهين ــ وهذا ما كان يعنيه الغزو بالنسبة الى العالم الهندي : اي نهاية الدورة الكونية واقامة مملكة الهية جديدة ــ فهي التي خلقت فرصة للرجوع الى عبادة الالهة القدامى من الاناث . وظاهرة الرجوع الى رحم الام ، المعروفة جدا عند علماء النفس هي بلا شك احد الاسباب القاطعة في الانتشار الشعبي السريع لعبادة العذراء . اذن فمعبودات الهنود كن ربات الخصب المرتبطات

بالايقاعـات الكونية وعمليات الغـرس والطقوس الزراعية . والعـذراء الكاثوليكية هي ايضا ام (وما زال بعض الحجيج الهنود يدعونها غوادالوبه ـ تونا تتزين) غير ان دورها الرئيس لا يكمن في العناية بخصب الارض بل في أن تكون الملاذ لمن لا مأوى لهم . بيد أن هذا الوضع قد تغير ، فالمسألـة ما عادت تمت بصلة الى ضمان مواسم الحصاد انما تنحصر في ايجاد المأوى . العذراء هي سلوى الفقراء ، درع المحرومين وملاذ المظلومين .

خلاصة القول انها أم اليتامى اذ يولد جميع البشر وهم يكابدون الحرمان من كل انواع الارث . لان وضعنا الحقيقي هو اليتم ، وهذا يصح بالتحديد بين الهنود والفقراء في المكسيك ، وعبادة العذراء لا تعكس وضع البشر العام حسب ، بل انها تجسد واقعا تأريخيا محددا في الجانبين الروحي والمادي على حد سواء . واذا تعمقنا اكثر فهي الام الكونية ، أو أن العذراء هـي ايضا الوسيط والرسول بين الانسان المحروم والمجهول المتجبر الفاقد الملامح اي الغريب . ونقيضا لغوادالوبه ، الام العذراء ، هناك التشنغادا الام المغتصبة . غير أن كلتيهما تفتقر الى الصفات السوداوية التي تتصف بها الربة العظمى ، اي شبقية اما تيراسو[١٣] وأفروديت[١٤] ، قسوة أرتيميس[١٥] وعشتار[١٦] ، وسحرشيرش[١٧] الشرير وهوس كالي[١٨] بالدم . انهما رمزان سلبيان . غوادالوبه هي محض تلق ، ونعمها من الطراز عينه . فهي تواسي ، تهـدىء

---

(١٣) اماتيراسو الهة الشمس عند اليابانيين . المترجمة

(١٤) افروديت : الهة الجمال والحب عند الاغريق . المترجمة

(١٥ أرتيميس : الهة اغريقبة تقابل ديانا عند الرومان . المترجمة

(١٦) عشتار : الهة السماء والخصب عند البابليين . المترجمة

(١٧) شيرش : ساحرة اغريقية لعبت دورا كبيرا في الاوديسة . (المترجمة)

(١٨) كالي : الهة الطاقة التي تتلذذ بالدم في الميثولوجيا الهندية . (المترجمة)

الروع ، تمنح الطمأنينة ، تكفكف الدموع وتهون على الاخرين مكابداتهم. الا ان التشنغادا تفوقها سلبية .. وسلبيتها هذه ذليلة ، فهي لا تبدي مقاومة ازاء العنف ، بل هي كوم خامل من الدماء والعظام والغبار . اما تلك الوصمة التي تحملها فهي خلقية وتكمن كما قلنا في جنسها نفسه . هذه السلبية المنفتحة على الخارج قادتها الى فقدان كيانها . انها التشنغادا ، هاهي ذي قد فقدت اسمها ولم تعد احدا معينا ، انها تتبدد في العدم ... بل هي العدم نفسه . وعلى الرغم من كل ذلك فهي ما برحت تجسد بجرأة شرط الانثى .

ولئن باتت التشنغادا هي الام المغتصبة فلن أفتئت القول اذن اذا ما حسبتها جانبا من الغزو مادمنا عددناه اغتصابا ، ليس بالمعنى التأريخي وحده ، بل بمعنى اغتصاب الهنديات سواء بسواء . كانت دونيا لامالينتشه ، حبيبة كورتيس ، رمزا للعطاء حقا وهبت نفسها بملء ارادتها للغازي ، لكنه سرعان ما وجدها فائضة عن حاجته ، فهجرها . وهكذا استحالت دونيا مارينا رمزا للهنديات اللائي كن عرضة لسحر الاسبان واغوائهم . وكالطفل الذي لا يغفر لامه تخليها عنه بحثا عن والده ، لم يغفر الشعب المكسيكي خيانة لامالينتشه لانها كانت تمثل المنفتح التشنغادو في نظر هنودنا الزاهدين، المسالمين والمنغلقين . وفي هذا السياق يمسي كل من كواوتيموك ودونيا مارينا رمزين متماثلين يكمل احدهما الاخر . واذا كان ما نمارسه من طقوس عبادة الامبراطور الشاب (البطل الوحيد الذي يرقى الى مرتبة الفن) الذي يجسد صورة الابن المضحي لا يثير دهشتنا فان اللعنة التي نصبها على لامالينتشه لن تغدو غريبة ايضا . وهذا يفسر سر نجاح الصفة المشينة التي شاع تداولها مؤخرا في الصحافة لادانة اولئك الذين أصيبوا بعدوى الميول الاجنبية أي صفة « مالينتشي » . هؤلاء المالينتشيون هم انصار انفتاح المكسيك على الخارج ، انهم ابناء لامالينتشه الاقحاح التي هي التشنغادا بشخصها . ومرة اخرى يعاود المنغلق الظهور ازاء المنفتح .

ان صرختنا هي تعبير عن رغبة المكسيك في ان تحيا منغلقة تجاه الخارج حقا ، ومنغلقة في وجه الماضي بخاصة . في هذه الصرخة انما ندين اصلنا ونرفض هجنتنا . واقامة لامالينتشه وكورتيس على هذا النحو الغريب بمخيلة المكسيكيين المعاصرين واحاسيسهم لتدل على انهما لم يكونا شخصيتين تأريخيتين حسب ، بل هما رمزان لصراع خفي لما نفضه بعد . أما المكسيكي فبتخليه عن لامالينتشه ، هذه الحواء المكسيكية كما صورها خوسيه كليمنته اوروثكو(١٩) في جداريته في مدرسة الاعداد الوطني ، انما يحطم كل وشيجة بالماضي ، ينكر أصله ويغور وحيدا في باطن الحياة التأريخية . وفضلا عن ذلك فأن المكسيكي يدين كل تقاليده المتبعة ، جملة وتفصيلا ، تقاليده التي هي مجموعة من المبادرات والمواقف والميول التي يتعذر الفصل فيها بين ماهو اسباني وماهو هندي . فالنظرية الاسبانية الرامية الى جعلنا — عدا لامالينتشه — متحدرين من نسل كورتيس متوارثة عن نفر من الهيام الشذاذ الذين هم ليسوا من البيض الاصلاء . والكثير يمكن ان يقال عن الدعاية فيما يتعلق بالسكان الاصليين التي يدعمها ، « الكريولية » والمهجنين المصابين بالعته ، دون ان يعيرها الهنود اي اهمية البتة . ان المكسيكي لا يرغب في ان يكون هنديا أو اسبانيا ولا يرغب في ان يكون متحدرا منهما لانه ينكرهما . وهو لا يثبت نفسه هجينا بل يثبتها تجريدا : أنه انسان . وهكذا يصبح ابنا للعدم ، لانه يبتدىء بذاته .

وهذا الموقف لا يجد له تجسيدا في حياتنا اليومية حسب بل في كل مجرى تأريخنا الذي تبلور في بعض اللحظات رغبة في الاجتثاث من الجذور . وانه لامر مدهش ان بلدا ذا تأريخ بهذه الحيوية ، بلدا تقليديا على نحو

(١٩) خوسيه كليمنته اوروثكو (١٨٨٣—١٩٤٩) : رسام مكسيكي ولد في خاليسكو ، له كثير من الجداريات ذات الموضوعات الثورية .
(المترجمة)

متأصل ، ذا جذور ضاربة عميقا غنيا بعراقته الاسطورية ، وفقيرا بتأريخه المعاصر لا يفهم الا بوصفه رفضا لاصله حسب .

ان صرختنا الشعبية تعرينا وتكشف لنا اي جرح ذاك الذي تظهره ونخفيه مرة بعد مرة . غير انها لا تنبئنا بالاسباب التي أفضت الى ذلك الانفصال عن الام والى انكارها او متى وقعت تلك القطيعة . واذا توخينا دراسة متأنية لهذه المشكلة فيمكننا ان نمهد لذلك بالقول ان الاصلاح الليبرالي الذي جرى في اواسط القرن الماضي كان على ما يبدو اللحظة التي قرر المكسيكي فيها ان يضع حدا لكل صلة تربطه بالتقاليد السائدة التي هي صيغة ايضا ينهي بها صلته بذاته . واذا قطع الاستقلال الصلات السياسية التي كانت تربطنا باسبانيا فان الاصلاح رفض ان تديم الامة المكسيكية ، بوصفها مشروعا تأريخيا ، تلك التقاليد الاستعمارية . لقد اسس خواريث ومجايليوه دولة تختلف بمثلها عن تلك التي كانت تؤيد اسبانيا الجديدة[٢٠] او مجتمعات عصر ما قبل كورتيس . ودعت الدولة المكسيكية أيضا الى تطبيق مفهوم عالمي ومجرد في الانسان ، اي ان الجمهورية لا تتألف من المواطنين المتحدرين من اصول اوربية وهنود ومهجنين ، كما كانت تحدد ــ على وجه التخصيص ــ قوانين جزر الهند[٢١] المولعة ولعا عظيما بالتفاصيل وباحترام طبيعة العالم الاستعماري الغربية ، بل من البشر حسب ، ومن البشر وحدهم .

لقد عد الاصلاح القطيعة الكبرى مع الام .. وكان هذا الانفصال حتميا وضروريا فعلا . فكل حياة مستقلة بحق تبدأ على شكل قطيعة مع العائلة ومع الماضي ، ولكن ذلك الانفصال مازال يؤلمنا وما برحنا تتنفس

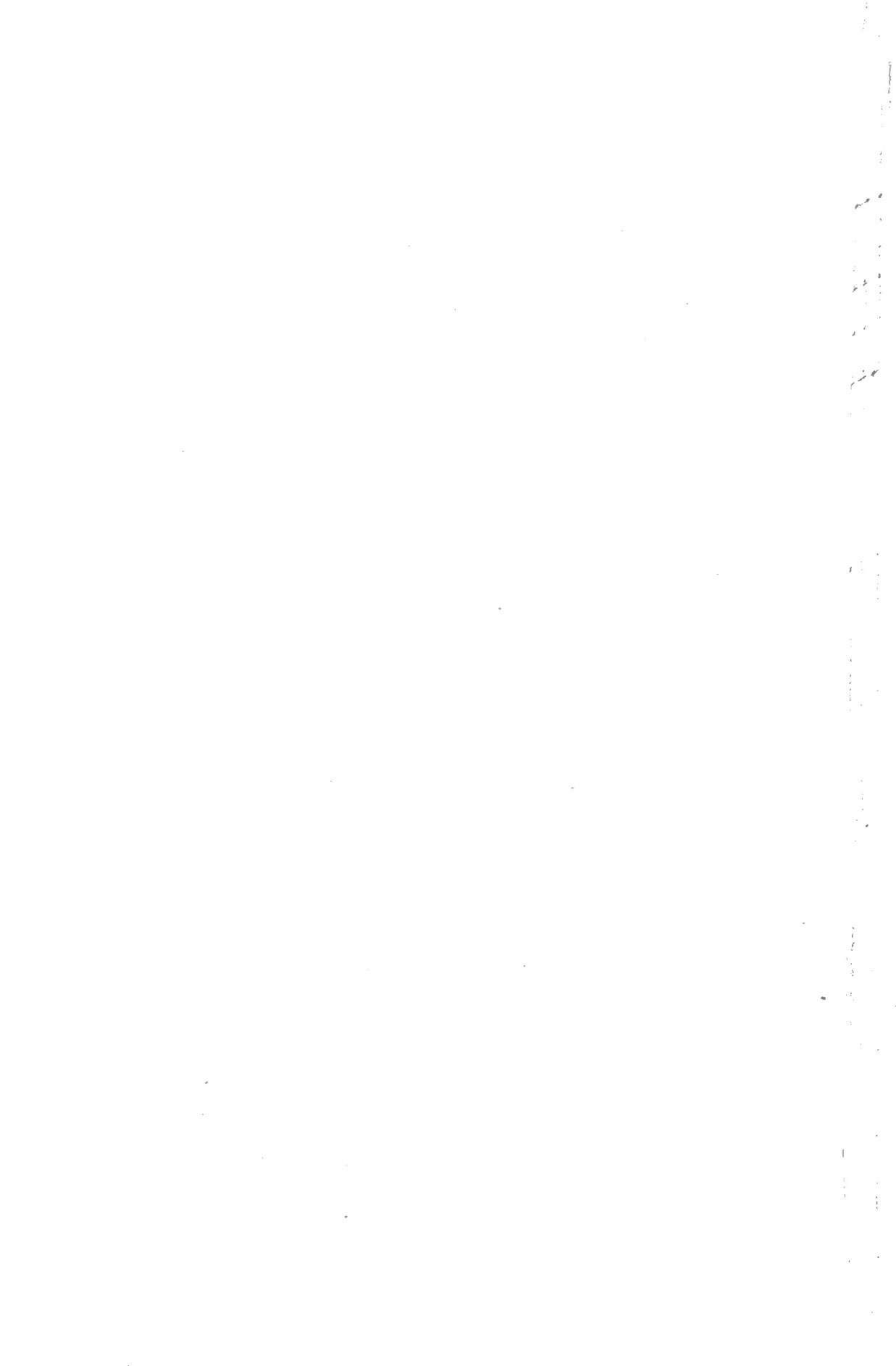
---

(٢٠) اسبانيا الجديدة : هو الاسم الذي اطلق على المكسيك بعد الغزو الاسباني .
(المترجمة)

(٢١) قوانين جزر الهند : مجموعة من القوانين التي سنت في مدريد في عام ١٦٨١ لتنظيم امور الحكم في اسبانيا الجديدة .
(المترجمة)

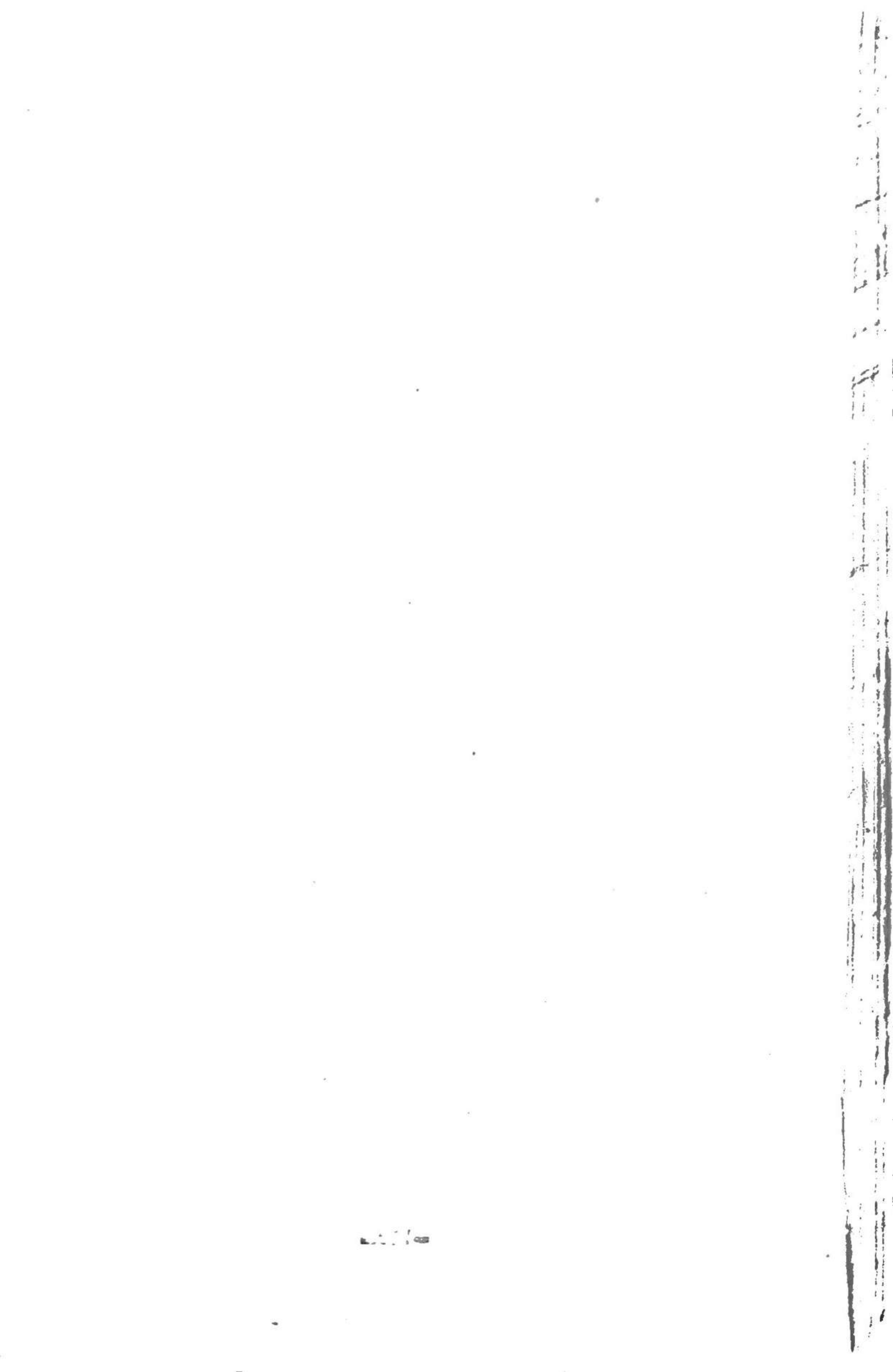
من جرحه ، لذا فان الاحساس باليتم سيصبح هو الخلفية الصلبة لمحاولاتنا السياسية ولما يصطرع في دواخلنا ، فالمكسيك وحيدة على نحو يختلف عن وحدة اي من ابنائها •

إن المكسيكي وهويتنا المكسيكية يعرفان بأنهما قطيعة ونكران ، وهما بحث ورغبة أيضا في تخطي حالة المنفى • خلاصة القول : هما وعـي نابض بالوحدة التأريخية والشخصية ، فالتأريخ الذي ما كـان بوسعه ان يخبرنا بطبيعة مشاعرنا وخلجاتنا بوسعه حقا أن يبين لنا الان كيف وقعـت تلـك القطيعة واي محاولات بذلنا لتخطي الوحدة •



الفصل الخامس

الغزو والاستعمار



يبين لنا اي اتصـــال نقيمه بالشعب المكسيكي ، مهما كان خاطفا ، ان المعتقدات القديمة والعادات ما فتئت تنبض في داخل الصيغ الغربية السائدة ، وان هذه البقايا الحية هي شهادات على حيوية الحضارات التي سبقت عهـد كورتيس • ففي أعقاب الاكتشافات التي توصل اليها علماء الآثار والمؤرخون لم يعد ممكنا الاشارة الى تلك المجتمعات بوصفها قبائل بربرية او بدائية • وبغض النظر عما يمكن ان تولده في داخلنا من احساس بالسحر او الرهبة لابد لنا من الاعتراف بان الاسبان عندما وطئت اقدامهم ارض المكسيك عثروا على حضارات راقية ومعقدة •

كانت ميسو أميركا تحديدا ، هذه النواة التي ستصبح فيما بعد اسبانيا الجديدة ، ارضا تشمل وسط المكسيك الحالية وجنوبيها وجزءا من اميركا الوسطى • اما في الشمال ، حيث الصحارى والسهول القاحلة ، فكانت تتنقل قبائل تشيتشميكاس الرحل وهي التسمية التي كـــان يطلقها سكان الهضبة الوسطى عموما ودونما تمييز على القبائل غير المتحضرة اذ لم تكـــن الحدود بينها ثابتة كما هو شأن حدود روما • ويمكننا القول ان القرون الاخيرة من ميسو أميركا كانت تقتصر بعامة على تأريخ اللقاء بين موجـــات الصيادين الشماليين ممن كانوا من سلالة ناواتل وجماعات السكان المستوطنين هناك • وكان الازتيك هم اخر من سكن وادي المكسيك ، لان عمليات الانقراض التي تعرضت لها الاقوام السابقة واستنفاد القوى الحقيقية في الحضارات

المحلية القديمة جميعا مكنتهم من البدء بمشروع استثنائي لارســـاء دعائم ما أسماه ارنولد توينبي بالامبراطورية الكونية التي نهضت على اطلال المجتمعات القديمة ، اذ كان هذا المفكر الانجليزي يعتقد ان الاسبان لم يفعلوا شيئا سوى انهم حلوا محل تلك الحضارات ، وبذلك أضحت نزعة التفكك التي كانت تهدد عالم ميسو اميركا نظرية سياسية .

ولو تأملنا مليا ما كانت عليه المكسيك ساعة وصول ايرنان كورتيس لدهشنا لهذا العدد الثر من المدن والحضارات ، مما يتباين والتجانس النسبي الذي يلاحظ على خصائصها الاكثر تميزا . فتنــوع بؤر السكان الاصليين والتناحر الذي كان ينهش أوصالها يدلان على ان ميسو أميركا كانت مؤلفة من عدد من الشعوب والحضارات والامم المستقلة التي تتمتع بتقاليد خاصة بها على نحو يشبه تماما حضارات حوض المتوسط والمناطق الاخرى . وكانت ميسو أميركا نفسها تعد عالما تأريخيا .

ومن ناحية اخرى فان التجانس الحضاري في تلك المراكز يبرهن لنا ان التفرد البدائي الذي كان يسم كل واحدة من تلك الحضارات قد استبدلت به في عصر ربما غير بعيد صيغ دينية وسياسية موحدة . وقد انقرضت فعلا منذ عصور خلت الحضارات الام في وسط البلاد وجنوبيها . ثــم عــاود أسلافهم تشكيل كل تلك الصيغ المتنوعة وخلقها . وتتوجت عملية التوليف هذه بنهوض نموذج يختلف عن سابقه ، بل هو نفسه .ولكن بفروق طفيفــة أقر بها الجميع .

وعلى الرغم من حالة الكساد الحقــة التي آلــت اليها كــل المسلمات التأريخية ، تلك الصيــغ التي استغلت على نحــو سيء ، تارة بتألق وتارة اخرى بسطحية ، يغدو مستحيلا ألا نقارن بين الصورة التي طرحتها لنا ميسو أميركا في بداية القرن السادس عشر وصورة العالم الهيليني عندما شرعت روما في بسط نفوذها على العالم . فوجود هذا العدد الثر من الدول الكبــرى

واصرار عدد هائل من المدن على البقاء مستقلة ، ولاسيما في اليونان ، سواء في جزرها أم في الجانب القاري منها ، لم يحل دون وجود صفـة حضارية موحدة لذلك العالـم بل كـان يؤكدهـا • أن مـا يميـز السلوقيين[1] والبطالسة[2] والمقدونيين[3] ودول كثيرة ، صغيرة وبائدة ، ليس هو تنوع مجتمعاتها واصالتها حسب بل تلك النزاعات التي أفضت بها الى التجزئـة الحتمية • والكثير يمكن ان يقال عن المجتمعـات الميسو أميركية ، حيث تمازجت التقاليد المتباينة وموروثاتها الحضارية وانتهى بها الامر الى الانصهار معا • بيد أن تجانسها الحضاري يتناقض وتلك التناحرات الدائمة التي كانت تنخـر اوصالها •

لقد بلغ العالم الهيليني توحده من خلال هيمنة الحضارة الاغريقية التي تشربت بالحضارات الشرقية ، ولكن يصعب علينا معرفة اي العناصر هو عنصر التوحيد في مجتمعات السكان الاصليين • غير ان فرضية لا قيمة لها سوى انها قائمة على تأمل بسيط تحدونا على التفكير في الدور الذي اضطلعت به الحضارة الاغريقية في العالم القديم ، ذلك الدور الذي بلغ كماله في ميسو أميركا ، من خلال حضارة ليس لها من اسم تعرف به غير أنها ازدهرت في مدينتي تولا وتيوتيواكان ، حضارة سميت فيما بعد باسم « تولتيكية » وهي تسمية لا تعوزها الدقة • وهذه الفرضية تجد ما يبررها في تأثير حضارات ميسو أميركا في الجنوب وبخاصة في المنطقة الواقعة تحت هيمنة ما يسمـى

---

(1) السلوقيون : احدى السلالات التي حكمت في بلاد سوريا واسيا الصغرى منذ عام ٣١٢ ق.م حتـى عـام ٦٤ ق.م . اسسها سلوقـوس الاول وعاصمتها سلوقية . المترجمة

(2) البطالسة : نسبة الى بطليموس . سلالة حكمت في مصر بعد وفاة الاسكندر الاكبر ودام حكمها عدة قرون قبل الميلاد . وهم (١٦) ملكا .
(المترجمة)

(3) المقدونيون : نسبة الى مقدونيا التي استطاعت في ايام الاسكندر المقدوني اخضاع اليونان لسيطرتها . المترجمة

بامبراطورية المايا الثانية[٤] . ومما يلاحظ ايضا غياب تأثير حضارة المايا في مدينــة تيوتيواكان . وخلافـا لذلك كانت « تشيتشين ــ اتزا » مدينــة « تولتيكية » لذا يبدو أن كل شيء يشير الى ان الاشكال الحضارية في وسط المكسيك انتهت في لحظة ما الى بسط نفوذها وهيمنتها .

ومن وجهة نظر عامة جدا وصفت ميســو أميركـا بأنهــا المنطقــة التأريخية الموحدة والمحددة بوجود قواسم مشتركة ثابتة تجمــع بين كـل الحضارات : زراعة الذرة ، التقويم الطقسي ، لعبة الكرة ، القرابين البشرية ، الاساطير الشمسية والتشابه في اصناف النباتات والاشجار ... الخ ، ويقال ان هذه العناصر جميعا من أصل جنوبي وقد انتقلت اليهم غير مرة بسبب الهجرة الى الشمال . وهكذا أمست الحضارة الميسو أميركية ثمرة لما جاد به الجنوب من ابداعات منوعة ، اذ طورت الاقوام الرحل تلـك الابداعـات وجمعتها ونظمتها . وقد يغفل هذا الطرح الاجمالي أصالة كل واحدة مــن تلك الحضارات المحلية ، فنجد ، على سبيل المثال ، ان التماثل ، الواضـح في المفاهيم الدينية والسياسية والاسطورية لدى الشعوب الهندوأوربية لا يلغي أصالة اي منها . وعلى أية حال ، وبعيدا عــن أصالة كل واحدة مــن الحضارات ، يبدو بديهيا ان امبراطوريــة الازتيك كانت وريثــة حضارات النهضة ، وأنها أوشكت ان تبتلــع كـل الحضـارات التي مــرت بمرحلــة التداعي أو الافول .

كانت تلك المجتمعات مفعمة بالدين . وكان المجتمع الأزتيكي نفسه دولة ثيوقراطية وعسكرية ، اذ نجد التوحيد الديني يسبق التوحيد السياسي ويكمله

(٤) المايا : من الشعوب العريقة التي استقرت بأميركا الوسطى وأرست دعائم حضارة متطورة ونظم دقيقة في الزراعة والعمارة والتقاويم والمعابـد . حكمت الامبراطورية القديمة أو الاولى منها منـذ عام ٣١٧ حتـى عام ٩٨٧م ، اما الامبراطورية الحديثة أو الثانية فقد استمر حكمها من عام ٩٨٧ حتى عام ١٦٩٧ . (المترجمة)

ويستجيب له على هذا النحو أو غيره • وكانت كل مدينة من مدن عصر ما قبل كورتيس تعبد الهة يبدو الشبه بينهم كبيرا تحت سماوات مختلفة ، وبلغات متباينة ولكن الاحتفالات والطقوس والمضامين كانت غاية في التشابه ، فثمة الهة الزراعة ، والهة الارض ، والهة الخضرة والخصب من مثل تلالوك[5] • والالهة الشماليون والسماويون والمحاربون والصيادون من امثال تيزكاتليبوكا[6] واويتزيلوبوتشلي وميكسو كواتل[7] ، باتوا جميعا يتعايشون في طقوس واحدة • ولعل اكثر ما تؤاخذ عليه الديانة الازتيكية ساعة الغزو هو ذلك التأمل اللاهوتي الدائم دونما انقطاع الذي كان يعيد صهر المعتقدات المشتتة ويوحدها وينظمها ، سواء تلك التي تمت اليهم بصلة أم التي تمت الى غيرهم • ولم يكن هذا الطرح وليد حركة دينية شعبية مثل الديانات البروليتارية التي كانت تنتشر في العالم عند بدء المسيحية ، بل هو طرح لطائفة تحتل قمة الهرم الاجتماعي • فالتنظيمات واساليب النسخ والاصلاحات التي لجأت اليها طبقة الرهبان تبين لنا ان تلك الحضارات عمدت الى اسلوب التركيب ، وهذا كان صفة سائدة في المدن قبل وصول الاسبان ، اذ كان التوحيد الديني يمارس تأثيره في سطح الوعي حسب ويترك المعتقدات البدائية سليمة دون مساس شأنه شأن الهرم الازتيكي الذي كان يحجب احيانا بناء أقدم منه • لقد رسم هذا الوضع صورة سالفة للوضع الذي ستأتي به الكاثوليكية التي هي ايضا ديانة مركبة على خلفية دينية أصيلة ونابضة ابدا • اذن ، كان كل شيء يمهد لبسط الهيمنة الاسبانية •

---

(٥) تلالوك : الاهة الماء عند قدامى المكسيكيين • (المترجمة)

(٦) تيزكاتليبوكا : الاله المحارب ومكتشف النار عند الازتيك • (المترجمة)

(٧) ميكسوكواتل : مؤسس السلالة التولتيكية الاولى وواحد من كبار الالهة في المكسيك • (المترجمة)

سيغدو غزو المكسيك امرا لا تفسير له دون معرفة هـذه الاوليات . فوصول الاسبان كان يبدو عتقا للشعوب التي ترزح تحت نير الهيمنة الازتيكية ، لذا راحت الدول ـ المدن المتعددة تتحالف مع الغزاة ، او انها كانت تترقب سقوط أي من خصومها ، بلامبالاة ان لم يكن بشماتة ، ولاسيما خصومها الاكثر نفوذا تينوتشتتلان[8] ، الا ان عبقرية كورتيس السياسية ، او التفوق العلمي الذي كان غائبا في الاحداث المسلحة الحاسمة كما حدث في معركة اوتومبا[9] ، او غدر الرعايا والحلفاء .. كل هذا لم يكن ليقوض صرح الامبراطورية لولا الوهن والشكوك الداخلية التي دبت مبكرا في جسدها مما حداهـا علـى التزعزع والاستسلام . وعندما فتـح موكتيثوما[10] ابواب تينوتشتتلان للاسبان واستقبل كورتيس بالهدايا ، خسر الازتيك يومئـذ اللعبة ، واضحى قتالهم الاخير انتحارا . هذا ما نفهمه من كل ما توفر لدينا من نصوص توثق هذا الحدث الجلل والقاتم .

اذن ، لم استسلم موكتيثوما ؟ ولم شعر انه كان مأخوذا على نحـو غريب بالاسبان وأن دوامة قد لفته أمامهم ، لن نغالي اذا ما دعوناها قدسية ، تلك الدوامة المتلألئة التي يحياها المنتحر امام الهوة ؟. لقـد خذله الالهه . وهذه الخيانة الكبـرى التي يبدأ بها تأريـخ المكسيـك ليست هي خيانة تلاكسكاليتكاس[11] ولا خيانة موكتيثوما ورهطه بل هي خيانة الالهه . ولم

---

(٨) تينوتشتتلان : من المدن الازتيكية المهمة . أسسها القس تينوتش في القرن الرابع عشر وتعني بلغتهم (أرض الصبار) .
(المترجمة)

(٩) اوتومبا : من المدن المكسيكية . دارت فيها المعركة التي هزم فيها كورتيس الازتيك شر هزيمة .
(المترجمة)

(١٠) موكتيثوما : اخر أباطرة الازتيك (١٤٦٦ – ١٥٢٠) اشتهر بحملاتـه العسكرية . كانت نهاية حكمه على ايدي الغزاة الاسبان الذين اسروه . ثار عليه رعاياه ومات متأثرا بجراحه .
(المترجمة)

(١١) تلاكسكالتياس : هم سكان مدينة تلاكسكالا ، وهـي من مدن المكسيك القديمة قبل الغزو الاسباني .
(المترجمة)

يحدث أن أحس شعب آخر بأنه دونما أي حماية مثلما أحست به أمة الازتيك أمام النذر والنبوءات والدلائل التـي راحت تنذر بسقوطها • ولا أخالنـا نجازف ان قلنا ان الهنود لم يفهموا المغزى الذي كانت تنطوي عليه تلـك الدلائل والنبوءات اذا ما اغفلنا مفهومهم في الزمن الدوري • فالزمن بالنسبة الى الازتيك ، كما هو شأن شعوب وحضارات كثيرة اخرى ، لم يكن قياسا مجردا ومفرغا من المضمون ، بل هو شيء محدد او سلطة او مادة او سائل وهو قابل للنفاد والاستهلاك • ومن هنـا تأتي اهمية الطقـوس والقرابين المكرسة في جعل السنة او القرن يحتفظان بسريانهما • وفضلا عن ان الزمن ، او الازمنة بعبارة ادق كانت تعد شيئا حيا يولد وينمو ويتدهور ويبعث مـن جديد ، فهي أيضا تعاقب يعود ابدا ، زمن ينفد وآخر يعود • ولـم يفسـر موكتيثوما في البدء في الاقل قدوم الاسبان بأنه خطر (خارجي) بل نهايـة داخلية لعهد كوني وبداية آخر • لقد رحل الالهة لان ساعتهم قد أزفت ولكن سيعود زمن آخر وبمعيته الهة اخرى وعهد آخر •

ويغدو هجر الالهة هذا أكثر ايلاما اذا فكرنا في الدولة الفتية الحديثة العهد وقوتها ، اذ كانت كل الامبراطوريات القديمة مـن مثل روما تشعـر باغواء الموت في ختام تأريخها وكان العامة يتصرفون بلا اكتراث عندما تأزف على نحو متأخر دوما ، الساعة التي يسدد فيها الغريب ضربته القاصمة • فثمة تعب امبراطوري والعبودية تمسي عبئا خفيفا على من أبهظته وطأة السلطة • لقد أحس الازتيك بقشعريرة الموت في عنفوان شبابهم ، عندما كانوا ماضين صوب الموت • خلاصة القول ، ان غزو المكسيك حدث تأريخي تداخلت فيه ظروف شتى ومتباينة غاية التباين ، الا اننا نسقط دوما الظرف الاهم منهـا جميعا الا وهو : انتحار الشعب الازتيكي • ولنتذكر ان الاغواء الذي يراودنا ازاء الموت ليس هو دليل نضج او شيخوخة قدرما هو دليل شباب • ومنتصف النهار ومنتصف الليل هما ساعتا انتحار طقسي ، فعنـد منتصف النهار يتوقف كل شيء ويهتز ، الحياة او الشمس على حد سواء تتساءلان : هل المضـي

قدما امر يستحق العناء • وفي لحظة السكون تلك ، التي هي دوامة ايضا ، يرفع الشعب الازتيكي وجهه نحو السماء في منتصف طريق سعيه المحموم : فاذا ببروجها تقف في وجهه ، ساعتئذ حسب يراوده شعور بان الموت يغويه .

فكرت في حافة العالم الذهبية ،

في مذاق الهلاك الذي يودي بالعرافة بيتونيس

في خوار الامل منبئا بنهاية العالم •

ثم تخور قوى جزء من الشعب الازتيكي ويخرج باحثا عن الغازي • واما الجزء الاخر فيؤثر الموت بعدما يفقد الامل بالنجاة وقد شهد غدر الجميع • وحيال الوجود الوحيد للاسبان ينشق المجتمع الازتيكي على نفسه وهو الانشقاق الذي عزي الى ازدواجية الهته ونظامه الديني وطبقاته العليا •

كانت الديانة الازتيكية كسائر ديانات الشعوب الغازية ، ديانة شمسية. ففي الشمس ، هذا الاله ، واهب الحياة ، الاله الطائر الذي يمخر برحيله عباب الضباب ويستقر بكبد السماء كجيش ظافر في ساحة الوغى تتجسد على نحو مكثف كل تطلعات الازتيكي وخطط شعبه الحربية • فالآلهة ليسوا تجسيدات بحتة للطبيعة بل هم أيضا يمثلون رغبات المجتمع وارادته ، المجتمع الذي يعثر على الوهيته الذاتية فيها • كان اوتيزيلو بوتشلي محارب الجنوب، هو اله الحرب والتضحية القبلي الذي يدشن مسيرته بمجزرة • اما كيتزالكواتل ــ نانواتزن فهو الاله ــ الشمس ، اله رجال الدين الذي يرون فيه رمز الفداء بالنفس طواعية وهو التعبير الاسمى عن نظريتهم في العالم وفي الحياة : فكيتز الكواتل هو الملك ــ رجل الدين الممجد في الطقوس ، وفي القضاء والقدر ، الذي لايقاتل والذي يهب للموت نفسه كي يبعث ثانية • اما اوتيزيلو بوتشلي فهو على النقيض منه ، انه الشمس ــ بطل المحاربين الذي يذود عن نفسه ويقاتل وينتصر • انه الشمس المظفرة التي تصرع اعداءها

بلظى تشيوكواتل الهة النار المستعرة . وهكذا كانت كل واحدة من هـذه الشخصيات الالهية تستجيب لمفاهيم كل فئة من الفئات الرئيسة في الطبقـة الحاكمة .

كما تستجيب ازدواجية الديانة الازتيكية التي هي انعكاس لانقسامها الثيوقراطي ــ العسكري ونظامها الاجتماعي للسورات المتناقضة التي تسكن في قرارة نفس كل كائن وكل جماعة بشرية ، فغريزة الموت وغريزة الحيـاة تصطرعان في دخيلة كل منا وأنشطة الطبقات والطوائف والافراد مترعة بهذه النزعات الدفينة التي تتجلى عارية من كل شيء في اللحظات الحرجة . ان غلبة غريزة الموت ماهي الا دليل على ان الشعب الازتيكي قد اضاع مبكرا وعيه مصيره . فقد قاتل كواوتيموك وهو على بينة من الهزيمة ، وفي قبوله الخسارة قبولا باسلا وحميما تكمن صفة معركته المأساوية . ولكن يبدو ان مأساة هذا الوعي الذي يشهد تهافت كل ما يحف به ولاسيما الهته وخالقـي عظمة شعبه هي التي ستصبح فاتحة تأريخنا بأسره . فكواوتيموك وشعبـه يلقون حتفهم وحيدين وقد خذلهم الاصدقاء والحلفـاء والشيوخ والالهة ، لذلك يموتون ايتاما .

لقد أدى سقوط المجتمع الازتيكي الى انهيار بقية العالم الهندي حيث أضحت الامم جميعا التي كانت تشكل ذلك العالم فريسة الهلع الـذي غالبا ما يعبر عن ذاته بحالة تقبل للموت حد الافتتان به . وقلما تتوفر وثائق عن الاهمية التي أتسمت بها الشواهد التي بقيت لنا عن تلك الكارثة التي أغرقت الكثير من البشر في حزن هائل . وفيما يأتي نص شهادة المايا بحسب ما وردت في كتاب تشيلام بالام[١٢] . « في الثاني من آهان كاتون[١٣] وطىء الاجانب

---

(١٢) تشيلام بالام : كتاب تأريخي مجهول المؤلف وضع بعد غزو الاسبان وقد كتب بلغة المايا . (المترجمة)

(١٣) اهان كاتون : استنادا الى كتب التاريخ فان الاسبان وصلوا الى المكسيك في الثاني من تشرين الثاني . (المترجمة)

أرضنا ، بلحاهم الشقر ، أبناء الشمس ، الرجال ذوو السحـــن البيض . آه فليلفنا الاسى بلجته ، اذا هم قدموا فستهبط عصا الابيض ، من السمـاء ستأتي ، من كل الجهات ستأتي وحزينة ستمسي كلمة أوتاب ـ كو ، الاهتنا الوحيدة ، حينما تعم أرجاء الارض كلمة رب السماوات .. » وفي فقرة لاحقة يقول : « ستكون فاتحة الاعدامات عندما يندلع الشعاع في اطراف الأذرع البيض (الاسلحة النارية) » ... « عندما ستحل على الاشقاء حمأة المعركة ، عندما تكتب عليهم أتاوة الدخول العظيم في المسيحية ، عندما يترسخ مبـدأ اسرار الكنيسة السبعة .. عندما يبدأ الكد الشاق في القرى ويخيم البؤس على الارض » .

اما من الزاوية التي تقدمها لنا الشهادات التي خلفها الاسبان ، فان هوية الغزو تبدو معقدة على حد سواء وكل ما فيها يتعارض وهذه الصورة . ولما كان الفتح مشروعا خاصا ومأثرة قومية فان كورتيس والسيد(١٤) كانا يحاربان لحسابهما وعلى مسؤوليتهما وضد ارادة أسيادهما ، الا أنهما كانا يحاربان باسم الملك وبامكانياته . انهما اقطاعيان متمردان وصليبيان . وكانت هناك أيضا افكار متضاربة تتصارع في ضميريهما وفي ضمائر جيوشهما هي المصالح الملكية والمصالح الفردية التي آمنا بها وراحا يذودان عنها بطرا . وكان كل غاز وكل رسول وكل بيروقراطي يعد ساحة معركة بعينه . ولو أخذنا كلا منهما على انفراد لوجدناه يمثل السلطات الكبرى المطلقة التي تتنازع ادارة المجتمع وهي الاقطاع والكنيسة والملكية المطلقة ، وفي داخل هذه السلطات

---

(١٤) السيد الكامبيادور او القنبيطور (١٠٤٣ ـ ١٠٩٩) : شخصية شبه اسطورية في تأريخ اسبانيا وادبها . حارب في صف المسلمين تارة وفي صف المسيحيين أخرى . نظمت فيه الاشعار ووضعت فيه مؤلفات عدة أشهرها « ملحمة السيد » التي تعد أقدم اثر ملحمي في الادب الاسباني .

(المترجمة)

ثمة اخرى تتصارع ايضا . وهي السلطات نفسها التي تميز اسبانيا من بقية اوربا وتجعل منها أمة لا مركزية بالمعنى الحرفي للكلمة .

ان اسبانيا هي الذائدة عن الايمان وجندها هم محاربو المسيح . الا ان هذا الظرف ماكان ليعيق الامبراطور[15] ولا خلفاءه عن اثارة نقاشات جدلية حامية مع مقر البابوية لم يحسمها مجلس الترنتو[16] حسما تاما . فاسبانيا مازالت أمة قروسطية ، وهذا أيضا شأن مؤسساتها في المستعمرة (المكسيك) وشأن الرجال القيمين على شؤون تلك المؤسسات . وفي الوقت نفسه فان اكتشاف اميركا وغزوها يعدان مشروعا نهضويا ، وبذلك ايضا أسهمت اسبانيا في عصر النهضة ، مالم يعتقد بعضهم ان مآثرها في ما وراء البحار التي هي ثمرة العلم والتقنية بل الاحلام واليوتيوبيات النهضوية لم تكن لتشكل جزءا من تلك الحركة التأريخية .

ومن ناحية اخرى فان الغزاة ليسوا سوى تكرار لصورة المحارب القروسطي الذي يقاتل المورو[17] وغير المؤمنين . كان هؤلاء مغامرين بكل ما تعنيه الكلمة أي أناسا يتوغلون في الامكنة المنفتحة ويخاطرون في المجهول . وهذا أيضا عد واحدا من ملامح عصر النهضة . اما الفارس القروسطي فهو ، خلافا لهم ، كان يحيا في عالم مغلق ، ومشروعه الاكبر هو الحملات الصليبية ، الحدث التأريخي ذو الطابع المغاير تماما لغزو أميركا ، اذ ان الحملات

---

(15) الامبراطور هوكارلوس الخامس او شارلكان (١٥٠٠ ـ ١٥٥٨) امبراطور المانيا وملك اسبانيا . بسط نفوذه على اسبانيا ومستعمراتها والنمسا . حارب الاتراك ومات متنسكا . (المترجمة)

(16) مجلس الترنتو : هو المجلس الذي عقد في ايطاليا بين عامي ١٥٤٥ و ١٥٦٣ وتولى عملية الاصلاح الديني فيما بعد . (المترجمة)

(17) المورو : صفة يطلقها الاسبان على المسلمين والعرب الوافدين من شمالي افريقيا . (المترجمة)

الصليبية كانت عملية انقاذ[18] ، في حين ان غزو اميركا هو عملية اكتشاف وتأسيس .. وخاتمة القول ، ان الكثير من الغزاة من امثال كورتيس وخيمنيث دي كيسادا[19] باتوا رموزا عصية على الفهم في العصور الوسطى. فذائقتهم الادبية وواقعيتهم السياسية ووعيهم ومنجزهم و « اسلوبهم في الحياة » كما اسماه اورتيغا أي غاسيت كلها كانت ذات علاقة واهية بالحس القروسطي .

ولئن انغلقت اسبانيا على نفسها في مواجهة الغرب وعزفت عن المستقبل ساعة الاصلاح المضاد ، فانها لم تفعل ذلك قبل ان تتبنى وتستوعب صيغ عصر النهضة الفنية جميعها تقريبا : أي الشعر ، الرسم ، الرواية والعمارة . وانتقلت تلك الصيغ ، اضافة الى الفلسفات والسياسات الاخرى ، الممتزجة بالتقاليد والمؤسسات الاسبانية ذات المضامين القروسطية ، بمجملها الى قارتنا. ومن الاهمية بمكان أن يصبح الجزء الاكثر حيوية من الموروث الاسباني في أميركا مكونا من هذه العناصر العالمية التي تمثلها اسبانيا في مرحلة من تأريخها كانت هي الاخرى عالمية . كما عد غياب الاصالة ، التقليدية ، الروح الاسبانية ، بالمعنى القروسطي الذي اضفي على هذه الكلمة (أي قشرة قشتالة وظاهرها) ملمحا دائما للحضارة الاسبانية الاميركية المنفتحة دوما على الخارج والراغبة في بلوغ الصفة العالمية . ولم يكن أيا من خوان رويث دي الاركون او الاخت خوانا[20] وداريو وبيلو[21] رمزا تقليديا

(18) المعروف تأريخيا وبشهادة عدد من مؤرخي الحروب الصليبية الغربيين انها كانت حملات غزو للاستئثار بثروات الشرق وليس عملية انقاذ كما يرى المؤلف .
(المترجمة)

(19) خيمنيث كيسادا : من مشاهير الغزاة الاسبان (١٥٠٠؟ ـ ١٥٧٩) كان رجل قانون وكاتبا . من اعماله « علاقة الغزو » . (المترجمة)

(20) الاخت خوانا اينيس دي لاكروث : (١٦٥١ ـ ١٦٩٥) شاعرة وكاتبة مكسيكية لقبت بـ (الحورية العاشرة) او (عنقاء المكسيك) لها مؤلفات

أصيلا . فالتقاليد الاسبانية التي ورثناها نحن الاسبان الاميركيين هي تلك التقاليد التي كانت موضع ريبة واحتقار في داخل اسبانيا : تقاليد الهراطقة المارقين المنفتحين على ايطاليا وفرنسا . وثقافتنا بوصفها جزءا من الثقافة الاسبانية هي اختيار حر لعدد من الرموز البشرية .. وتبعا لما دونه خورخه كويستا(٢٢) ، فهي تعرف بأنها حرية حيال ما امتازت به شعوبنا من تقليدية سلبية . وهي صورة مركبة ، واحيانا لامبالية للواقع الذي تنهض فوقه .. وفي هذا سر عظمتها ، واحيانا خواؤها او عجزها . وربما كان ثراء شعرنا الغنائي الذي عد في الاصل حوارا بين الشاعر والعالم ، والفقر النسبي الذي تتسم به الاساليب الحماسية والمسرحية يكمنان في هذه السمة الغريبة عنا التي لاتمت الينا بصلة ، هذه السمة التي تنبع من الواقع وتسم تقاليدنا كلها .

ان ما نلاحظه من تباين في عناصر الغزو ونزعاته لا يعكر صفو وحدته التأريخية لانها جميعا تعكس طبيعة الدولة الاسبانية التي كان الملمح الابرز فيه هو كونها تأسيس مصطنع ، وبناء سياسي في أضيق معنى لهذه الكلمة . لقد ولدت الملكية الاسبانية من صلب العنف : العنف الذي فرضه الملكان الكاثوليكيان(٢٣) ومن خلفهما على مختلف الشعوب الخاضعة لهيمنتهما

كثيرة في الشعر والمسرح والفلسفة والقصة . امتازت برشاقة الاسلوب وبصدق العبارة . من اهم اعمالها « حلم اول » و « نرسيسوس الالهي » وغيرهما . (المترجمة)

(٢١) اندريس بيليو (١٧٨١ ــ ١٨٦٥) كاتب وشاعر وسياسي أميركي . عمل مستشارا لسيمون بوليفار ورئيسا لجامعة شيلي . من أبرز مؤلفاته « صلاة من اجل الجميع » و « مبادىء القانون الدولي » .. (المترجمة)

(٢٢) خورخة كويستا (١٩٠٣ ــ ١٩٤٢) شاعر مكسيكي . (المترجمة)

(٢٣) الملكان الكاثوليكيان : هما فرناندو وايزابيل اللذان أنهيا الحكم العربي في اسبانيا في ١٤٩٢ . (المترجمة)

كانت الوحدة الاسبانية وماتزال ثمرة لارادة الدولة السياسية التي كانت بعيدة كل البعد عن ارادة العناصر التي تكونها جميعا (وقد عاشت الكاثوليكية الاسبانية دوما تفويضا لهذه الارادة • وربما لهذا السبب كانت تعزى خبرتها الحربية ـ الاستبدادية والتفتيشية) •• فالسرعة التي راحت تنظم وتحتوي بها الدولة الاسبانية الغزوات التي يشنها الخاصة تبين لنا ان الارادة نفسها يرافقها اسلوب محكم يفتقر الى المرونة هي التي كانت تشجع كل المشاريع الاوربية او مشاريع ماوراء البحار • ففي وقت قصير بلغت المستعمرات درجة من الكمال والتعقيد تتناقض والتطور البطيء الذي أمتازت به المستعمرات التي أقامتها بلدان اخرى • ومما لاريب فيه ان الوجود السابق لمجتمعات مستقرة وناضجة قد مهد السبيل لمهمة الاسبان • ولكن تبقى الرغبة الاسبانية الاميركية في ارساء دعائم عالم على شاكلتها أمرا بديهيا •• ففي عام ١٦٠٤ ، وبعد انقضاء اقل من قرن على سقوط تينو تشتتلان ، قدم بالبوينا[٢٤] للعالم شاهده على العظمة المكسيكية • خلاصة القول أننا سواء تأملنا الغزو من وجهة نظر السكان الاصليين أم الاسبان ، فان هذا الحدث كان تعبيرا عن ارادة وحدوية • وعلى الرغم من كل تلك التناقضات التي ينطوي عليها الغزو فانه يظل حدثا تأريخيا مكرسا في خلق وحدة من تلك التعددية الحضارية والسياسية التي سادت في مرحلة ما قبل كورتيس • وازاء تنوع الاجناس واللغات والنزعات والدول في عصر ما قبل الاسبان ، اتخذ الاسبان لانفسهم لغة واحدة حسب ، ودينا واحدا والها واحدا لاغير • ولئن ولدت المكسيك في القرن السادس عشر ، فحري بنا ان تتفق على انها وليد لما تمخض عنه العنف الامبراطوري والتوحيدي المزدوج : اي عنف الازتيك وعنف الاسبان•

---

(٢٤) برناردو دي بالبوينا : (١٥٨٨ ـ ١٦٢٧) قس وشاعر اسباني من شعراء الحماسة كان مطرانا في بويرتوريكو ••• يعد برناردو او « انتصار رونشسبايسن » ابرز اعماله اذ يتغنى فيه بامجاد بطل الفتوحات برناردو ديل كاربو • (المترجمة)

ان الامبراطورية التي أقامها كورتيس على أنقاض حضارات السكان الاصليين القديمة كانت نظاما خاضعا للشمس الاسبانية وتابعا لها ، وبذلك اصبح مصير الهنود كمصير الكثير من الشعوب التي تشهد حضارتها القومية ممتهنة دون ان يتمكن النظام الجديد ـ وهو هيمنة استبدادية محض ـ من ان يفتح ابوابه لمشاركة الذين يرزحون تحت نير هيمنته • بيد ان الدولة التي اقامها الاسبان اصبحت نظاما مفتوحا • لذا فان هذا الظرف وصيغ المشاركة التي سيعقدها المهزومون في النشاط المركزي في المجتمع الجديد : اي الدين ، ستغدو كلها جديرة بدراسة متأنية • فتأريخ المكسيك بل تأريخ كل مكسيكي منتزع من صلب هذا الواقع على وجه التحديد ، لذلك باتت دراسة النظام الاستعماري امرا لامناص منه ، وتحديد الملاحظات الاكثر اهمية في التدين الاستعماري ، سواء في الصيغ الشعبية التي تجسده ام في الرموز الاكثر جدارة على تمثيل ذلك التدين ، سيكشف لنا عن مغزى حضارتنا وجذور الكثير من صراعاتنا اللاحقة •

لقد أدت العجالة التي لجأت اليها الدولة الاسبانية في تصفية مطامح المشرفين على الاهالي في المستعمرات وولاءات مستشاريها الحربيين المشكوك فيها والخصومات الاخرى بمختلف انواعها الى اعادة تأسيس الممتلكات على غرار المتروبولي وطرازها • وكانت تلك السرعة مذهلة مثلها مثل صلابة البيئة الاجتماعية التي انشأتها • فقد كان المجتمع الاستعماري نظاما أرسيت دعائمه لكي يبقى ابدا ، أعني انه مجتمع محكوم بمبادىء قانونية واقتصادية ودينية يرتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقا وكانت تؤسس علاقة حية ومتناغمة بين الاجزاء والكل • عالم مكتف بذاته ، منغلق على الخارج ومنفتح على ماوراء العالم السفلي •

يسهل علينا ان نسخر من زعم ماوراء العالم السفلي في مجتمع استعماري، والأسهل هو أنكاره صيغة جوفاء مكرسة للتستر على انتهاكات الغزاة او

تبريرها امام انفسهم وامام ضحاياهم • لاشك في ان هذا التطلع الى ما وراء العالم السفلي لم يكن محض اضافة ما ، بل هو ايمان حي يسند ، كما تسند الجذور الشجرة ، على نحو قدري وضروري ، صيغا حضارية واقتصادية اخرى • لقد صارت الكاثوليكية مركزا للمجتمع الاستعماري لانها كانت حقا ينبوع الحياة الذي تنهل منه أنشطة الاسياد والعبيد والموظفين ورجال الدين والتجار والعسكريين وكذلك عواطفهم وفضائلهم وحتى خطاياهم على حدسواء• اما النظام الاستعماري فهو بفضل الدين لم يكن محض تركيب صيغ تأريخية جديدة فوق اخرى ، بل كان نظاما ينبض بالحياة في الوقت الذي راحت فيه الكاثوليكية تفتح ابواب المجتمعات بمفتاح التعميد وتحيلها نظاما كونيا منفتحا لكل السكان • وعندما أتحدث عن الكنيسة الكاثوليكية فلا أعني المنجز الرسولي الذي قام به المبشرون حسب بل أعني كيانها كاملا ، اي قديسيها ورهبان اديرتها الجشعين ورجال كنائسها المتحذلقين والقيمين على شؤون قضائها الذين تسيرهم امزجتهم واعمالها الخيرية وكنز الثروات •

صحيح ان الاسبان لم يعمدوا الى ابادة الهنود بسبب حاجتهم الى الايدي العاملة من السكان الاصليين في شؤون الزراعة في الاقطاعيات الشاسعة وفي العمل في المناجم ، لان الهنود كانوا ممتلكات لم يحبذوا هدرها ، الا انه من الصعب ان تتصور ان هناك اعتبارات اخرى ذات طبيعة انسانية يمكن أن تدخل في هذه المسألة ، اذ ان فرضية مشابهة ستثير الضحك في كل من يطلع على سلوك المشرفين على شؤون الاهالي في المستعمرات حيال السكان الاصليين • وربما كان مصير الهنود سيختلف تماما في غياب الكنيسة• ولست أفكر هنا في ما بذلوا من جهد جهيد لتحسين ظروفهم المعاشية وتنظيم حياتهم على نحو اكثر عدلا وعلى وفق اسلوب مسيحي حسب ، بل في امكانية ان التعميد بما ينطوي عليه من قدسية كان سيمنحهم فرصة المشاركة في ان يكونوا جزءا من النظام ومن الكنيسة • وهكذا تمكن الهنود من ان يجدوا

لهم مكانا في العالم بفضل الايمان الكاثوليكي عقب حالة اليتم التي ألفوا انفسهم فيها بعد أن قطعوا كل وشيجة لهم بحضاراتهم القديمة وممات الهتهم وزوال مدنهم • ولقد حرم السكان الاصليون من امكانية الانضواء تحت لواء النظام الحي هذا ، حتى لو كان ذلك في قاعدة الهرم الاجتماعي على نحو لايعرف الرحمة بسبب من تزمت البروتستانت في انجلترا الجديدة ، اذ غالبا ما كان يغفل ان اعتناق الكاثوليكية كان يعني حينئذ العثور على مأوى ما في العالم • ووجد السكان الاصليون انفسهم في وحدة مطلقة اقتادهم اليها فرار الهتهم وموت زعمائهم ، وحدة يصعب على الانسان المعاصر ان يتخيلها • وهكذا حملتهم الكاثوليكية على استئناف علائقهم بالعالم وبما وراء العالم ، واعادت اليهم معنى وجودهم في الارض وغذت امالهم ومنحت حياتهم ومماتهم مسوغا •

سيعدو امرا غير ذي بال ان نضيف أن ديانة الهنود ، كما هو شأن كل الشعب المكسيكي تقريبا • كانت مزيجا من المعتقدات القديمة وأنها ما كانت لتتخذ لها صيغة اخرى لان الكاثوليكية كانت ديانة مفروضة ، وهذا الظرف الذي كان ، من زاوية اخرى ، على قدر بالغ من الاهمية يفتقر الى الاهمية المباشرة بالنسبة الى المؤمنين الجدد • اما الامر الجوهري فهو ان علاقتهم الاجتماعية والانسانية والدينية بالعالم المحيط بهم وبالمقدسات كانت قد أستؤنفت وان وجودهم الخاص قد بدأ يتداخل في نظام اوسع من ذلك • كما انهم اخذوا يسمون المبشرين « تاتاس » اي الاب او الاخ الصغير وعذراء غوادالوبه « الام » ولم يكن ذلك من قبيل العبادة أو العبودية •

وهنا سنجد ان الاختلاف بين هذه المستعمرات والمستعمرات السكسونية هو اختلاف جذري • فأسبانيا الجديدة شهدت فترات رعب كثيرة ، الا أنها في الاقل كانت تجهل أشدها فظاعة وهي ان ينكر عليها مكان

ما ، وان كان في اخر السلم الاجتماعي اي ان ينكر ذلك الحق على الناس الذين خلقوها . لقد كانت هناك طبقات وطوائف وعبيد ولكن لم يكن من بينهم منبوذون ، أو أناس بلا وضع اجتماعي معين أو قانوني او معنوي او ديني . ومن ناحية اخرى فان الاختلاف بينها وبين عالم المجتمعات التوتاليتارية المعاصرة حاسم ايضا . ان اسبانيا الجديدة في نهاية الامر هي حقا مجتمع تابع لم يبدع فنا ولا فكرا ولا أساطير او اساليب حياة اصيلة (فالابداعات الاصيلة الحقة الوحيدة في القارة الاميركية — ومن الطبيعي الا استثني الولايات المتحدة — هي تلك التي سبقت عصر كولومبس) . وصحيح أيضا ان التفوق التقني في العالم الاستعماري وادخال صيغ حضارية اكثر غنى وتعقيدا من الصيغ الميسو اميركية ليسا بكافيين لتبرير وجود عصر ما . الا ان اقامة نظام كوني في هذه المستعمرة تبقى انجازا استثنائيا قد يبرر هذا المجتمع ويعتقه من أساره . وما الشعر العظيم في المستعمرة ، والفن الباروكي وقوانين جزر الهند ، والاخباريون والمؤرخون والعلماء واخيرا العمارة الاسبانية الجديدة التي يتسق فيها كل شيء مما يجود به الخيال من فنطازيا ومن هذيانات دنيوية في ظل نظام دقيق وواسع على حد سواء الا انعكاسات لمجتمع متوازن عثر فيه البشر والاجناس جميعا على مأوى وتبرير ومغزى . لقد كان المجتمع محكوما بنظام مسيحي لا يختلف عن اي نظام يثير اعجابنا في المعابد او في القصائد .

لست أزمع تبرير المجتمع الاستعماري ، بل ان ما أود الذهاب اليه هو : اذا كان ثمة وجود لهذه الصيغة من القمع او غيرها فلن يكون هناك من تبرير لوجود اي مجتمع . كما أنني أسعى الى فهم ذلك المجتمع بوصفه كلا حيا ومتناقضا للسبب نفسه ، وأرفض ان أرى في تضحيات الازتيك البشرية تعبيرا خلوا من القسوة وغير ذي علاقة بباقي هذه الحضارة : فانتزاع القلوب وصروح الأهرام والنحت وطقوس أكلة لحوم البشر والشعر و

« الحرب المزدهرة » والثيوقراطية والاساطير الكبرى كلها تشكل كلا لا يتجزأ • وانكار هذا بمجمله سيغدو عملا على قدر من الصبيانية ، مثله مثل انكار الفن الغوطي والشعر البروفنسالي بذريعة وضع العبيد في القرون الوسطى او هو أشبه بأنكار اسخيلوس بسبب وجود العبيد في أثينا • ان للتاريخ ذات الحقيقة البشعة التي يتصف بها كابوس ما ، وعظمة الانسان تنبع من صنع أعمال فذة وخالدة من الجوهر الحق لذلك الكابوس او بعبارة اخرى : تجسيد ذلك الكابوس في رؤية ما ، او في عتقنا ، ولو لحظة واحدة ، عن طريق الابداع من ذلك الواقع المشوه •

لقد ظلت اسبانيا قرونا عدة تتمثل الافكار التي منحتها كينونتها وتطورها • فالنشاط الفكري لم يكف عن الابداع ، ولكن ذلك النشاط كان ينحصر في مجال الفن ضمن الحدود المعروفة ، اما النقد الذي اصبح في تلك القرون وفي ازمنة اخرى الصيغة الابداعية الارفع منزلة فنادرا ما كان له وجود في ذلك العالم المغلق الذي بلغ حد الاكتفاء • نعم لقد كان هنالك الهجاء والصراع اللاهوتي ونشاط دؤوب من أجل اعلاء ذلك الصرح الذي يؤوي شعوبا عدة ومتنوعة وترسيخه واتمامه • غير ان المبادىء التي حكمت ذلك المجتمع كانت مبادىء لا تعرف التغيير ولا يتصدى لها أحد • كما ان اسبانيا توقفت عن الابداع وعن الاكتشاف واكتفت بالتوسع وبالدفاع عن نفسها واعادة خلقها لانها لم تكن تسعى الى التغير بل الى البقاء • واما ما كان يحدث في ممتلكاتها فيما وراء البحار فكان له حديث اخر ، وبعد اجتياز المرحلة الاولى من الزوابع والاضطرابات أخذت المستعمرة تقاسي ازمات دورية شبيهة بتلك الازمات التي عاشها كل من سيغوينثا اي غونغورا[٢٥] او الاخت

(٢٥) كارلوس سيغوينثا اي غونغورا (١٦٤٥–١٧٠٠) قس وكاتب ومؤرخ وفلكي مكسيكي • يمت بصلة قرابة الى الشاعر الاسباني لويس دي غونغورا .. من اشهر اعماله « ربيع هندي » . (المترجمة)

خوانا ، غير أن أيا منها لم يبلغ الجذور ، جذور النظام ولم يطرح على بساط الحكم المبادىء التي كانت له دعامة واساسا .

لقد اضحى العالم الاستعماري اسقاطا لمجتمع بلغ نضجه واستقراره في أوربا لكن اصالته يعوزها الكثير . فاسبانيا الجديدة لم تكن تحسن البحث والابتكار بل التطبيق والتكيف ، وكل ابداعاتها ، بما في ذلك ابداعها كيانها نفسه او خلقه ، ماهي الا انعكاسات لما قام به الاسبان . اما المرونة التي استقبلت بها الصيغ الاسبانية على نحو بطيء التعديلات التي أخذ يفرضها عليها المجتمع الاسباني الجديد فهذه لم تنكر الشخصية المحافظة التي اتسمت بها المستعمرة . يعتقد اورتيغا اي غاسيت ان المجتمعات التقليدية هي مجتمعات واقعية ، اذ أنها لا تؤمن بالقفزات الفجائية ، بل تتغير بتؤدة وتتقبل كل ما يمليه عليها الواقع . وما « العظمة المكسيكية » الا عظمة شمس ساكنة أو منتصف نهار لما يكتمل بعد ، لا يجد أمامه ما يغزوه سوى تحلله .

منذ قرون خلت توقفت حملات التفتيش الديني . كانت النظرية قد صيغت ولم يعد الامر يتعلق بسوى وضعها موضع التنفيذ . فالكنيسة في اوربا أصابها الشلل والتزمت موقف الدفاع ، وأما الاسكولائية[٢٦] فما كانت تجيد الدفاع عن نفسها شأنها شأن تلك البوارج الاسبانية الثقيلة التي كثيرا ما طاردتها البواخر الانجليزية والهولندية الأخف منها . لقد تزامن افول الكاثوليكية في أوربا بلوغها الذروة في اميركا الاسبانية : وفي الوقت الذي نضب فيه ابداعها راحت تنتشر في اراض جديدة وشرعت تطرح فلسفة جاهزة وايمانا متحجرا حتى ان المؤمنين الجدد ما كانوا يجدون المناسبة للافصاح عن صدق ايمانهم . وكان اعتناقهم اياها اعتناقا سلبيا . اما الحماس الديني

---

(٢٦) الاسكولائية او المدرسية : من المدارس الفلسفية التي راجت في اوربا في العصور الوسطى . تقوم على ترسيخ واشاعة المفاهيم والاراء التي نادى بها ارسطو . (المترجمة)

المكسيكي وعمقه فقد كانا يتناقضان وما اتسمت به ابداعاتهم من فقر نسبي •
لذا ترانا لا نمتلك شعرا دينيا عظيما ولا فلسفة اصيلة ، ولم يبرع فينا صوفي أو
مصلح ذو شأو •

يفسر لنا هذا الوضع المتناقض ـ البعيد عن الواقعية لسبب اخر ـ جانبا
مهما من تأريخنا • ويعد أيضا مصدرا للكثير من صراعاتنا النفسية • لقد
اصبحت الكاثوليكية الملاذ لذرية أولئك الذين شهدوا ابادة زعمائهم وتقويض
معابدهم واتلاف مخطوطاتهم والغاء المقومات السامية لحضارتهم ، غير انها
للسبب عينه الذي قادها الى التدهور في اوربا أنكرت عليهم كل امكانية للتعبير
عن تفردهم • وبذا اقتصر اسهام المؤمنين بها على الممارسات الدينية الاكثر
اهمية وخمولا • وقد قيض لقلة منهم حسب ادراك المعتقدات الجديدة ادراكا
تاما • وكان جمود هذه المعتقدات وجمود الجهاز الاسكولائي الصدىء يزيدان
من صعوبة اي اسهام خلاق ، فضلا عن ان غالبية المؤمنين كانوا يتحدرون من
الطبقات الدنيا في المجتمع القديم ، ولهذا كانوا أناسا ذوي تقاليد حضارية
متواضعة (اذ ان القيمين على شؤون المعرفة الدينية والسحر والمحاربين ورجال
الدين قد تعرضوا للابادة أو أنهم « تأسبنوا » ، فصارى القول ان الابداع
الديني كان محرما على المؤمنين بالكاثوليكية بسبب من الظروف التي كانت
تحدد مشاركتهم • ومن هنا كان اللاخصب النسبي الذي امتازت به
الكاثوليكية الاستعمارية وبخاصة حينما تتذكر ما كانت عليه من خصب بين
البرابرة والرومان الذين اعتنقوا المسيحية في وقت كان فيه الدين هو القوة
الحية الوحيدة في العالم القديم • ليس صعبا اذن ان يولد موقفنا المناهض
للنزعة الكاثوليكية والغامض ازاءها من صلب هذا الحدث ، فالدين
والتقاليد كانت تطرح علينا دوما بوصفها صيغا متحجرة لا رجاء منها لكنها
تبتر تفردنا وتخنقه •

وفي ظروف كهذه لن تبدو غريبة ديمومة خلفية عهد ما قبل كورتيس. ان المكسيكي كائن ديني وتجربته مع المقدسات تجربة حقة . ولكن من اله ؟ أهو المسيح ام الهة الارض القدامى ؟. لعل دعاء من مدينة تشامولا ، بل صلاة حقة على الرغم مما تنطوي عليه من عناصر سحرية تجيبنا بوضوح عن هذا السؤال :

« ايتها الارض المقدسة ، أيتها السماء المقدسة ، أيها الرب الاب ، أيها الرب الابن ، أيتها الارض المقدسة ، ايتها السماء المقدسة ، أيها المجد المقدس فوضت اليكم شأني ، فكونوا أولياء امري ، اشهدوا مسعاي ، انظروا الى عملي وانظروا الى عذابي ، ايها الانسان العظيم ، ايها الرب العظيم ، ايها الاب العظيم ايها الشفيع العظيم ، ايها الروح العظيم للمرأة ... فلتمدوني بالعون ، في ايديكم أضع الجزية .. هو ذا قرباني ، من اجل بخوري وشموعي ، يا روح القمر ، يا أم السماء العذراء ، يا أم الارض العذراء ، ايتها القديسة روسا ، من اجل ابنك البكر من اجل مجدك الاول ، فلتنظري الى ابنك منقبض الروح .. ولتنظري الى قربانه .. » .

وفي حالات كثيرة تطغى الكاثوليكية على المعتقدات القديمة في نظرية نشوء الخليقة . وهاهو ذا خوان بيريث خولوته نفسه ، مجايلنا بحسب السجل المدني ، وسلفنا بحسب معتقداته يصف لنا صورة المسيح في احدى كنائس قريته موضحا ما تعنيه تلك الصورة له ولقومه :

« ان هذا المسجى في ناووس هو القديس مانويل ، ويدعى ايضا القديس سلفادور او القديس متي ، وهو الذي يشفع للناس وللمخلوقات واليه يطلبون ان يرعى من في البيت او في الطرق او في الارض . وهذا المصلوب الاخر هو ايضا القديس متي . انه يرينا ويبين لنا كيف يموت الانسان على الصليب ليعلمنا الاجلال .. فقبل ولادة القديس مانويل ، كانت الشمس باردة كما هو القمر .. وكان أكلة البشر يعيشون في الارض ويلتهمون البشر ، ثم

راحت الشمس تتلظى عندما ولد الطفل ـ الاله •• ابن العذراء •• القديس سلفادور » •

ثمة تطرف في هذه الحكاية غير انها حالة نموذجية ، اذ يلاحظ التطابق الديني والحضور الطاغي لاساطير السكان الاصليين • فقبل ولادة المسيح ، كانت الشمس ـ عين الله ـ لا تسخن ، وكان الفلك آية من آيات الالوهية• ومن هنا راح هذا التشامولي يردد ان الطبيعة لم تكن لتسير لولا حضور الله • أوليست هـذه نسخة شوهاء من اسطورة الخلق الرائعـة ؟• وفي تيوتيو اكان عانى الالهة ايضا مشكلة الفلك مصدر الحياة • وكـان قربان كيتزالكواتل هو الوحيد القادر على تسيير الشمس وانقاذ العالـم من اللهب المقدس • وهكذا تثبت لنا اسطورة عهد ما قبل كورتيس ببقائها الفارق بين المفهوم المسيحي ومفهوم السكان الاصليين ، فالمسيح ينقذ العالم اذ يفتدينا ويغسل وصمة الخطيئة الاصلية ، في حين ان كيتز الكواتل ماهو بالاله المخلص بل الاله الذي يعيد الخلق • وفكرة الخطيئة عند الهنود ما انفكت مرتبطـة بفكرة الصحة والمرض الشخصي والاجتماعي والكوني • الا ان الامر عند المسيحي يتعلق بخلاص روح الفرد المنفلتة من عقال الجماعة ومـن أسـار الجسد • ان المسيحية تدين العالم اما الهندي فهو لا يفهم الخلاص الشخصي الا جزءا من خلاص الكون والمجتمع •

لم يتبدل شيء في علاقة البنوة بين الشعب والمقدسات ، تلك القـوة الراسخة التي تمنح أمتنا ديمومتها وحياة المحرومين العاطفية عمقها ، كما لم يفلح شيء في جعلها يقظة وخصبة ، (فقد عجزت عن ذلك) عذراء غوادالوبه الكاثوليكية المكسيكية • لذا لم يتورع الاخيار عن الانطلاق من مضمـار الكنيسة والخروج الى العراء •• وهناك في وحشة المعركة الروحية وعريها ، استنشقوا قليلا من ذياك « الهواء الديني الطلق » الذي كان خورخه كويستا ينشده •

لقد عد عصر كارلوس الثاني[٢٧] واحدا من اكثر العصور حزنا وخواء في تاريخ اسبانيا . فقد أتت نيران الحياة والفن الديناميكي اللذين كانا عرضة للتطرف وللنظريات المتناقضة على كل احتياطاته الروحية . ورافق غروب الحضارة الاسبانية في شبه جزيرة ايبريا سطوع شمسها في أميركا . كما بلغ الفن الباروكي كماله في هذه الفترة . ولم يكن الصفوة فيه ينظمون الشعر حسب بل عنوا ايضا بالفلك والفيزياء وبدراسة العصور القديمة في القارة الاميركية . كانوا رموزا يقظة ترهص ، في مجتمع شل الحرف حركته ، بعصر آخر ومخاوف اخرى . وفي الوقت نفسه كانت ارواحهم مفعمة بالتيارات الجمالية التي سادت ذلك العصر بأقصى صورها . وكان باديا عليهم جميعا نوع من التضارب بين مفاهيمهم الدينية واشتراطات حب استطلاعهم ودقتهم الفكرية ، حتى ان بعضهم باشر تجريب نظريات مستحيلة . فعلى سبيل المثال ، شرعت الاخت خوانا في تأليف كتابها « حلم أول » وكان محاولة للتوفيق بين العلم والشعر ، بين الفن الباروكي وحركة التنوير .

من الخطل القول ان مسرحيات هذا الجيل بزت مسرحيات معاصريه الاوربيين كما سيتوضح ذلك في القرن الثامن عشر . فالصراع الذي كان يسكنهم واقتادهم في نهاية الامر الى الصمت لم يكن صراع أيمان او عقل مثلما هو صراع تحجر بعض المعتقدات التي فقدت كل ما فيها من رونق وخصب ولذلك باتت غير قادرة على اشباع ما تمليه عليها رغباتهم الروحية . فادموندو اوغرمان يرى في مفردة الصراع : « انه حالة وسط يفسد فيها العقل حالة السكون ويبدو فيها الذين عاجزا عن تقديم العزاء » غير ان عزاءات الدين تغدو فيها عاجزة لان الامر يتعلق بايمان جامد وأعجف . اما

---

(٢٧) كارلوس الثاني (١٦٦١ — ١٧٠٠) من ملوك أسبانيا . حكم تحت وصاية والدته . كان ضعيفا عليل الصحة ، لذلك عدت فترة حكمه من اسوأ الفترات في تاريخ اسبانيا . في عهده استقلت البرتغال .

(المترجمة)

نقد العقل فسيظهر في أميركا في وقت لاحق • كما يوضح اوغرمان على وجه الدقة صفة الاختيار بين أمرين على النحو الاتي : « ان الايمان بالله وبالعقل في آن واحد يعني انه تحيا بكينونة متأصلة في الامكانية الحقة والوحيدة ، والمتطرفة والمتناقضة التي يشكلها ممكنان مستحيلان للوجود البشري او اذا شئت مستأصلة منهما » • ويعد هذا الوصف صائبا اذا خففنا من حدة القطبين اللذين يكونان ذينك الممكنين المستحيلين ، اذ ليس بمستطاعنا ان ننكر اصالة مشاعر ذلك الجيل الدينية ولا ما كان عليه من جمود او أعياء •

اما فيما يتعلق بالطرف الاخر من الخيار ، فلا ينبغي المغالاة في عقلانية سيغوينثا او الاخت خوانا اللذين لم يقيض لهما قط أن يعيا وعيا كاملا المشكلةالتي خلقت فرقة بين تلك الصفوة• وأحسب انالصراع انما يطرح بين حيويتهما الفكرية وتوقهما الى المعرفة والولوج في عوالم أسيء اكتشافها من جهة وعدم فاعلية الادوات التي كان يمدهما بها كل من علم اللاهوت والثقافة الاسبانيين الجديدين من جهة اخرى • ان صراعهما يشف عن صراع المجتمع الاستعماري الذي لم يكن يحسن أو يتورع عن التعبير عن خصوصيته من خلال صيغ متحجرة • فلقد اصبح النظام الاستعماري نظاما مفروضا من الاعلى الى الاسفل وصيغه الاجتماعية والاقتصادية والقضائية والدينية كانت صيغا راسخة • وكانت الشريعة الالهية والحكم الملكي المطلق يحكمان مجتمعنا وقد خلق بكل اركانه كما لو انه جهاز هائل ومعقد مكرس للبقاء لا للتغيير • وفي عصر الاخت خوانا شرع الصفوة على نحو مموه وخجول في ابداء نوع من الحيوية والفضول الفكري مما كان يتعارض تعارضا ساخرا والفقر الذي كانت تشهده اسبانيا السوداء في عصر كارلوس الثاني « الذي كان يلقب بالمسحور وهو اللقب الذي لا يفتقر الى الدلالة » •• فقد كان سيغوينثا اي غونغورا معنيا بدراسة الحضارات الهندية القديمة ، وعكفت الاخت خوانا مع آخرين على دراسة فلسفة ديكارت والفيزياء التجريبية وعلم الفلك ، أما

الكنيسة ، فأخذت تراقب بارتياب كل حب الاطلاع ذاك وكانت السلطة المؤقتة تمعن في تصعيد العزلة السياسية والاقتصادية والروحية التي فرضتها على مستعمراتها حتى احالتها الى مناطق معزولة ومغلقة . وكانت الاضطرابات تندلع في المدن وفي الريف وتقمع بلا هوادة .. وفي ذلك العالم المغلق مضى جيل الاخت خوانا يطرح على نفسه بضعة تساؤلات ، كان يلمح بها اكثر مما يطرحها ويستشعرها اكثر مما يفكر فيها . تساؤلات ما كانت تقاليدهم الروحية لتقدم عنها اي اجابات (اذ ان الاجابات ولدت هناك في الخارج ، في هواء الحضارة الاوربية الطلق) . ولعل هذا يفسر لنا أنهم على الرغم مما اتسموا به من جرأة فان أيامنهم لم ينقد المبادىء التي يقوم عليها المجتمع الاستعماري أو يقترح أخرى . وحينما كانت الازمات تنفجر كان ذلك الجيل يتنصل من مسؤوليته ، ويوقف صراعه الغامض : وكان تنصله ذاك ـ الذي لم يكن ليمت بصلة الى اي ارتداد ديني ـ يفضي به الى الصمت . ولم يكونوا يسلمون انفسهم الى الله بل انهم ينكرونها ، وذاك الانكار نفسه هو انكار للعالم الاستعماري المنغلق على ذاته . لذلك لم يجدوا امامهم منفذا اخر سوى القطيعة .

لم يبلغ أحد مبلغ خوانا دي اسباخه في تجسيد ازدواجية ذلك العالم على الرغم من ان ظاهر اعمالها لا يشكو من اي صدع كما هو حالها في حياتها . فكان كل ما فيها يستجيب لما راح يمليه عليها عصرها بوصفها امرأة . وفي الوقت نفسه كانت الاخت خوانا شاعرة ، راهبة جيرونيمية ، صديقة للكونتيسة ده باريدس وكاتبة مسرحية وما كانت دواوينها الغرامية ، سواء أكانت تجارب خاضتها أم محض صور بلاغية محتدمة ، او عشقها الاحاديث والموسيقى ومحاولاتها الادبية وميولها الجنسية التي نسبت اليها لتتعارض فيما بينها بل كانت تشترط النهاية النموذجية التي بلغتها . كانت الاخت خوانا تثبت زمانها كما أثبتت زمانها فيها . غير ان أثنين من اعمالها « رد على الاخت فيلوتيا » و « حلم اول » يلقيان ضوءا غريبا على شخصها وعلى زمانها

ويرسمانها نموذجا يفترق في معناه عن كل ما يفكر فيه مقرظوها الكاثوليكيون •

لقد قورن « حلم أول » بـ « عزلات » والحق أن قصيدة الاخت خوانا انما هي تقليد لقصيدة لويس دي غونغورا[٢٨] • غير ان الفروقات العميقة فيهما تفوق التشابه الظاهري بينهما • كان مينينديث اي بلايو[٢٩] يأخذ على غونغورا خواءه • واذا استبدلنا « سطحيته » بـ « خوائه » فاننا سنكون اكثر قربا من مفهوم غونغورا الشعري الذي لا يرمي الى سوى بناء او كما كان برناردو بالبوينا يقول : « افتعال عالم من المظاهر » ، لذا فان بناء « عزلات » هو غير ذات أهمية ودونه أهمية المادة الفلسفية ان وجدت • كان يتخذ من كل شيء وسيلة الى الوصف والاستطراد • وكل وصف واستطراد يتحلل بدوره الى صور وافكار مضادة وتشبيهات بلاغية • ولئن كان هنالك من شيء يمضي في قصيدة غونغورا فليس هو تحديدا الغريق ولا تفكيره بل خيال الشاعر ، كما في مطلعها :

« خطو المهاجر نغم شارد » • هذا النغم المهاجر ، هذا المهاجر الذي يشدو ، يتوقف عند كلمة او عند لون فيداعبه ويديمه ويقد من كل مرحلة صورة ومن كل صورة عالما • فالخطاب الشعري ينساب ببطء ويتفرع في « اقواس متشابكة » انما هي جزر رقيقة ثم يمضي شاردا بين مشاهد وظلال

---

(٢٨) لويس دي غونغورا : (١٥٦١ ــ ١٦٢٧) شاعر قرطبي عظيم وعلم بارز من اعلام الادب الاسباني في عصر النهضة . اسيء فهمه في زمانه وتعرض لانتقادات ولسخرية الكثير من مجايليه من مثل كيبيدو ولوبه دي بيغا . مجده شعراء جيل الـ ٢٧ وعدوه رمزا لهم في الذكرى ٣٠٠ لوفاته . له ديوان « عزلات » وغيره . (المترجمة)

(٢٩) مارثيلينو مينيندث اي بلايو : (١٨٥٦ ــ ١٩١٢) من مشاهير الكتاب والمؤرخين الاسبان . عرف بسعة اطلاعه وعمق ثقافته . له دراسات رصينة في تاريخ الادب منها « اصول الرواية » و « دراسات في النقد الادبي » . (المترجمة)

وأنوار وحقائق ينجو بها ويشل حركتها • وهكذا هو الشعر لذة خالصة ومتعة مصطنعة ذات طبيعة مثالية كما يقول داماسو الونسو[٣٠] • وبذا لن يغدو هناك صراع بين الشكل والجوهر ، فغونغورا يحيل كل شيء الى محض شكل أو سطح رقراق او مائج ، صقيل أو متموج •

لقد وظفت الاخت خوانا اسلوب غونغورا نفسه • بيد أنها اتجهت الى القصيدة الفلسفية ساعية الى استغوار الواقع لا تسطيحه على نحو شائق وكانت ملابسات القصيدة مزدوجة : نحوا واسطورة ومفاهيم • يقول الفونسو رييس : ما القصيدة الا محاولة لبلوغ « شعر ذي انفعال فكري صاف » والرؤية التي اتاحها لنا ديوان « حلم اول » كانت رؤية حلم الليلة الكونية التي يمسي فيها العالم والانسان الحالمين والمحلوم بهما « كوسموس » الحالم حتى عندما يحلم انه يستيقظ • ولاشيء أبعد عن ليل الفكر سوى ليلة الصوفيين الجسدية والروحية ، فليلة الاخت خوانا لم تعرف لها سابقة في الشعر الاسباني بل هي على حد قول ڤوسلر[٣١] ، تستبق حركة التنوير الشعرية الالمانية • ولكن « حلم أول » اصبح محاولة اكثر منه منجزا خلافا لديوان « عزلات » على الرغم من ان مؤلفه لم يكتب له اكماله • وما كان الامر ليتخذ شكلا آخر ، ففي قصيدة الاخت خوانا ، كما في حياتها ، ثمة منطقة حياد ، منطقة من الفراغ ستسفر عن تصادم النزعات المتصارعة التي كانت تجيش في داخلها ولم توفق في المصالحة بينها •

---

(٣٠) داماسو الونسو : (١٨٩٨) شاعر ولغوي اسباني . له مؤلفات قيمة في « غونغورا » و « سان خوان دي لاكروث » . تميزت اعماله باسلوب محكم وبأفكار عميقة وأصيلة .
المترجمة

(٣١) كارل فوسلر : (١٨٧٢ ــ ١٩٢٤) كاتب ولغوي الماني أختص بالثقافة الاسبانية ووضع اعمالا مهمة في لوبه دي بيغا وفراي لويس دي ليون .
(المترجمة)

خلفت لنا الاخت خوانا نصا معبرا هو تصريح بايمانها بالذكاء وتخل عن ممارسته في آن واحد الا وهو رد على الأخت فيلوتيا ، ذلك الرد الذي هو دفاع عن المفكر وعن المرأة ، وهو ايضا قصة هاجس . واذا ما اخذنا بنظر الاعتبار ما ورد في اعترافاتها لوجدنا انها لم تترك علما الا وغرفت منه . وما كان فضولها بفضول رجل العلم بل هو حب استطلاع الانسان المثقف الذي يتشوق الى ان تتكامل لديه في رؤية سديدة كل دقائق المعرفة . كانت تستشعر أن آصرة خفية تصل مابين الحقائق كلها . ومن الاشارة الى تنوع معارفها سنلاحظ ان تناقضاتها انما كانت ظاهرية اكثر منها جوهرية أو في الاقل في الجانب الشكلي او النظري . ومهما اختلفت العلوم والفنون فهي لا تحول دون فهم عام للطبيعة بل « انها تيسر ذلك وتسلط الضوء وتفتح الطرق بعضها على بعض بتنويعات ووشائج خفية حتى ليبدو بعضها يستجيب لبعض وانها مرتبطة فيما بينها ارتباطا رقيقا ومتواشجا » .

ولو لم تكن امرأة علم لما قيض لها ان تكون فيلسوفة ، اذ انها كانت تفتقر الى القدرة على التأمل . لم يكن تعطشها الى المعرفة يتعارض وولعها بالتهكم او التقلب ولربما كانت ستجود بمقالات ودراسات نقدية لو انها جاءت في ازمنة اخرى . لهذا فهي لم تعش من اجل فكرة واحدة ولم تبتدع افكارا جديدة ، بل عاشت افكارها التي هي مناخها وزادها الطبيعي .. انها انسان مفكر ، بل وعي قائم ولا مجال للريبة في صدق مشاعرها الدينية .. ولكن هناك ـ حيث الروح الورعة تعثر على آيات عن وجود الله او عن جبروته ، تجد الاخت خوانا انها كانت تكرر دوما ان كل شيء هو هبة من الله . فقد عاشت في بحث دؤوب عن تفسير عقلاني : « شهدت مرة طفلتين تلعبان بخذروف ، وما أن أبصرت حركته وشكله حتى اخذت أتنبه بما عرفت في من جنون على سهولة حركة ذلك الشكل الكروي التلقائية » .

تتناقض هذه الاراء واراء الكتاب الاسبان في ذلك العصر بل وأراء الكتاب من الاجيال اللاحقة . فما كان العالم المادي ليشكل معضلة لأي منهم . فهم اما كانوا يتقبلون الواقع مثلما هو وأما يدينونه ، وسوى ذلك لم يكونوا يفعلون شيئا خلا التأمل . وهذا على ما يبدو ما ينبئنا به الادب الاسباني في العصر الذهبي . وبين المغامرة والتنازلات دارت عجلة الحياة التأريخية الاسبانية . ولو تركنا الحديث عن الكتاب الزهاد جانبا لوجدنا ان كلا من غراثيان[٣٢] وكيبيدو لم يبديا اي اهتمام بالمعرفة بذاتها اذ كانا يستخفان بالفضول الفكري وينسبان جل معرفتهما الى السلوك والاخلاق والى الخلاص . وكان ثمة زهاد أو مسيحيون يجهلون النشاط الفكري الخالص . وتبعا لهذا التقليد فان فاوست يغدو خارج هذا التفكير تماما . فما كان الذكاء ليمنحهم لذة تذكر لانه سلاح خطير يفيد في هزم الاعداء ، الا أنه قد يجعلنا أيضا نفقد أرواحنا . أما شخص الاخت خوانا المستوحش فيزداد عزلة في ذلك العالم القائم على حالات من الاثبات ومن النفي ويجهل قيمة الشك والتمحيص .

لم يكن « الرد » صورة شخصية لها بل دفاع عن روح مراهقة ابدا ، نهمة ابدا وساخرة .. روح جياشة المشاعر ومتحفظة ، فتلك الازدواجية في وحدتها ، امرأة ومفكرة ، تذكي جذوة صراع هو ايضا مزدوج ، صراع مجتمعها وصراع انوثتها وبذا يصبح « رد على الاخت فيلوتيا » دفاعا عن المرأة . اما اضطلاعها بمسؤولية هذا الدفاع وجرأتها على المجاهرة بميلها الى الفكر المتحرر فانهما يخلقان منها شخصية عصرية .

---

(٣٢) بالتسار غراثيان : (١٦٠١ ــ ١٦٥٨) كاتب أسباني ، اشتهر بأعماله ذات الطروحات الاخلاقية . كتب رواية يتيمة هي أبرز ما خلف وراءه وهي (النقادة) .. (المترجمة)

ولئن كنا غير واهمين في رؤيتنا ردود افعال غريزية تتعارض والتفكير التقليدي السائد في اسبانيا ، ففي توكيدها ما تنطوي عليه التجربة من قيمة وفي مفهومها في المعرفة ، الذي لا يلتبس بتيار التبحر في العلوم ولا يجمعه جامع بالدين ، ثمة دفاع ضمني عن الوعي الفكري اذ ان كل شيء يقودها الى ادراك كنه العالم معضلة كان أم لغزا ادراكا يفوق كونه مكانا للخلاص او للضياع . وهذا ما منح فكرها اصالة كانت جديرة باهتمام يفوق المديح الذي كاله لها مجايلوها او تبكيت القس الـذي كان يصغي الى اعترافاتها ، وهي اصالة ما فتئت تستحق حتى يومنا هذا حكما اكثر عمقا ودراسة اكثر جرأة .

ترى كيف يمكن لاصوات مفعمة على هذا النحو بالمستقبل ان تبعث على حين غرة من دير لراهبات مكسيكيات ؟ هـذا ما طرحه ڤوسلر . واما الاجابة عن هذا السؤال فهي : « ماكان لحـب اطلاعها علـى الميثولوجيا القديمة ، وعلى الفيزياء المعاصرة ، وعلى افكار ارسطو وهارفي وافلاطون وفانوس كيرشر[٣٣] السحري ان يلقى حظا وفيرا في جامعات اسبانيا القديمة المتبجحة بعلومها ودوغمائيتها على نحو متهيب » . وما كان سيقدر له الازدهار طويلا في المكسيك . فعقب احداث الشغب التي وقعت في عام ١٦٩٢ غشي الظلام سريعا الحياة الفكرية وهجر سيغوينثا اي غونغورا على نحو مفاجىء شغفه التاريخي والاثاري ، واما الاخت خوانا فتخلت عن كتبها لتموت بعد ذلك بقليل ، ورافقت الازمـة الاجتماعية ، كمـا يثبت ذلك ڤوسلر ، ازمة روحيـة .

وعلى الرغم من ذلك الألق الذي وسم حياتها ، وعلى الرغم من ميتتها المؤثرة وتلك الهندسة المذهلة التي ازدهت بها اعظم ابداعاتها الشعرية ففي

---

(٣٣) اتاناوسيوس كيرشر : (١٦٠٢-١٦٨٠) من مشاهير العلماء والكتاب الالمان . له نظرية تتعلق بباطن الارض . اكتشف الفانوس السحري . الف في الفيزياء والرياضيات واللغة . (المترجمة)

حياة الاخت خوانا واعمالها ثمة شيء محطم لم يكتب له ان يكتمل ، اذ نلاحظ تلك الكآبة التي سامت روحا لم تفلح البتة في ان تغفر لنفسها جرأتها وشرط المرأة فيها . ان عصرها ما كان ليمدها بالزاد الفكري الذي تشبع به نهمها ولا هي استطاعت ان تشيد عالما من افكار تحيا معها وحدها ، ومن كان سيفعل ذلك غيرها ؟ اما وعيها تفردها فقد بات ينبض دوما في داخلها « أنى لنا ان نحسن شيئا نحن النساء سوى فلسفة المطبخ ؟.. كانت تتساءل والابتسامة تعلو محياها ، لكن الجرح كان يؤلمها : وكيف لمن يشهد هذا التصفيق المدوي الا يصدق انني أبحرت والريح تعصف بكوثل السفينة فوق راحات الهتافات العامة » . لقد أمست الاخت خوانا رمزا للوحدة : كانت تحيا باسمة حيرى بين ثورين واعية ازدواجية شرطها واستحالة اصرارها . لقد اعتدنا ان نسمع من ينحي باللائمة على رجال بلغوا قاع مصيرهم ، فكيف لا نرثي لنصيب امرأة ضارعت مجتمعها وحضارتها ؟

كانت صورتها تجسد صورة المرأة المستوحشة الآسية التي تبتسم فتصمت . تذكر في بعض ما كتبت ان الصمت مأهول بالاصوات . فبم ينبئنا صمتها هي ؟ ان كان المجتمع يعبر عن نفسه ويؤكدها في اعمال الأخت خوانا فهو في صمتها يدين نفسه . وبهذا أنهت تجربة الاخت خوانا التي آلت الى الصمت والتخلي امتحان النظام الاستعماري . حقا كان عالما منفتحا على مشاركة الاخرين ونظاما حضاريا حيا لكنه منغلق على نحو لا يرحم في وجه كل تعبير فردي وكل مغامرة ، انه عالم مغلق حيال المستقبل . وبغية تحقيق كينونتنا كان علينا ان نقطع كل آصرة تربطنا بذلك النظام الذي لا مخرج منه، على الرغم من ان هذا قد يحيلنا ايتاما . لذا بات القرن التاسع عشر قرن القطيعة ، وفي الوقت نفسه القرن الذي أغوانا بخلق وشائج جديدة بتقاليد اخرى وان بدت نائية عنا ، لكنها لا تقل كونية عن تلك التي جاءتنا بها الكنيسة الكاثوليكية : الا وهي تقاليد العقلانية الاوربية .

الفصل السادس

من الاستقلال الى الثورة

ادت الاصلاحات التي شرعت فيها سلالـة ال بوربون[1] وبخاصـة كارلوس الثالث[2] الى انعاش الاقتصاد الاسباني وازدهار التجارة ، الا أنها زادت من حدة المركزية الادارية وأحالت اسبانيا الجديدة الى مستعمرة حقيقية والى ارض خاضعة لاستغلال منظم وتابعة على نحو وثيق للسلطة المركزية ، لأن حكم ال هابسبورغ[3] المطلق من قبل كان ينهـج نهجـا آخـر ، اذ ان المستعمرات كانت ممالك تتمتع نوعا ما بالحكم الذاتي ، والامبراطورية باتت اشبه بمنظومة شمسية ، وكانت اسبانيا الجديدة وبخاصة في العصور الاولى تدور حول التاج مثلما يدور الكوكب الصغير حول الشمس ، غير أنه كوكب يبعث نورا خاصا به . وأصبح هذا ديدن الممالك والاراضي الاخرى التابعة

---

(1) آل بوربون : هي السلالة الفرنسية التي ارتقت سدة الحكم في اسبانيا في القرن الثامن عشر بعد وفاة كارلوس الثاني الذي لم يخلف من بعده ولي عهد . وكان اول ملوكها فيليب الخامس حفيد لويس الرابع عشر .
(المترجمة)

(2) كارلوس الثالث (١٧١٦–١٧٨٨) ملك اسبانيا وهـو الابـن الخامـس لفيليب الخامس . اشتهر باصلاحاته في مجالي الزراعة والصناعة وفي انشاء الاكاديميات العسكرية .
المترجمة

(3) ال هابسبورغ : سلالة المانية غزت النمسا وسويسرا وحكمت فيهما ثم حكمت في اسبانيا اثر زواج فيليب الملقب بـ (الرائـع نجل ماكسميليان الاول بالاميرة خوانا الملقبة بـ (المجنونة) ابنة الملكين الكاثوليكيين فرناندو وايزابيل في القرن السادس عشر . وقـد أصيبت بالجنون عقب وفـاة زوجها .
(المترجمة)

لهم جميعا . بيد ان آل بوربون جعلوا من أسبانيا الجديدة ، تلك المملكة الاقطاعية ، محض أراض فيما وراء البحار . وما كان خلق ادارات الامداد والتموين والدعم الذي حظي به البحث العلمي ، وتطور التيار الانساني ، وانشاء مرافق فخمة للخدمات العامة واخيرا الحنكة التي أبداها عدد ممن شغلوا منصب نائب الملك كافيا لبعث الحياة في المجتمع الكولونيالي . فقد اضحت المستعمرة شأنها شأن « المتروبولي » شكلا او كيانا مهجورا حسب . ومنذ اواخر القرن السابع عشر ماعادت الاواصر التي تصل بين مدريد وممتلكاتها بتلك الاواصر المتسقة التي تربط اجزاء الجسد الحي الواحد . ولكن قدر للامبراطورية البقاء بفضل كمال بنيتها وتعقيدها وترامي اطرافها وخمولها ، وبفضل التناحرات التي كانت تتنازع خصومها . كما برهنت لنا اصلاحات كارلوس الثالث الى اي مدى كان العمل السياسي المجرد قاصرا مالم تسبقه عملية تغيير في بنية المجتمع نفسها ودراسة للفرضيات التي يتأسس عليها .

غالبا ما يتردد ان القرن الثامن عشر قد أرهص بحركة الاستقلال . فالعلم والفلسفة في ذلك العصر باتا يكونان سابقتين فكريتين لصرخة دولوريس (من خلال الاصلاحات الاسكولائية التي اضطلع بها رجال من مثل فرانثيسكو خابيير كلابيخيرو[٤] أو من خلال افكار رجال آخرين من مثل بينيتو دياث دي غامارا وانطونيو الثاته[٥] وجهودهم . الا اننا كثيرا ما ننسى ان الاستقلال فجأنا عندما فقدنا كل صلة لنا بأسبانيا خلا الوهن .. هذا الوهن المروع الذي ينتاب المحتضر حين تهمد يده بحركة قاسية كالمخلب كما لو انه يحاول التشبث بلحظة اخرى من الحياة ، لكن الحياة تفر منه بحركة

---

(٤) فرانثيسكو خابيير كلابيخيرو : (١٧٣١–١٨٨٧) مؤرخ مكسيكي له كتاب « تاريخ المكسيك قبل الغزو وبعده » . (الترجمة)

(٥) خوسيه انطونيو الثاته ، (١٧٢٩–١٧٩٠) : راهب وجغرافي وعالم طبيعيات مكسيكي . (الترجمة)

فظة أخيرة • وقد انحسرت اسبانيا الجديدة ابداعاً كونيا او نظاما حيا وليس قناعا لنظام ، حينما لم يعد هناك ايمان تستمدهما منه • وألفت الاخت خواتا نفسها عاجزة عن حل الصراع القائم بين فضولها الفكري ومبادىء عصرها الدينية حلا خلاقا وعضويا ، فعزفت عن ذلك لتموت ميتة نموذجية • وبنموذجية أقل راح المجتمع الكولونيالي يجرجر اذياله على مدى قرن مدافعا عن نفسه بعناد عقيم •

ثم حدث الاستقلال بالصيغة الغامضة نفسها التي امتاز بها الغزو ، فما قام به كورتيس جاء مسبوقا بالنظرية السياسية التي اعتمدها في اسبانيا الملكان الكاثوليكيان وشرع فيها في ميسو أميركا الازتيك • كما طرح الاستقلال ظاهرة مزدوجة المعنى : تفسخ كيان الامبراطورية الميت وولادة مجموعة من الولايات الجديدة • وهكذا بدا الغزو والاستقلال كما لو أنهما لحظتا مد وجزر لموجة تأريخية عارمة تكونت في القرن الخامس عشر وامتدت حتى أميركا وبلغت توازنا رائعا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ثم انحسرت في نهاية المطاف ولكنها تشظت قبلئذ الف شظية •

يؤكد لنا الفيلسوف خوسيه غاوس[٦] هذه الصورة عندما قسم الفكر المعاصر في اللغة الاسبانية قسمين : الاول خاص بشبه جزيرة ايبريا ويتأسس على دراسة تأملية معمقة في الانحطاط الاسباني ، والثاني خاص باميركا الاسبانية وكان في حقيقته مرافعة دفاع عن الاستقلال وبحثا عن قدرنا اكثر من كونه تأملا فيهما ، فينقلب الفكر الاسباني على ماضيه وعلى ذاته كيما يتقصى اسباب الانحطاط وكيما يفصل وسط هذا الكم من الموت بين العناصر التي لما تزل حية والتي تمنح الواقع الشاذ معنى وحسا معاصرا : أي واقع الكينونة

---

(٦) خوسيه غاوس : (١٩٠٢) فيلسوف اسباني من تلامذة خوسيه اورتيغا اي غاسيث . اشتهر بترجمة اعمال هوسرل وكيركغارد .

(المترجمة)

الاسبانية . فالمفهوم الاسباني الاميركي بدأ تبريرا للاستقلال الا أنه سرعان ما استحال على نحو غير مباشر تقريبا مشروعا ، ولم تعد أميركا ذلك التقليد الذي لابد له ان يدوم مثلما هي مستقبل لابد من أن يتحقق . مشروع ويوتوبيا هما كل لا ينفصم من الفكر الاسباني الاميركي منذ نهايات القرن الثامن عشر حتى يومنا هذا ، وهما كالنقد والرثاء في شبه جزيرة أيبريا بمن يمثلهما سواء اونامونو[7] شاعر الرثاء أم اورتيغا أي غاسيت الفيلسوف الناقد .

ثمة استيعاب اعمق للثنائية الانفة الذكر في بلدان اميركا اللاتينية . فشخصية القادة تبدو اكثر صفاء ومعارضتهم التقاليد الاسبانية كانت اكثر راديكالية . لاننا نجد ان الارستقراطيين والمفكرين والرحالة العالميين ما كانوا على معرفة بالافكار الجديدة حسب بل انهم اختلفوا الى أناس جدد وطرقوا ابواب مجتمعات جديدة . فها هوذا ميراندا[8] يشارك في الثورة الفرنسية ويقاتل في فالمي[9]، وبيليو يقضي حياته في لندن ، وسنوات دراسة بوليفار تمضي في ذلك المناخ الذي يصنع فيه الابطال والامراء ، فمنذ نعومة اظفاره يعد للتحرير ولتسنم الحكم . الا أن ثورتنا من اجل الاستقلال كانت أقل ألقا واقل ثراء بما طرحت من أفكار ومفاهيم عالمية ، لكنها كانت محكومة اكثر بظروفها المحلية ولم يقيض لزعمائنا ولرجال ديننا البائسين ولقادتنا العسكريين الغامضين ان يمتلكوا تصورا واضحا عن منجزهم ، غير أنهم من جانب آخر

---

(٧) ميغيل دي اونامونو : (١٨٦٤–١٩٣٦) من عمالقة الادب الاسباني . لعب دورا مؤثرا في الحياة السياسية والادبية وكان عضوا بارزا في جيل الـ ٩٨ . برع في مختلف الاجناس الادبية . جسد من خلال كتاباته رؤاه ومشاعره وسعيه الى الخلود الشخصي . له مؤلفات كثيرة . منها « مسيح بيلاثكيث » و « احتضار المسيحية وغيرهما » . المترجمة

(٨) فرانثيسكو ميراندا : (١٧٥٠–١٨١٥) . جنرال فينزويلي خدم في الجيش الاسباني وشارك في حرب الاستقلال الاميركية والثورة الفرنسية . مات اسيرا في فنزويلا . (المترجمة)

(٩) فالمي : قرية في فرنسا دارت فيها المعركة التي هزم فيها الفرنسيون جيش بروسيا في ١٧٩٢ . المترجمة

كانوا يتمتعون بحس اعمق بالواقع وكانوا يصغون الى ما يقوله لهم الشعب بايجاز •

أثرت هذه الفروقات في تاريخ بلداننا فيما بعد حينما اندلع استقلال اميركا الجنوبية بحركة قارية كبرى : اذ يحرر سان مارتين[10] نصف القارة ويستكمل بوليفار[11] تحرير النصف الاخر ، ثم تشكلت دول كبرى وكونفدراليات ومجالس مدنية • وساد اعتقاد مؤداه ان تحرر اسبانيا لن يفضي الى تجزئة العالم الاسباني • بيد انه ما أن انقضى وقت قصير حتى بدد الواقع كل تلك المزاعم وجاءت عملية تشظي الامبراطورية الاسبانية على نحو يفوق بصيرة بوليفار قوة •

خلاصة القول ان ثمة نزعتين متضاربتين تتجاذبان حركة الاستقلال ، اولاهما اوربية ، ليبرالية ويوتوبية ، كانت ترى في أميركا الاسبانية كلا موحدا ، او جمعية من الامم الحرة ، وثانيهما تقليدية قطعت كل صلة لها بالميتروبولي بغية التعجيل في عملية تفتت الامبراطورية •

وبات الاستقلال الاسباني الاميركي ، شأنه شأن سائر تأريخ شعوبنا ، حدثا غامضا عصيا على التفسير ، لأن الافكار أخفت الواقع مرة اخرى وراء قناع بدلا من أن تعريه وتفسره • والفئات والطبقات التي أخذت على عاتقها

---

(١٠) خوسيه دي سان مارتين : (١٧٧٨ــ١٨٥٠) جنرال ارجنتيني . لعب دورا كبيرا في حركة تحرير قارة اميركا اللاتينية . حرر شيلي وبيرو . التقى سيمون بوليفار في ١٨٢٢ . (المترجمة)

(١١) سيمون بوليفار : (١٧٨٣ــ١٨٣٠) جنرال فينزويلي . بطل تحرير أميركا اللاتينية من الاستعمار الاسباني . بدأ حملته منذ ١٨١٠ . كان كاتبا بارعا وخطيبا مفوها . المترجمة

مهمة الاستقلال في أميركا الجنوبية كانت تنتمي الى الارستقراطية الاقطاعية المحلية وتنحدر من المستعمرين الاسبان ممن وضعوا في مرتبة ادنى مقارنة بنظرائهم في شبه الجزيرة • وراحت المتروبولي التي اعتمدت سياسة حمائية تعيق التجارة الحرة في المستعمرات وتحول دون تطورها الاقتصادي والاجتماعي عن طريق فرض القيود الادارية والسياسية ، وكانت ، من جانب اخر ، تسد الطريق على « الكريولية »[١٢] التي كانت ترغب رغبة مشروعة في الاسهام في الوظائف العليا أو في ادارة شؤون الدولة •

اذن فالصراع من اجل الاستقلال كان يرمي الى تحرير « الكريولية » من بيروقراطية شبه الجزيرة المحنطة • ولو عدنا الى الواقع فان فكرة تغيير البنية الاجتماعية في المستعمرات لم تكن في الحسبان • والحق ان برامج قادة الاستقلال ولغتهم تذكرنا بلغة ثوار هذا العصر وبرامجهم ، ولا مراء في انهم كانوا صادقين في ذلك ، فتلك اللغة كانت « عصرية » وصدى للثوار الفرنسيين وللافكار التي نادى بها الاستقلال في أميركا الشمالية بخاصة غير انها صارت تعبر حقا في أميركا السكسونية عن جماعات أقترحت نفسها لتغيير البلاد على وفق فلسفة سياسية جديدة ، بل ان الامر ليتعدى ذلك اذ أنها حينما طرحت تلك المبادىء لم تكن تسعى الى استبدال حالة باخرى بل الى احداث فروق جذرية وخلق أمة جديدة • حقا أن الولايات المتحدة في تاريخ القرن التاسع عشر عدت بدعة عالمية ومجتمعا ينمو ويمتد على نحو طبيعي ، وعلى النقيض من ذلك ، ما ان اصبح الاستقلال واقعا حتى تآزرت الطبقات التي تقود المجتمع والطبقات الوريثة للنظام الاسباني القديم وقطعت كل صلة تربطها باسبانيا ، الا انها عجزت عن ترسيخ مجتمع حديث • وما كان الامر لينحو منحى اخر ، لأن الجماعات التي تزعمت حركة الاستقلال ، لم

---

(١٢) طبقة الكريولية : هم الاسبان الذين ولدوا في المستعمرات في اميركا اللاتينية بعد الغزو الاسباني • (المترجمة)

تكن تؤلف قوى اجتماعية جديدة ، بل كانت امتدادا للنظام الاقطاعي . لذا فبدعة الامم الاميركية الاسبانية الجديدة هي بدعة مضللة وهي في حقيقتها كانت تتعلق بمجتمعات في طور التدهور او في سبات مصطنع وهي شظايا واشلاء لكل مجزأ .

توزعت الامبراطورية الاسبانية على كم هائل من الجمهوريات كانت جميعا من صنع الاوليغاركيات المحلية التي شجعت او دعمت في كل الاحوال عملية التجزئة . ولا ينبغي ان يفوتنا ذلك التأثير الحاسم الذي مارسه الكثير من القادة الثوريين ، اذ قدر لبعضهم ممن كانوا أوفر حظا من غزاة هم نقيضهم في الرمز التأريخي « الارتقاء بارتقاء الممالك » كما لو ان المسألة تتعلق بغنيمة قروسطية . وهنا أخذت صورة « الدكتاتور الاسباني الاميركي » بالظهور لتودع بذرتها في صورة « بطل التحرير » . وهكذا تكونت الجمهوريات الجديدة حاجة سياسية وعسكرية في ذلك الحين لا تعبيرا عن خصوصية تاريخية حقة . أما « المقومات الوطنية » فقد أخذت تتشكل في وقت لاحق ولم تكن في معظم الاحيان غير تتيجة لمواعظ الحكومات الوطنية التي لم يفلح احد ، على الرغم من مضي قرن ونصف من الزمان ، في أن يفسر لنا تفسيرا مقنعا أين تكمن الفروقات « القومية » بين الارجنتينيين والارغوائيين والبيرونيين والاكوادوريين والغواتيماليين والمكسيكيين ، كما لم يتمكن أحد غير الاوليغاركيات المحلية التي تساندها الامبريالية الاميركية من تفسير سبب وجود تسع جمهوريات في أميركا الوسطى وجزر الانتيل .

بيد ان الامر لا يقف عند هذا الحد ، فكل واحدة من هذه الامم الجديدة كانت تسن لها في اليوم التالي لاستقلالها دستورا اكثر ليبرالية وديمقراطية او أقل (وغالبا ما يكون اقل) . ومثل هذه القوانين في اوربا والولايات المتحدة كانت تأتي دوما استجابة لواقع ما تأريخي ، فكانت ، على سبيل المثال ، تعبر عن صعود البرجوازية أو تكون تتيجة للثورة الصناعية وانهيار

النظام القديم . أما في أميركا الاسبانية فانها اقتصرت على اضفــاء مظهــر عصري على مخلفات النظام الكولونيالي . وخلافا لذلك ، فبدلا من ان تعبر الايديولوجية الليبرالية والديمقراطية عن واقع تأريخي محدد لنا ، عملت على اخفائه . وأضحى الكذب السياسي متأصلا في شعوبنا دستوريا حتى يتعذر علينا حصر الضرر المعنوي الذي اصابنا من جراء ذلك ، فقد طال اعمق اعماقنا وصرنا نتعامل بالكذب تعاملا اعتياديا . وعلى امتداد مايربو على المئة عام قاسينا الكثير من انظمة متسلطة كانت تعمل في خدمة الاوليغاركيات الاقطاعية الا انها كانت تتشدق بالحرية . ومازلنا نعاني جراء ذلك حتى يومنا هذا .. ومن هنا اصبحت مسألة التصدي للكذب الرسمي والدستوري هي الخطوة الاولى صوب كل محاولة جادة في الاصلاح .. وهذا على مايبدو هو الاتجاه الذي تمضي به الحركات الاميركية اللاتينية الحالية التي تربطها حلقة وصل واحدة الا وهي الاسهام في تحقيق الاستقلال في آن واحد : اي ان نصنع من بلداننا مجتمعات حديثة حقا وليست محض واجهات للديماغوجيين والسياح ، اذ لن يترتب علــى شعوبنا في تصديها هــذا مواجهة التركــة الاسبانية القديمة (الكنيسة والجيش والاوليغاركيات) حسب ، بل مجابهــة الدكتاتوريات أيضا ، اي الزعيم الذي يتبجح بالصيغ القانونية والوطنية والحليف الراهــن لقوة تختلف تماما عــن الامبريالية الاسبانية القديمة الا وهــي المصالــح الرأسمالية الاجنبية الهائلة .

ينطبق كل ما أسلفنا ذكره تقريبا على المكسيك خلا بعض الاستثناءات الحاسمة .. وهي أولا : ان ثورتنا من اجل الاستقلال لم تفصح عن اي مزاعم عالميةأنطوى عليها بعد نظر بوليفار وعماه في آن واحد. وكان المتمردون فيحيرة من أمرهم بين الاستقلال الذي نادى به موريلوس[13] وصيغ الحكم الذاتي

(١٣) خوسيه ماريا موريلوس : (١٧٦٥–١٨١٥) راهب ووطني مكسيكي . لعب دورا فاعلا في حرب الاستقلال في المكسيك . حكم عليه بالاعدام رميا بالرصاص . (المترجمة)

الحديثة (التي كان ايدالغو) يطمح اليها . واندلعت الحرب بصيغة احتجاج على أنتهاكات الميتروبولي والبيروقراطية الاسبانية العليا ، وعلى الاقطاعيات المحلية الكبرى تحديدا . لذا نجد ان الثوار ربما أعاروا بعض الاصلاحات الاجتماعية اهمية اكبر من تلك التي أولوها الاستقلال . فقد سن ايدالغو قانونا يقضي بالغاء العبودية ، اما موريلوس فقد شرع قانون توزيع الاقطاعيات الكبرى لان حرب الاستقلال كانت حربا طبقية ولن يتيسر لنا فهم طبيعتها جيدا اذا ما جهلنا انها ، خلافا لما هو عليه الحال في دول أميركا الجنوبية ، كانت تحمل في داخلها بذرة الثورة الزراعية . ولذلك تحالف الجيش (الذي كان يخدم فيه الكريولية) من مثل اتوربيده[14] والكنيسة وكبار الملاك مع العرش الاسباني وهي القوى التي أطاحت بكل من ايدالغو وموريلوس ومينا[15] . وبعد انتهاء وقت قصير اي بعد انطفاء جذوة التمرد تقريبا حدث مالم يكن في الحسبان : اذ تولى الليبراليون زمام السلطة في اسبانيا وحولوا الملكية المطلقة الى ملكية دستورية وراحوا يهددون امتيازات الكنيسة والارستقراطية ، ودارت حينذاك رحى تغيير مفاجىء . من ناحية اخرى ، وازاء هذ الخطر سعى كل من كبير القساوسة وكبار اصحاب الاراضي والبيروقراطية والعسكريين والكريولية الى التحالف مع بقية الثوار وحققوا الاستقلال . وبدا الامر فعل شعوذة حقيقي ، فالانفصال السياسي عن المركز يتحقق خلافا لرغبة الطبقات التي ناضلت من اجل الاستقلال واصبحت ولاية اسبانيا الجديدة الامبراطورية المكسيكية ، اما ايتوربيده ،

---

(١٤) اغسطين دي أتوربيده : (١٧٨٣–١٨٢٤) . عسكري وسياسي مكسيكي طالب به الشعب امبراطورا بعد الاستقلال . ولقب بأغسطين الاول . ارغمه سانتآنا قائد الثورة الجمهورية على التخلي عن الحكم ، فغادر الى اوربا ، وعند عودته القي القبض عليه واعدم . (المترجمة)

(١٥) فرانثيسكو خابيير مينا : (١٧٨٩–١٨١٧) محارب اسباني شارك في حرب الاستقلال المكسيكية . المترجمة

الجنرال الواقعي القديم فيصبح أغسطين الاول الـذي يطاح به في أحـد الانقلابات التي حدثت بعد تسنمه الحكم بوقت قصير وأفتتح بذلك عصر الانقلابات •

وعلى مدى اكثر من ربع قرن من صراع غامض لم يكن تستبعد فيـه التحالفات المؤقتة ولا تبدل الفصائل ولا الخيانات سعى الليبراليون الـى تحقيق القطيعة مع التقاليد الكولونيالية وكانوا يشكلون بصيغة أو باخرى امتدادا لذينك القائدين الرائدين ايدالغو وموريلوس • ومع ذلك ، لم تكن الغاية من انتقادهم الانظمة السائدة تغيير الواقع بل التشريعات • وكان الجميع يعتقدون ، بتفاؤل موروث عن الانسكلوبيديا[١٦] ، ان سن قوانين جديدة قمين بتغيير الواقع وكانوا يرون في الولايات المتحدة انموذجا يمكن ان يحتذى ويعتقدون أن ازدهاره يعـزى الى رقـي مؤسساته الجمهورية • وهـذا ما حداهم على اتباع سياسة فيدرالية رغبة في معارضة السياسة المركزية التي انتهجها المحافظون • ومن ناحية اخرى أخذ الجميع يتوقعون ان سن دستور ديمقراطي يحد من السلطات المؤقتة التي تتمتع بهـا الكنيسة ويقضي علـى امتيازات ملاك الاراضي الارستقراطيين يمكن ان يفضي آليا الى خلق طبقة اجتماعية جديدة الا وهي البرجوازية ، لأن الليبراليين لم يطالبوا بالنضال ضد المحافظين حسب بل كان عليهم الاعتماد على العسكريين القادرين على تغيير الفئة الحاكمة تبعا لما تقتضيه مصلحتهم • وقادت التناحرات بين تلك الفئات البلاد الى التجزئة • فانتهزت الولايات المتحدة الفرصة في واحدة من حروب التوسع الامبريالي الاكثر جورا في التأريخ لما اتسمت به من طبيعة سوداوية لتنتزع منا نصف اراضينا • وكان لهذه الهزيمة على المدى البعيد رد فعلهـا

---

(١٦) الانسكلوبيديا : اشارة الى الانسكلوبيديا الفرنسية المؤلفة من ٣٣ جزءا التي نشرها ديدرو وديلامبير والتي تعد مرجعا هائلا لفلسفة القرن الثامـن عشر •
المترجمـة

الايجابي ، فقد اصابت في الصميم الزعامة العسكرية المتمثلة بشخص الدكتاتور ساتتانا[١٧] (الذي كان يتناوب الانتماء الى الليبراليين تارة والى المحافظين اخرى ، وهو حامي حمى الحرية وبائع البلاد . فسانتانا كان نموذجا للدكتاتور الاميركي ، اذ أمر في نهاية شوطه السياسي باقامة مأتم لساقه التي فقدها في احدى المعارك ولقب نفسه بصاحب السمو المبجل) ثم اطاحت الانتفاضة الشعبية بسانتانا وسلمت زمام السلطة الى الليبراليين ، ذلك الجيل الجديد من اتباع خوسيه مورا[١٨] وفالنتين غومث فارياس[١٩] ، معلم « الانتلجنسيا » الليبرالية الذي نذر نفسه لارساء قواعد جديدة للامة ، سيغدو حجر الاساس فيها الدستور . واصدرت المكسيك فعلا في عام ١٨٥٧ ميثاقا دستوريا ليبراليا ، فلجأ المحافظون الى استخدام القوة ورد خواريث على ذلك باصدار قوانين الاصلاح التي وضعت حدا للقوانين المحلية وقضت على نفوذ الكنيسة المادي . وعندما أطيح بخواريث لجأ حزب المحافظين الى خارج البلاد وتمكن بدعم من قوات نابليون الثالث من تنصيب ماكسمليانو[٢٠] في العاصمة امبراطورا ثانيا للمكسيك (وهذه مسألة جديدة

---

(١٧) انطونيو لوبث سانتانا : (١٧٩٤–١٨٧٦) جنرال وسياسي مكسيكي ناضل من اجل الاستقلال . حكم البلاد بين عامي ١٨٥٣–١٨٥٥ حكما استبداديا. (المترجمة)

(١٨) خوسيه مورا (١٧٩٤–١٨٥٠) راهب وكاتب وسياسي مكسيكي من اعماله « المكسيك وثوراتها » . (المترجمة)

(١٩) فالنتين غومث فارياس (١٧٨١–١٨٥٢) سياسي وطبيب مكسيكي تولى رئاسة المكسيك مرتين وكان رائدا في عملية الاصلاح . (المترجمة)

(٢٠) ماكسميليانو دي هابسبورغ : امبراطور المكسيك في ١٨٦٤ . نصبته القوات الفرنسية امبراطورا بعد سقوط العاصمة المكسيكية في أيديها . انتهى أسيرا في ايدي قوات خواريث وحكم عليه بالاعدام . (المترجمة)

غامضة تاريخيا : فماكسميليانو كان ليبراليا يحلم باقامة امبراطورية لاتينية تقف في مواجهة جبروت اليانكي ، ولم تكن افكاره لتمت باي صلة الى افكار المحافظين المتزمتين الذين كانوا يساندونه) • وكان للنكبات التي كابدتها اوربا من جراء الامبراطورية النابليونية والضغوط الاميركية (التي ربما تكتسب معنى مضاعفا اذا ما تناسينا ان لنكولن هو الذي كان يدير دفة الحكم) ومن ثم المقاومة الشعبية الناقمة التي كانت السبب الحقيقي والحاسم للنصر ، الاثر الكبير في تحقيق الانتصار الجمهوري اذ يعدم خواريث ماكسمليانو رميا بالرصاص ، وهو الحلقة التأريخية التي لا ينعدم الشبه بينها وبين اعدام لويس السادس عشر وبذلك « تحققت النتيجة الهندسية المطلوبة » •

لقد اكتمل الاستقلال بالاصلاح واكتسب معناه الناجز ، اذ كان اختبارا للاسس نفسها التي ينهض عليها المجتمع المكسيكي وللفرضيات الفلسفية والتأريخية التي كان يقوم عليها ، واختتم ذلك الاختبار بحالة نفي ثلاثي : نفي الموروث الاسباني ، نفي ماضي السكان الاصليين ونفي الكاثوليكية التي جمعت بين النفيين السابقين لتخرج باثبات اكبر • واصبح دستور ١٨٥٧ وقوانين الاصلاح التعبير القانوني والسياسي عن ذلك الاختبار • فقد دعما فكرة تحطيم أثنتين من تلك المؤسسات كانتا تعنيان ديمومة الموروث الثلاثي وهما : الجمعيات الدينية والملكية العامة للسكان الاصليين • اما الوجه السلبي لعملية الاصلاح فيكمن في انفصال الكنيسة عن الدولة ووضع اليد على اموال الكنيسة وممتلكاتها وحرية التعليم (التي اكتملت بحل الانظمة الدينية التي كانت تتحكم في التعليم) • ثم راح جيل ١٨٥٧ يثبت بعض المبادىء بالقوة نفسها التي رفض فيها التقاليد الكولونيالية • ولم يكن يسعى الى تحقيق قطيعة مع العالم الكولونيالي حسب بل كان مشروعه يرمي الى تأسيس مجتمع جديد ، اي ان المشروع التأريخي الذي أتى به الليبراليون كان يهدف الى استبدال تقليد اخر له البعد العالمي عينه الا وهو حرية الانسان

بالتقاليد الكولونيالية القائمة على المذهب الكاثوليكي وهكذا سترسى دعائم الامة المكسيكية فيما بعد على مبادىء تخالف النظام الطبقي الذي كان سائدا في المستعمرة اي المساواة امام القانون بين كل المكسيكيين بشرا او أشخاصا عقلاء على حد سواء • واسست عملية الاصلاح المكسيك بانكار ماضيها وأمست رفضا للتقاليد المتبعة وبحثا عن تبرير وجودها مستقبلا •

ان المعنى الذي ينطوي عليه قتل الام اللازم هذا لا يشذ عن السياق الذي يطرحه كبار المفكرين • فاغناثيو راميريث[21] الذي يعد أبرز مجموعة الرجال العمالقة يختم احدى قصائده بالابيات الاتية :

ايتها الام الطبيعية ، ها لم تعد هناك ازاهير
حيثما تتقدم خطواتي المتوجسة ،
دونما أمل او مخاوف ولدت
واليك سأعود دونما مخاوف او أمل

وبموت الاله ، محور المجتمع الكولونيالي ، تستحيل الطبيعة أمة وستحل فيما بعد ماركسية دييغو ريبيرا[22] والحاد راميريث في اثبات مادي لا يستثني حتى الدين • غير أن مفهوما علميا أصيلا او ببساطة عقلانيا في المادة لايمكن ان يرى في هذه الفكرة ولا في الطبيعة أما ولا حتى زوجة الاب التي يرد ذكرها في اشعار ليوباردي المتشائم بل يرى سياقا لا مباليا قابلا للتركيب والتفكك وللخلق والتكرار بلا كلل ولا ذاكرة ولا تأمل •

---

(٢١) اغناثيو راميريث : (١٨١٨–١٨٧٩) : سياسي وكاتب مكسيكي نشر اعماله باسم مستعار هو « نيغرو مانته » . (المترجمة)

(٢٢) ديغو ريبيرا (١٨٨٦–١٩٥٧) : رسام مكسيكي . أشتهر بجدارياته التي جسد فيها الحياة والتاريخ ومشكلات مجتمعه . (المترجمة)

واذا كانت الامم ، تبعا لما يطرحه اورتيغا اي غاسيت ، لا تتأسس بماض يحددها على نحو سلبي حسب ، بل بفاعلية مشروع تأريخي قادر على تحريك الارادة المشتتة وتوحيد الجهود الفردية ومنحها اهميتها ، فان المكسيك طبقا لهذا الطرح تكون قد ولدت في عصر الاصلاح .. فيه ولدت وفيه اجترحت نفسها وتألقت ومن أجله أيضا .. أذن فالاصلاح كان مشروع قلة من المكسيكيين انطلقت بمحض ارادتها من صلب الجماهير العريضة التي اتصفت سلبيا بالتقليدية وبالتدين . والامة المكسيكية هي ايضا مشروع اقلية فرضت كيانها على بقية السكان مخالفة بذلك اقلية أخرى تميزت بتقليديتها الفاعلة .

كان الاصلاح مثله مثل الكاثوليكية الكولونيالية حركة مستوحاة من فلسفة عالمية . اما أوجه الاختلاف والشبه بينهما فهي واضحة . فالكاثوليكية فرضتها أقلية من الاجانب في أعقاب عملية غزو عسكري ، في حين أن الليبرالية فرضتها اقلية محلية ذات اعداد فكري فرنسي بعد حرب اهلية . لذا كانت الكاثوليكية هي الوجه الاخر للغزو اذ وجد الهندي في الديانة المسيحية أما ، بعد تقوض ثيوقراطية السكان الاصليين وموت الالهة اونفيهم وبعد ان الفى نفسه بلا بقعة أرض يحيا فيها او عالم اخر يرحل اليه ، وراحت تعني له ، مثلها مثل أي أم ، الرحم ، الطمأنينة والعودة الى المبتدأ ، لكنها في الوقت نفسه كانت الفم الذي يلتهم والسيدة التي تدمر وتعاقب اي الام التي يرهب . اما الليبرالية ، فكانت انتقادا للنظام القديم ومشروعا لحلف اجتماعي، ولم تكن دينا انما ايديولوجية يوتوبية لاتقدم عزاء ولا تناهض شيئا بل هي تستبدل مستقبلا أرضيا بفكرة ما وراء الاشياء ، كما انها تؤكد الانسان وفي الوقت نفسه تلغي نصفه ، وهو النصف الذي يجد له تعبيرا في الخرافات ، في التواصل مع الاخرين ، في المآدب ، في الحلم وفي الايروسية. وكان الاصلاح أيضا انكارا قبل أي شيء اخر وهذا مايفسر سر عظمته .. الا أن ما كان يشبته هذا الانكار ـ المثقل بالمبادىء الليبرالية

الاوربية ـ هو مجموعة من الافكار الرائعة على نحو دقيق وعقيم وأجوف ،
فالهندسة لا يمكن ان تكون بديلا مـــن الخرافـــة • ولكي يصبح الهيكل
الليبرالي مشروعا وطنيا حقا كان من الضرورة خلق ضرب من التلاحم بين
البلاد كلها والصيغ السياسية الجديدة ، الا ان الاصلاح راح يجانب ذلـك
الاثبات المحدد والخاص والقائم على فكرة ان كل البشر هم ابناء الله • وهو
الاثبات الذي يسمح بايجاد وشيجة عميقة وأخوية حقا بين الكون والمخلوق
او تلك المسلمة المجردة التي مؤداها : ان البشر سواسية امام القانون • لذلك
أضحت الحرية والمساواة ومابرحتا مفهومين أجوفين وفكرتين ، كما يشير كارل
ماركس ، يعدم فيهما المحتـــوى التأريخي ســـوى ذلك الذي تسبغه عليهما
العلاقات الاجتماعية • وبـــات معروفـــا الام آلـــت المســـاواة المجـــردة
وما الذي كانت تعنيه تلك الحرية العجفاء ، ومن ناحية اخرى ، فعندما أقمنا
المكسيك على أساس تصور عام عن الانسان وليس على اساس اوضـــاع
السكان الحقيقية في بلادنا فاننا ضحينا بالواقع لقاء الكلمات وقدمنا الرجال
الاحياء لسد سغب الاقوياء •

وخلافا لاكثر التوقعات شيوعا ، لم تحفز الثورة الليبرالية على ولادة
طبقة برجوازية متنفذة ، يعلق عليها الجميع ، بما في ذلك خوستو سييرا[٢٣]
أمل المكسيك الوحيد ، بل على النقيض اذ ازدادت حدة الطبيعة الاقطاعية
في بلادنا اثر بيع ممتلكات الكنيسة وغياب ملكية السكان الاصليين العامة ،
هذه الطبقة التي قاومت مقاومة هشة على مدى ثلاثة قرون ونصف تعسف
المشرفين على الاهالي وملاك الاراضي وخروقاتهم • الا ان تلك الحدة كانت
تخدم هذه المرة مصلحة جماعة من المضاربين ستغدو فيما بعـــد ارستقراطية
النظام الجديد • وبذلك ظهرت طائفة جديدة مـــن كبـــار الاقطاعيين • اما

---

(٢٣) خوستو سييرا : (١٨٤٨–١٩١٢) مؤرخ وشاعر رومانسي ومرب مكسيكي
كان لمؤلفاته التربوية اثرا عميقا في المكسيك • (المترجمة)

الجمهورية التي لم تعرف لها عدوا بعد هزيمة المحافظين والامبرياليين فقد وجدت نفسها على حين غرة دونما قاعدة اجتماعية • لانها حينما قطعت صلاتها بالماضي فان ذلك كان يعني قطيعة مع الواقع المكسيكي • اما السلطة فستؤول الى من يجرؤ على ان تكون له اليد الطولى ، وكانت من نصيب بورفيريوديات، اذ كان اكثر الجنرالات ألمعية ممن خلفتهم هزيمة الامبراطورية في حالة بطالة ، وهذه كانت المرة الاولى بعد ثلاثة ارباع قرن من المعارك والانقلابات •

وبذا تحول « جندي الثاني من نيسان » الى « بطل السلام » الذي يقضي على الفوضى لكنه يضحي بالحرية ، والذي يصالح المكسيكيين لكنه يحيي الامتيازات القديمة والذي ينظم البلاد لكنه يمد في عمر الاقطاعية الملحدة ذات التأريخ المتقطع ولم يعمل على تخفيف اي شيء (ذلك ان قوانين جزر الهند الغربية كانت تقضي بحماية الهنود) وشجع التجارة ومد السكك الحديد وأنقذ المالية العامة من الديون وانشأ اولى الصناعات الحديثة لكنه فتح الابواب امام الرأسمالية الانجلو اميركية ، وعاشت المكسيك في تلك السنوات حياة شبه استعمارية •

وعلى الرغم من الفكرة الشائعة فان دكتاتورية بورفيريو دياث كانت تعني عودة الماضي ، فظاهر الاشياء يشي بأن بورفيريو دياث كان يحكم البلاد مستوحيا الافكار السائدة • وكان يؤمن بالتقدم وبالعلم وبما تأتي به الصناعة من معجزات وبالتجارة الحرة • وكانت مبادئه هي مبادىء البرجوازية الاوربية عينها • غير أنه كان الدكتاتور الاكثر تنورا بين الدكتاتوريين الاسبان الاميركيين وكان نظامه يعيد الى ذاكرتنا احيانا سنوات « العصر البهي »

في فرنسا ، حيث راح المفكرون يطلعون على كونت ورينان وسبنسر ودارون ، والشعراء يقلدون الشعراء البرناسيين والرمزيين في فرنسا وغدت الارستقراطية المكسيكية طبقة متحضرة ومتمدنة • بيد ان الوجه الاخر لهذه العملة كان مختلفا تماما • فهؤلاء السادة العظام ، المولعون بالتقدم

هم ملاك اراضي اصابوا ثراء بعد ان ابتاعوا ممتلكات الكنيسة او بسبب وبالعلم ، ما كانت تربطهم أي رابطة بالصناعيين او اصحاب الشركات ، وانما عملهم في امور التجارة العامة ، في حين كان الفلاحون العاملون في ممتلكاتهم يحيون كالعبيد وهو الوضع الذي لا يختلف عما كانت عليه احوالهم في الحقبة الكولونيالية . اما من الناحية الايديولوجية فالسياسة البورفيرية كانت تتبجح بكونها الوريث الشرعي لليبرالية وبقي دستور ١٨٥٧ ساري المفعول نظريا ولم يكن هناك من أحد يسعى الى معارضة الاصلاح وافكاره من خلال طرح افكار مناقضة ولا من شيء ينذر بذلك . وفضلا عن ذلك ،فان الكثيرون بمن فيهم الليبراليون القدامى ، كانوا يفكرون بحسن نية في ان نظام دياث قد مهد للانتقال من الماضي الاقطاعي الى المجتمع الحديث ، غير أن السياسة البورفيرية ــ والحق يقال ــ هي وريث للاقطاعية الكولونيالية : فملكية الارض اقتصرت على بضعة من الملاك ، اما طبقة ملاك الاراضي فكانت تزداد رسوخا . وهكذا عاد الماضي مقنعا مزدهيا بحلة التقدم والعلم والشرعية الجمهورية ، الا انه عاد بلا خصبه ولم يعد هناك ما يمكن ان يتمخض عن شيء سوى التمرد .

لاجدال في أننا اليوم مدينون لليوبولدوثيا(٢٤) بالكثير لذلك التحليل الوافي للافكار التي طرحتها هذه المرحلة . فهو يرى ان تبني الفلسفة الوضعية فلسفة شبه رسمية للدولة جاء استجابة لبعض الحاجات الفكرية المعنوية في دكتاتورية دياث . كان الفكر الليبرالي أداة نقدية وفي الوقت نفسه بناء يوتوبيا يضم بين دفتيه مبادىء انفجارية . وكان الاستمرار على اتباع تلك السياسة سيعني استمرارا للنظام الفوضوي . لذلك برزت حاجة الى فلسفة نظامية في فترة السلم . وقد عثر مفكرو تلك الفترة على ضالتهم في

(٢٤) ليوبولدو ثيا (١٩١٢ــ) : كاتب وفيلسوف مكسيكي من اعماله « تاريخ الافكار في أميركا الايبرية » . (المترجمة)

فلسفة كونت الوضعية وقانون الاطوار الثلاثة الذي نادى به ومن ثم في فلسفة سبنسر وفي اراء دارون في « التطور » اما مبدأ المساواة بين البشر ، ذلك المبدأ البدائي المجرد والثوري الذي يؤمن بحكم الضمائر ، فقد استبدلت به نظرية الصراع من اجل الحياة والبقاء للاصلح . واخذت الفلسفة الوضعية تقدم تبريرات جديدة لنظام التدرج الاجتماعي ، حينئذ لم يعد الدم ولا الارث ولا الرب من يفسر أسباب حالات اللامساواة القائمة بل باتت قصرا على العلم .

يكاد التحليل الذي قدمه « ثيا » يكون غاية في الكمال لو لا نقطة واحدة. حقا ان الفلسفة الوضعية عبرت عن افكار البرجوازية الاوربية في لحظة معينة من تأريخها وأن تعبيرها ذلك كان طبيعيا وعضويا ، غير ان فائدتها في المكسيك راحت تعود على طبقة حديثة العهد نسبيا قدر تعلق ذلك بالأسر التي كانت تشكلها . فقد حققت ثراءها ونفوذها جميعا في الفترة التي اعقبت حرب الاصلاح مباشرة لكنها تاريخيا لم تفعل شيئا سوى انها حلت محل الارستقراطية الاقطاعية وأصبحت وريثا لها في المستعمرة ، لذلك ، فاذا كانت وظيفة الفلسفة الوضعية هنا وهناك متشابهة فان العلاقة التأريخية والبشرية القائمة بين هذا التيار والبرجوازية الاوربية تختلف عن تلك التي تكونت في المكسيك بين « الاقطاعيين الجدد » والفلسفة الوضعية .

لقد اعتمدت البورفيرية الفلسفة الوضعية ، الا أنها لم تأت بها ، وهذا ما جعلها تجد نفسها في وضع استقلالي اكثر خطورة من وضع الليبراليين اللاهوتيين الكولونياليين لانها لم تتخذ ازاءها موقفا نقديا ولم تعتنقها بحسن نية تام . وفي بعض الحالات كان الامر يتعلق بواحد من تلك المواقف التي كان انطونيو كاسو[٢٥] مقتديا بتارده يسميها بـ « التقليد ما فوق المنطقي » :

---

(٢٥) انطونيو كاسو : (١٨٨٣–١٩٤٦) : كاتب مكسيكي من مؤلفاته « فلسفة الحدس » و « المذهب والافكار » .
(المترجمة)

اي غير الضروري والفائض والمخالف لشرط المقلد . وهكذا تخلق هوة بين النظام والشخص الذي يعتمد ذلك النظام ، ربما تكون هوة هشة ، لكنها تجعل كل علاقة أصيلة بالافكار التي تتحول احيانا الى أقنعة مستحيلة . وكانت البورفيرية فعلا مرحلة تفتقر الى الاصالة التأريخية . فسانتآنا يبدل بفرح الاقنعة التي يتنكر بها وكأنه الممثل الذي لايؤمن بما يقول . لقد بذلت البورفيرية قصارى جهودها كي تبلغ حالة الايمان وكي تتبنى الافكار التي اعتمدتها .. لذا عاشت في حالة « تصنع » بكل ما تعنيه هذه الكلمة .

بيد ان التصنع البورفيري اكتسب خطورة خاصة ، اذ انهم عندما اعتنقوا الوضعية صادروا نظاما لم يكن عائدا لهم تأريخيا لان طبقة كبار الاقطاعيين لم تكن لتشكل المعادل المكسيكي للبرجوازية الاوربية فضلا عن ان الشبه بين مسؤولياتها ومسؤوليات مثيلاتها كان مفقودا . كانت افكار سبنسر وستيورات مل تدعو الى ايجاد مناخ تأريخي يسعى الى تطوير الصناعات الكبرى والديمقراطية البرجوازية وحرية ممارسة الانشطة الفكرية، في حين ان دكتاتورية دياث القائمة على الملكيات الزراعية الكبيرة والحكم القبلي المستبد وغياب الحريات الديمقراطية لم تستطع ان تأخذ على عاتقها تطبيق تلك الافكار دون ان تلجأ الى انكار ذاتها او الى تحريفها . وبذلك تحولت الوضعية الى حالة تطابق تأريخي نوعا ما اكثر خطورة من سابقاتها لانها قامت على الخطأ . وكان ينهض بين ملاك الاراضي والافكار السياسية والفلسفية جدار لا مرئي من سوء الطوية ، ومن جرائه آل مصير البورفيرية الى التفكك .

لم يكن تنكر السياسة ألوضعية مكرسا لتضليل الشعب ، بل لاخفاء العري الاخلاقي الذي اتصف به النظام تجاه المنتفعين به . فهذه الافكار لم تبرر التدرج الطبقي تجاه المعوزين (ممن كانت الكاثوليكية قد هيأت لهم مكانا بارزا في العالم الاخر ومنحتهم الليبرالية كرامتهم بشرا) . لان

الفلسفة الجديدة لم يكن في جعبتها ما تقدمه للفقراء وباتت مهمتها تقتصر على تبرير « ضمير البرجوازية الاوربية المريض »[٣٦] . ففي المكسيك اتسم الشعور بالذنب بطابع خاص : اي انه كان ينطوي على سبب تأريخي مزدوج، اذ ان الاقطاعيين الجدد كانوا ورثة لليبرالية وأخلافا للارستقراطية الكولونيالية في آن واحد . وكان لابد للموروث الفكري والاخلاقي الذي خلفته مبادىء الاصلاح ولحق الاتنفاع بممتلكات الكنيسة من ان يزرعا في دخيلة الفئة الحاكمة شعورا بليغا بالذنب وأضحت ادارتهم المجتمع نتيجة لعملية نهب وخطأ مرتكب . الا ان السياسة الوضعية لم تعالج ذلك الوضع الشائن ولم تخفف من حدته ، بل ، على العكس راحت تؤججه لان جذورها لم تكن ضاربة عميقا في ضمائر اولئك الذين اعتمدوها . وبذا أصبح الكذب والزيف هما الخلفية السايكولوجية للسياسة الوضعية المكسيكية .

وجاءت الدكتاتورية لتكمل عملية الاصلاح على طريقتها الخاصة . وقطعت الامة اخر الاسباب التي كانت تصلها بالماضي بسبب اعتماد الفلسفة الوضعية . واذا كان الغزو قد حطم المعابد فالمستعمرة شيدت غيرها . وقابل الاصلاح التقاليد بالنكران لكنه قدم لنا صورة شاملة عن الانسان ، في حين أن السياسة الوضعية لم تقدم لنا اي شيء ، بل انها على النقيض عرت تماما المبادىء الليبرالية ، تلك الكلمات الرائعة التي لا تصلح للتطبيق واختصرت هيكل الاصلاح ، ذلك المشروع التأريخي العظيم الذي تأسست المكسيك على وفقه أمة كرست نفسها لتحقيق ذاتها في بعض الحقائق العالمية ، الى حلم ويوتوبيا وغدت مبادئه وقوانينه اطارا جامدا راح يضيق الخناق على تلقائيتنا ويبتر كينونتنا . وهكذا ألفى الشعب نفسه بعد مائة عام من الصراعات اكثر وحدة من اي زمان مضى ، اذ اصاب الفقر حياته الدينية وامتهنت ثقافته الشعبية حتى آل بنا الامر الى فقدان كل انتماء تأريخي لنا .

---

(٣٦) وردت هذه العبارة بالفرنسية في النص الاصلي . (المترجمة)

ان الصورة التي تقدمها لنا المكسيك بعيد انتهاء القرن التاسع عشر هي صورة الشقاق .. الشقاق الذي يفوق الخلاف السياسي او الحرب الاهلية عمقا لانه كان يكمن في تركيب الصيغ القانونية والحضارية التي بدت بعيدة كل البعد عن التعبير عن واقعنا ، بل أنها فضلا عن ذلك أخذت تخنقه وتشله . وترعرعت في ظل حالة الشقاق تلك طائفة عجزت عن أن تتحول الى طبقة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، فقد كانت تحيا حياة يسممها الكذب والعقم . وبعد ان قطعنا روابطنا بالماضي ، واصبح الحوار مع الولايات المتحدة ، التي لم تعتد مخاطبتنا بسوى منطق القوة او لغة التجارة ، مستحيلا وبعد شعورنا بلا جدوى العلاقة بالشعوب الناطقة بالاسبانية وانغلاقنا على انفسنا داخل صيغ متحجرة ، بلغنا حدا أختصرنا فيه أنفسنا الى محض تقليد احادي الجانب لفرنسا التي كثيرا ما تجاهلتنا . اذن ، ما الذي تبقى لنا ؟ لاشيء سوى الاختناق والوحدة .

واذا كان تأريخ المكسيك هو تأريخ شعب يمضي باحثا عن صيغة تجسده فتأريخ المكسيكي هو تأريخ انسان يصبو الى التواصل مع الاخرين . وكان خصب الكاثوليكية الكولونيالية ينبع أولا وقبل كل شيء من كونها مشاركة . فاذا ما قدم لنا الليبراليون افكارا فان تناول القربان المقدس في الكاثوليكية لا يتم من خلال الافكار مالم تتجسد هذه دما ولحما وتصبح زادا ، لان التناول مأدبة وطقس احتفالي . وبعد أنتهاء القرن التاسع عشر ، اخذ المواطن المكسيكي والامة بأسرها يشعران بالاختناق داخل تلك الكاثوليكية الجاسئة ووسط العالم الذي شيدته تلك الفلسفة شبه الرسمية التي اعتمدها النظام والتي لا منفذ لها ولا رجاء منها .

كان « خوستو سييرا » أول من ادرك المغزى الذي ينطوي عليه ذلك الوضع . وعلى الرغم من أن أسلافه كانوا من الليبراليين والوضعيين فهو المكسيكي الوحيد الذي جعل من التأريخ شغله الشاغل وهاجسه . ولذلك

نجد أن الجزء الاكبر قيمة والاكثر خلودا في اعماله هو تأملاته في التاريخ العالمي وتأريخ المكسيك التي أتخذ فيها موقفا يختلف جذريا عن مواقف كل من سبقه • فالتأريخ نفسه بالنسبة الى الليبراليين والوضعيين يفتقر الى المغزى ، وهو شيء خامل لا يكتسب معنى سوى في حالة واحدة : حينما يعكس نظاما عالميا • الا ان سييرا فهم المكسيك واقعا مستقلا وحيا في الزمان : الامة هي ماض ملتو يتقدم صوب المستقبل ، والحاضر مفعم بالرموز • خلاصة القول لا الدين ولا العلم ولا اليوتوبيا بقادرة على تبرير وجودنا وتأريخنا شأنه شأن اي شعب آخر ، له مغزى واتجاه ، ولعل سييرا لم يكن يعي وعيا تاما ما يفعل حينما استخدم فلسفة التأريخ ردا ممكنا على وحدتنا ونصبنا •

واخلاصا منه لمبادئه تلك اسس الجامعة ، اذ يقول في الكلمة التي القاها في حفل الافتتاح ان المعهد الجديد « لا اجداد له ولا اسلاف •• فرواق جامعة المكسيك الملكية البابوية •• وهيأتها لا يعدان سلفا لنا بل هما ماض ، وعلى الرغم من ذلك فاننا نستذكره بنوع من الانتماء ، قد لا يكون اراديا ، لكنه استذكار لا يخلو من المشاعر والاهتمام » • تبدي لنا هذه الكلمات كم اضحت عميقة تلك القطيعة مع المستعمرة عند الليبراليين ومن خلفهم • ثم أخذ سييرا يطعن في العلمانية الليبرالية والوضعية لقصورهما ، ومن جانب آخر يرفض الدوغمائية الدينية ويرى ان العلم والعقل هما الملاذ الوحيد للانسان الذي يستحق ثقته ، الا انه كان يعدهما ادوات ولذلك فلابد لها من ان تعمل على خدمته وخدمة الامة ، اذ ذاك حسب « سيكون للجامعة القدرة الكافية على تنسيق الخطوط الرئيسة في الشخصية القومية » •

وأردف قائلا في فقرة اخرى من خطابه : ان الحقيقة لما تصنع بعد ، وهي ليست بالشيء المحدد كما كان يعتقد الاسكولائيون في العصر الوسيط او المؤمنون بالميتافيزيقيا العقلانية ، فالحقيقة تجدها موزعة على الحقائق الخاصة

بكل علم من العلوم واعادة تشكيلها كانت تعد احدى مهام العصر ، واذا ما تركت دونما اسم فان ذلك يعني استحضار الفلسفة الغائبة في التعليم الوضعي ولذلك اوشكت الفلسفة الوضعية ان تصطدم بالمذاهب الجديدة .

اصبحت كلمات وزير التعليم العام فاتحة لفصل آخر في التأريخ الفكري في المكسيك ولكنه لن يكون الشخص الذي سيتخذ على عاتقه كتابة ذلك الفصل ، بل مجموعة من الشباب من مثل انطونيو كاسو ، خوسيه باسكونثيلوس[٢٧] ، الفونسو رييس وبيدرو أينريكث اورينيا[٢٨] ، اذ تصدوا جميعا لنقد الفلسفة الوضعية حتى انتهى بها الامر الى الكساد . كان هاجسهم الفكري يتوافق وحالة بحث اكثر مأساوية : الا وهو البحث الذي شرعت فيه البلاد عن ذاتها في اثناء الصراع الاهلي .

بدت الثورة المكسيكية حدثا اقتحم تأريخنا بوصفه حالة كشف حقيقية عن كينونتنا . وقد كانت هنالك الكثير من الاحداث التي رسمت التأريخ السياسي في البلاد والتأريخ الاكثر سرية لكينونتنا القومية ، تلك الاحداث التي مهدت للثورة والتي لم تطالب بها سوى اصوات قلائل كان معظمها واهيا وغير واضح النبرات . اذن ، لقد توافرت للثورة المقدمات والاسباب والدوافع ، الا انها كانت تفتقر الى الرواد على نحو مؤثر . اما الاستقلال فلم يكن بالثمرة التي تمخضت عنها ظروف تأريخية شتى حسب بل هو حركة فكرية شاملة استهلت في المكسيك في القرن الثامن عشر ، في حين ان الاصلاح جاء حصيلة جهود وفكر اجيال عدة من المفكرين ممن هيأوا له وبشروا به وتولوا مهمة انجازه أي أنه من صنع « الانتلجنسيا » المكسيكية . ولقد طرحت الثورة نفسها في البدء على انها ضرورة حقة وعملية تنقية للمنهج

---

(٢٧) خوسيه باسكونثيلوس (١٨٨١-١٩٥٩) : كاتب وسياسي مكسيكي كتب في مختلف الانواع الادبية وفي علم الاجتماع والفلسفة منها « بروميثيوس ظافرا » و « العاصفة » و « الفجيعة » . (المترجمة)

(٢٨) بيدرو اينريكث اورينيا : كاتب وناقد ولغوي مكسيكي . (المترجمة)

الديمقراطي ، وهذا ما يمكننا ان نلاحظه متجسدا في خطة سان لويس[٢٩] (في الخامس من تشرين الاول ــ ١٩١٠) اذ استطاعت الحركة في مرحلة النضال او بعد تسلمها زمام السلطة ان تحقق لها وجودا وان ترسم ملامح شخصيتها، وقد منحها غياب برنامج سابق لها اصالة وصدقا شعبيين • وفي هذا كانت تكمن عظمتها وضعفها على حد سواء •

اعتدنا ان نعرج على ذكر مجموعة متفرقة ومنعزلة ممن عدوا من رواد الثورة وهـم : اندريس مولينا اينريكث ، فيلومينوماتا ، باولينو مارتينث ، خوان سارابيا انطونيو بياريال وريكاردو واينريكه فلورس ماغون الذين لم يكن أي منهم مفكرا حقيقيا ، اي شخصا يطرح على نحو شامل واقع المكسيك كمشكلة أو يقدم مشروعا تأريخيا جديدا • فقد كان مولينا اينريكث يمتلك تصورا واضحا عن المشكلة الزراعية ، الا أنني لا أعتقد ان الثوريين قد افادوا من ملاحظاته في وقت متأخر وفي فترة لاحقـة لخطة أيالا[٣٠] (في ٢٥ تشرين الثاني ١٩١١) وهـي الوثيقـة السياسية التي تلخـص طموحـات أتباع ثاباتا[٣١] ••• ولا يلاحظ تأثير فلورس ماغون وهو واحد من رجالات الحركة العمالية الاكثر نقاء في قوانيننا العمالية • وكانت فوضويته بالضرورة بعيدة عن ثورتنا على الرغم من ان الحركة النقابية المكسيكية بدأت متأثرة بالافكار الفوضوية النقابية •

---

(٢٩) خطة سان لويس : الخطة التي وضعـت للحيلولة دون اعـادة انتخـاب الرئيس بورفيريو دياث . المترجمـة

(٣٠) خطة أيالا : خطة وضعها اميليانو ثاباتا في ١٩١١ واشترط فيها توزيـع الاراضي على المزارعين المكسيكيين . (المترجمة)

(٣١) اميليانو ثاباتا : (زاباتا) (١٨٨٣ـ١٩١٩) : ثائر وسياسي مكسيكي . كان واحـدا من ابرز الزعمـاء والقادة الذين فجـروا الثـورة المكسيكية في ١٩١٠) . (المترجمة)

وهكذا أصبح الاستقلال والاصلاح تحديدا حركتين تعكسان ايديولوجيات ذلك العصر وتديمانها وتكيفانها له • يقول سيلبا أيرثوغ[٣٢] « لم تكن هنالك قواسم مشتركة بين ثورتنا والثورة الروسية ولا حتى ظاهريا • فثورتنا سابقة لها • ترى كيف يمكن اذن ان تكون قد قلدتها ؟ ومنذ اواخر القرن الماضي حتى عام ١٩١٧ لم تكن تستخدم في الادبيات الثورية المكسيكية المصطلحات الاشتراكية الاوربية ، لان حركتنا الاجتماعية ولدت من صلب هذه الارض ومن قلب الشعب النازف ثم اضحت مأساة مؤلمة وخلاقة في الوقت عينه • ومن هنا بات غياب المفكرين الرواد وشحة الروابط التي تصلنا بالايديولوجية العالمية هما الملمحين البارزين للثورة ومصدر الكثير من صراعاتنا واضطراباتنا اللاحقة » •

أمست المقدمات غير المباشرة للحركة معروفة • ففي المقام الاول يقف الوضع السياسي الاجتماعي للبلاد ، اذ نمت الطبقة الوسطى بفضل ما قدمته لها التجارة والصناعة من دعم ، فقد كان الجزء الاعظم منهما تحت سيطرة الايدي الاجنبية التي كانت توظف كادرا محليا • وبرز جيل جديد قلق وتواق الى التغيير وبذلك اتحد صراع الاجيال بعدم الوفاق الذي تحيا فيه فئات المجتمع • وكانت حكومة دياث تضم اصحاب الامتيازات والشيوخ الذين كانوا يرفضون التنازل عن السلطة ، اما الشباب فقد جسدوا رفضهم في تطلعهم الى رؤية المبادىء الليبرالية وقد تحققت ذات مرة • حينئذ بدت المثل الثورية الاولى سياسية على نحو طاغ وساد اعتقاد مؤداه ان ممارسة الحقوق الديمقراطية ستجعل تغيير الوسائل والافراد ممكنا •

---

(٣٢) خيسوس سيلبا ايرثوغ (١٨٩٢– ؟) : سياسي واقتصادي مكسيكي شغل مناصب عدة . وهو مؤسس المجلة العريقة (كواديرنوس امريكانوس) . له مؤلفات اقتصادية على قدر كبير من الاهمية منها «الفكر الاشتراكي» و « الفكر الاقتصادي في المكسيك » . (المترجمة)

وهنا لابد ان نضيف الى قلق الطبقة المتوسطة هذا القلق الـذي كان يساور الطبقة العمالية الحديثة العهد • لأن التشريعات الليبرالية لم تتضمن اي فقرة تنص على الدفاع عنها ازاء انتهاكات المتنفذين • وصـار العمـال والفلاحون يحيون دونما حماية في مواجهة شيخ القبيلة والسادة الاقطاعيين والصناعيين • وفي حين اشتهر الفلاحون المكسيكيون بتقاليدهـم العريقة في النزاعـات ، كـان العمـال تنقصهم الحقوق الاساسية واي تجربة او نظرية تدعم مطاليبهم وتبرر معركتهم على حد سواء • وجعل غياب التقاليد الخاصة بهم من الطبقة العاملة الطبقة المنتزعة الارث بامتياز ، وعلى الرغم مـن هذه الاوضاع اندلعت موجة من الاضرابات التي سرعان ما قمعت بلا هوادة • ومن ثم قرر العمال في وقت لاحق فصلا من اهـم فصول ذلـك الصراع الاهلي : اذ تحالف قادتهم مع كارانثا[٣٣] وأبرموا معـه في السابع عشر من شباط ١٩١٥ « حلف دار العامل العالمية والحركة الدستورية » لقاء تشريع عملي يربط البروليتارية باحدى الفصائل التي تمخض عنها انقسام الحركـة الثورية ، ومذاك بدأت الطبقة العمالية تعتمد اعتمادا ، يزداد تارة ويقل اخرى، على الحكومات الثورية وهو الظرف ذو الاهمية القصوى لفهم مكسيك اليوم مثلما سنرى فيما بعد •

ثمة ظرف آخر شجع على قيام الثورة الا وهو وضـع حكومـة ديات الدولي •فعندما اتبع بورفيريوديات سياسة حظيت بثناء الليبراليين من امثال ليردو[٣٤] واعضاء حزب المحافظين قاطبة تقريباً ، فقد قصد الحد من التأثير

---

(٣٣) بينوستيانو كارانثا : (١٨٥٩ــ١٩٢٠) عسكري وسياسي مكسيكي تبوا مناصب عدة . له الفضل في الدعوة الى عقد المؤتمر الذي اصدر دستور ١٩١٧ . (المترجمة)

(٣٤) سيباستيان ليردو : (١٨٢٧ــ١٨٧٦) سياسي مكسيكي تولـى رئاسـة المكسيك من (١٨٧٢ــ١٨٧٦) من مشجعي الاصلاح .
(المترجمة)

الاقتصادي الاميركي باللجوء الى الرأسمالية الاوربية • « لقد اثارت العلاقات الدولية بالغ القلق في حكومة بورفيريوديات في أواخر ايامها • كما أثار الدعم الممنوح للرأسمال الانجليزي حفيظة اصحاب الرأسمال الاميركي • وكانت هناك أسباب اخرى لذلك البرود كالحماية التي قدمها ديات الى رئيس نيكاراغوا ورفضه تمديد بقاء اسطول الولايات المتحدة في خليج لاماغدلينا والخطأ الذي ارتكبه المحكم الكندي الى جانب المكسيك في صراع الحدود المعروف باسم تشاميثال » • لاريب اذن في ان الولايات المتحدة الاميركية قد سمحت بالعمل السياسي للثوار في اراضيها ، بيد انه من غير الجائز اختصار الثورة المكسيكية ، مثلما يرغب بعض المحافظين ، الى مؤامرة من تدبير امبريالية اليانكي • كما ان التدخل اللاحق للسفير الاميركي في الانقلاب المناهض للثورة الذي اطيح فيه بالرئيس ماديرو[٣٥] يبرهن لنا الى اي مدى ينبغي أن يتحدد التأثير الاجنبي في سير الثورة •

واذا كانت الاضرابات واعمال الشغب التي قام بها الفلاحون قد قوضت البنية الاجتماعية ايام الدكتاتورية مثلما زعزع القلق السياسي في المدن ثقة ديات بالدعم الشعبي ، فاننا سنجد في المجال الفكري ان شابين هما انطونيو كاسو وخوسيه باسكونثيلوس قد تصديا لانتقاد فلسفة النظام • وستشكل أعمالهما جانبا من عملية التحديث الفكري الواسعة النطاق التي اضطلعت بها المجموعة المعروفة باسم « أتينيو الشبيبة » •

ففي عام ١٩٠٩ شرع انطونيو كاسو في دراسة الفلسفة الوضعية • ثم اعلن رفضه للنظرية المعتمدة رسميا في الدورة الدراسية التي اشتملت على سبع محاضرات (الثلاث الاولى منها مكرسة لدراسة كونت ورواده والاربع

---

(٣٥) فرانثيسكو ماديرو (١٨٧٣–١٩١٢) : سياسي مكسيكي لعب دورا بارزا في اصدار خطة سان لويس . له كتاب « الخلافة الرئاسية » .
(المترجمة)

الأخريات للفلسفة الوضعية المستقلة) اي ستيورات مل وسبنسر وتين[٣٦] وتطرق في بحثه المقـدم آنذاك الى فلسفة « الطـارىء » التي نادى بها بوترو[٣٧] والى بعض افكار بيرغسون ، وفي ختام محاضراته أعلن فلسفتـه الشخصية • والفقرة الاتية تبين لنا كيف يروي أينريكث اورينيا قصة قراره العلني ذاك : « ازاء غزو البراغماتية الوشيك والاتجاهات المثيلة لها نصب كاسو نفسه مفكرا واشاد بالبناة الميتافيزيقيين الافذاذ : أفلاطون وسبينوزا وهيغل • وفي الوقت عينه اعلن مثاليته فيما يتعلق بمشكلة المعرفـة ••• ثم اختتم مجاهرته بافكاره تلك بعبارة (كل شيء فكر ••) لهنري بوانكاريه الحكيم البراغماتي • لقد كانت محاضرة كاسو الاخيرة مرافعة لمصلحة التأمل الفلسفي • وهكذا عاد صوت الميتافيزيقيا المطالبة بحقوقها الثابتة ليسمع ثانية بين اروقة مدرسة الاعداد ، تلك المدرسة الوضعية العريقة » •

اما باسكوتشيلوس فقد كان نموذجا للمفكر ـ المضـاد • ففيلسوف الحدس هذا كان يحسب العاطفة هي القـوة الوحيدة القادرة علـى ادراك الشيء • والمعرفة هي رؤية شمولية وفورية للواقع • ثم يصيغ باسكوتشيلوس في وقت لاحق « فلسفة العرق الايبروأميركي » التي ستديم تيارا بالغ الاهمية في الفكر الاسباني الاميركي • غير ان تأثير هذا المفكر لن يغدو ملموسا بعد انقضاء سنوات ، اي عندما يشغل منصب وزير التعليم العام في حكومة النظام الجديد •

كان النقد الموجه الى الفلسفة الوضعيـة حاسما في تأريـخ الفكـر المكسيكي وهو أحدى المقدمات التي لاغنى عنها في الثورة •• بيد انه شكل

---

(٣٦) ايبوليث تين (١٨٢٨ـ١٨٩٣) : فيلسوف وناقـد ومؤرخ فرنسي لـه مؤلفات عدة منها « فلسفة الفن » و « تأريخ الادب الانجليزي » •
(المترجمة)

(٣٧) اميل بوترو (١٨٤٥ـ١٩٢١) : فيلسوف فرنسي ، كان استاذا لبيرغسون •
(المترجمة)

سابقة سلبية ، لان كاسو ورفاقه نسفوا فلسفة النظام شبه الرسمية دون أن تقدم أفكارهم من جانب اخر مشروع اصلاح وطنيا جديدا . فموقفه الفكري قلما كان يمت بصلة الى تطلعات الشعب وهمومهم حينذاك . وكان الفرق بينه وبين الجيل الليبرالي باديا للعيان . وما كان لهذا الوضع ان يمر دون أن يخلف اثارا جسيمة في تأريخ المكسيك المعاصر . وما ان جردت الثورة من المذاهب السابقة البعيدة عنها او الخاصة بها حتى استحالت انفجارا في الواقع وبحثا عن مغريات النظرية العالمية . ولكن اذا كان فكر كاسو لم يمارس تأثيره في نظرية الثورة فان الحب الراسخ الذي يكنه للمعرفة والذي حداه على مواصلة دراسته حينما كانت الفصائل تخترق الشوارع ، قد صنع منه مثالا رائعا لكل ما تعنيه الفلسفة وهو الحب الذي لا يبغي شيئا ولا يقف في سبيله شيء .

هذا هو شأن المقدمات الاكثر اهمية للثورة وقد كثفناها على نحو اجمالي ، لتشابك أسبابها العميقة والقليلة بحياة المكسيك نفسها .

ومما يميز حركتنا ذلك الافتقار الى نظام ايديولوجي سابق والجوع الى الارض . فالفلاحون لم يفجروا الثورة بغية تحقيق ظروف حياتية أفضل حسب ، بل استرجاع الاراضي التي انتزعها منهم المشرفون واصحاب الاقطاعيات الكبيرة ابان الاستعمار في القرن التاسع عشر .

كانت « الكالبوليي » هي الصيغة الاساسية المعتمدة في ملكية الاراضي قبل الغزو . وهذا النظام كان يقوم على « توزيع السكان على احياء متعددة او « كالبوليي » ولكل واحد من هذه الاحياء مساحة معينة من الاراضي ، لم تكن تعود فرديا الى اي من السكان بل كانت توهب لعائلة ما او لقبيلة . اي بمعنى ان من يهجر « الكالبوليي » او من يتخلى عن زراعة الاراضي التي تعين له يفقد حق التمتع بالملكية الجماعية » . وقد أمنت قوانين جزر الهند الحماية لهذه المؤسسة. وفي هذا الصدد ، نجد أن الفقرات المخصصة للدفاع عن

ملكية السكان الاصليين العامة في حالات الاستغلال والنهب بكل اشكاله كثيرة . ولم تكن نصوص قانون جزر الهند المثير للاعجاب لتحظى دوما بالاحترام حتى أصبح وضع الفلاحين في اواخر القرن الثامن عشر مخيبا للامال . ومن جانب آخر فان موقف موريلوس ، أحد الزعماء المكسيكيين القلائل الذين وعوا المشكلة ، يبين لنا الى اي مدى خلفت اوضاع الريف المزرية آثارها في حرب الاستقلال . ثم جاء الاصلاح ليرتكب خطأ فادحا عندما حل ملكية السكان الاصليين العامة على الرغم من وجود بعض المعارضين مثل بونثيانو ارياغا[٣٨] وفي وقت لاحق قضى نظام دياث على آخر بقايا « الملكية الفلاحية » بعد ان سن جملة من قوانين الاستيطان والاحتلال وحق التصرف بالاراضي البور ، وبذلك انهى كل الخصائص التي كانت تميز نظام الملكية في المكسيك حتى ذلك الحين » .

تضمنت معظم البرامج والبيانات التي وضعتها الفئات الثورية تقريبا اشارات الى المسألة الزراعية . الا ان ثورة الجنوب وقائدها اميليانو ثاباتا هما الوحيدان اللذان طرحا المشكلة بكل وضوح وحزم وبساطة . ولا أحسبها مصادفة أن يصبح ثاباتا ذلك الانسان الذي ألتقت فيه روعة الصورة الشعبية وجمال الشعر فيها « موديلا » غير مرة لرسامي المكسيك .. فقد عد واحدا من ابطالنا الاسطوريين الى جانب موريلوس وكواوتيموك . كانت الواقعية والاسطورة تتوحدان في شخصه المحزون المتأجج حماسا والمترع املا . ذلك الانسان الذي مات مثلما كان يحيا ، معانقا الارض ، مثله مثلها .. كلاهما قد من الصبر والخصب ، من الصمت والرجاء ومن الموت والبعث . لقد ضم برنامجه افكارا قليلة بل هي تحديدا اللازمة لتحقيق قفزة في الصيغ الاقتصادية والسياسية التي كانت تقمعنا . فالفقرتان السادسة

---

(٣٨) بونثيانو ارياغا (١٨١١–١٨٦٥) : سياسي ورجل قانون مكسيكي لقب بـ « عراب دستور ١٨٥٧ » . المترجمة

والسابعة من خطة أيالا اللتان تنصان على اعادة وتوزيع الاراضي اشترطتا احداث تغيير في نظـام الملكيـة الزراعيـة وفتحتـا الابواب امام مكسيك اليوم • وباختصار ، فان برنامج ثاباتا كان يقوم على تصفية الاقطـاع وسـن تشريعات تنسجم وواقع المكسيك •

يقول أورتيغا اي غاسيت ان اي ثورة هي محاولة لاخضاع الواقـع لمشروع عقلاني • ومن هنا كانت الروح الثوريـة تدرك ذاتها ، اشتراطـا راديكاليا من اشتراطات العقل ، وقد تبدو فكرة اورتيغا أي غاسيت بدورهـا غاية في الراديكالية • فلطالما لاحظت أن الثورات على الرغم من أنها تطرح نفسها دعوة لتحقيق افكار محددة في مستقبل قريب الى حـد ما الا انهـا تتأسس على فكرة اعادة احلال العدالة او النظام القديمين اللذين تعرضـا لانتهاكات المتعسفين ، وكل ثورة انما ترمي الى اقامة عصر اسطوري • فالثورة الفرنسية وضعت برنامجها على عقيدة مؤداها ان اعادة خلق الظروف المثالية التي نادى بها العقد الاجتماعي كافية لتحقيق الوفاق في المجتمع • والماركسية أيضا لجأت الى النظرية الشيوعية البدائية كمقدمة للنظام الـذي وعـدت بارسائه • وبات « العود الابدي » هـو احـد الافتراضات الضمنيـة التي بنيت عليها النظريات الثورية كلها تقريبا •

اما كارل ماركس فقد كان يقول «انما كل راديكالية انسانية» لان الانسان هو أصل العقل والمجتمع • وبهذا السياق باتت الثورات جميعا تتطلع الى بناء عالم يتمكن الانسان فيه ، ان هو تحرر في نهاية الامر من اغلال العالم القديم، من التعبير عن نفسه تعبيرا صادقا ومن الايفاء بشرطه الانساني • فالانسان كائن لن يقيض له تحقيق ذاته ولن يصبح هو نفسه بسوى المجتمع الثوري • وهذا المجتمع بدوره يبني آماله على طبيعة الانسان التي ماهي بالشيء المحدد او الجامد لانها تكمن في سلسلة من الممكنات التي احبطها نظام يعمل على القضاء عليه • اذن كيف لنا ان نعرف ان الانسان هو امكانية وجود أحبطها

الظلم ؟ هنا نستحضر الفكرة الاسطورية عن « عصر ذهبي » : ذات يوم ، في مكان ما من العالم وفي لحظة ما من التأريخ ، كان ثمة وضع اجتماعي يبيح للانسان التعبير عن ذاته وتحقيقها . وذلك العصر انما أرهص بالعصر الجديد الذي يقترح الثوري اجتراحه ويتنبأ به ، لان اليوتوبيا تكاد تفترض دوما وجودا سابقا « لعصر ذهبي » ذات ماض غابر يسوغ العمل الثوري ويجعله ممكنا .

ولعل الاصالة التي اتسمت بها خطة أيالا تنبع من ان هذا « العصر الذهبي » ماهو بحالة خلق بسيطة يتولاها العقل ولا هو بالفرضية . فالحركة الزراعية في المكسيك تشترط استرجاع الأراضي بمقتضى شرط قانوني أو الفقرات التابعة له . واذا كانت تنص على توزيع الاراضي فالغاية منها هي شمول القرى والمزارعين جميعا الذين لا يشملهم باب قانوني معين بالفوائد التي يمكن ان تحققها حالة تقليدية ما . اما الحركة الثاباتية فقد سعت الى تصحيح تأريخ المكسيك ومغزى وجود الامة عينه . وهو الامر الذي لن يصبح المشروع التأريخي للحركة الليبرالية ، لأنها لم تفهم المكسيك على انها مستقبل لابد من ان يتحقق بل عودة الى الجذور . وراديكالية الثورة المكسيكية تنبع من اصالتها ومن الرجوع الى جذورنا وهو الاساس الوحيد الذي تقوم عليه مؤسساتنا . وعندما جعلت الثاباتية صيغة « الكالبوليي » الركيزة الرئيسة في نظامنا الاجتماعي والاقتصادي فأنها انقذت لنا الجزء الصالح من التقاليد الكولونيالية واثبتت ايضا على حد سواء ان كل بنية سياسية خصبة حقا لابد لها من ان تنطلق من الجزء الاكثر عراقة ورسوخا وخلودا في أمتنا الا وهو ماضي السكان الاصليين .

وهكذا كشفت لنا تقليدية ثاباتا عن الوعي العميق الذي تمتع به هذا الرجل الذي توحد بشعبه وبعرقه . فوحدته التي لم تسمح له بتقبل الافكار التي كان يتحكم فيها صحفيو عصره وكويتبوه في بحثهم عن جنرالات يقدمون

لهم المشورة ، تلك الوحدة الشبيهة بوحدة البذرة المغلقة على نفسها ، أمدته بالقوة والعمق اللازمين للمس الحقيقة البسيطة اذ ان حقيقة الثورة كانت غاية في البساطة وكانت تتجسد في تمرد الواقع المكسيكي الذي قمعته الاجهزة الليبرالية وانتهاكات المحافظين والمحافظين الجدد •

اضحت الثاباتية رجوعا الى اكثر تقاليدنا قدما وخلودا • فهي في معناها العميق كانت رفضا لما قام به الاصلاح ، لأنها كانت تمثل عودة الى ذلك العالم الذي أراد الليبراليون الانطلاق منه دفعة واحدة • ثم تحولت الثورة الى محاولة لاعادة اندماجنا في ماضينا ، او على حد قول ليوبولدوثيا محاولة لاستيعاب تأريخنا ، ونحن نخلق منه شيئا حيا : اي ماض يستحيل حاضرا • ولكن هذه الرغبة في الاندغام وفي العودة الى الجذور تتضارب وموقف مفكري العصر الذين لم يبدوا عجزا عن ادراك كنه الحركة الثورية حسب بل ما فتئوا يضاربون بافكار لاتجدي فتيلا سوى أنها أقنعة •

ان عجز « الانتلجنسيا » المكسيكية عن صب تطلعات الشعب الغامضة في نظام ما متماسك سرعان ما تجلى واضحا حينما لم تعد الثورة واقعا غريزيا وتحولت الى نظام • وكانت الحركتان البليه[39] والثاباتية وهما الفئتان التوأمان ، الوجه الجنوبي والوجه الشمالي ، انفجارات شعبية لم تمتلك القوة التي تؤهلها لتوحيد حقائقها — التي شعرت بها اكثر مما فكرت فيها — في خطة عضوية • فقد كانتا نقطة انطلاق ودليلا غامضا ومتلكئا على الارادة الثورية • وسعت الفئة الظافرة «الكاراثية» الى تخطي الحدود التي فرضها خصماها من جهة والى انكار التلقائية الشعبية التي هي مصدر العافية الثورية الوحيد من جهة اخرى من خلال ترميم نظام القياصرة • وكانت كل ثورة تصب في عبادة زعمائها ، اذ تنبأ رئيس الوزراء كاراثا ، اول القياصرة

---

(٣٩) الحركة البلية : نسبة الى الثائر فرانثيسكو بليا ، أحد زعماء الثورة المكسيكية ورفيق اميليانو ثاباتا . (المترجمة)

الثوريين ، بـ «عبادة الشخصية» وهي الكلمة التي تطلق مجازا على الوثنية السياسية الحديثة . (وهذه العبادة التي استمرت في عهدي اوبريغون[٤٠] وكاييس[٤١] ما انفكت تحكم حياتنا السياسية وان كانت قد خفت حدتها عقب منع اعادة انتخاب الرؤساء والمسؤولين الاخرين) . وفي الوقت نفسه أخذ الثوريون الذين كانوا يحيطون بكارانثا ، وبخاصة لويس كابريرا أحد الرجال الاكثر ألمعية في مرحلة الثورة ، يبذلون قصارى جهودهم لايجاد حلقة وصل بين المطالب الشعبية وجعلها اكثر تماسكا . وتجلى واضحا وقتئذ القصور الايديولوجي الذي عانته الثورة ، فكانت حصيلة كل ذلك الالتزام الاتي : دستور ١٩١٧ . وغدا من المستحيل العودة الى عالم ما قبل كورتيس او العودة الى التقاليد الكولونيالية ، اذ لم يعد امام الثورة من حل سوى اعتماد البرنامج الذي أعده الليبراليون وان اقتضى الامر اجراء بعض التعديلات عليه . ولم يكن اعتماد البنية الليبرالية غير نتيجة لنقص افكار رجال الثورة . أما الافكار لتي قدمتها « الانتلجنسيا » فقد أضحت غير ذات جدوى ثم احالها الواقع المكسيكي الى شظايا حتى من قبل ان يضعها التأريخ على المحك .

لقد ادى استمرار البرنامج الليبرالي على التقسيم الكلاسيكي بين سلطاته غير المألوف في المكسيك وفدراليته النظرية وما اتسم به من عمى حيال واقعنا الى فتح الابواب ثانية للكذب والزيف . ولست ارى في ذلك امرا غريبا ، فلمثل هذا السبب مازال هنالك جزء لابأس به من افكارنا السياسية لا يعدو كونه محض كلمات مكرسة لاخفاء كينونتنا الحقة

---

(٤٠) البارو اوبريغون (١٨٨٠-١٩٢٨) : جنرال وسياسي مكسيكي خلف كارانثا في الرئاسة . أغتيل بعد اعادة انتخابه . (المترجمة)

(٤١) بلوتا ركو كاييس : رئيس جمهورية المكسيك بين عامي ١٩٢٤ و ١٩٢٨ . (المترجمة)

وقمعها . ومن ناحية اخرى أحبط تأثير الامبريالية جزئيا امكانية نمو برجوازية محلية كان بوسعها ان تجعل البنية الليبرالية ممكنة ، اذ أخذت اعادة نظام الملكية الجماعية تعني تصفية الاقطاع ولربما كانت ستقرر وصول البرجوازية الى السلطة . ولعل تطورنا كان سيقتفي بذلك أثر البرجوازية الاوربية الا ان مسيرتنا كانت لامركزية ، لان الامبريالية لم تسمح لنا ببلوغ « الحالة التأريخية الطبيعية » . ولم يعد للطبقات القائدة في المكسيك رسالة اخرى سوى التعامل مع سلطة اجنبية بوصفها ادارات وشركاء لتلك السلطة . وفي هذا الوضع الغامض تأريخيا يكمن خطر نشوء بورفيرية حديثة فقد اصبح بمستطاع الصيارفة والوسطاء الاستيلاء على زمام الدولة . وما كانت وظيفتهم فيها لتختلف عن وظيفة كبار الاقطاعيين البورفيريين ولا كانوا سيصبحون مثلهم ورثة لحركة ثورية ، أو سيحكمون البلاد متنكرين بقناع الثورة كما تنكر ديات بقناع الليبرالية . ولكن في وضع كهذا سيغدو من الصعب الاستعانة بفلسفة كفيلة باكمال مهمة الوضعية حينما لم تعد ثمة افكار «جاهزة» في عالمنا .

لو تأملنا الثورة المكسيكية من خلال الافكار التي أتينا على ذكرها في هذه المقالة لعلمنا أنها حركة قصدت غزو ماضينا واستيعابه وبعثه في وقتنا الراهن وهذه الرغبة في العودة ، ثمرة الوحدة واليأس ، انما هي احدى مراحل جدلية الوحدة والتواصل مع الاخر والالتقاء والافتراق التي يبدو أنها حكمت حياتنا التأريخية . فبفضل تلك الثورة شعر المكسيكي برغبة في التصالح مع تأريخه ومع جذوره ، ولهذا السبب اتصفت حركتنا بكونها منقذة وباعثه على اليأس في الوقت عينه . ولئن كانت هذه الكلمات قد استهلكت لكثرة ما رددتها الشفاه فانها مازالت تحتفظ بمعنى ما بالنسبة الينا ، لانها اذا مادلت على شيء فانما تدل على ان الشعب يأبى كل مساعدة خارجية وان كل مشروع يقترح خارج البلاد ولا يمت بعميق صلة الى كينونته سيرتد على نفسه ، وما اليأس ورفض الخلاص الذي يهبه له اي مشروع غريب عن

تاريخه الا سلوك الكائن الذي ينتزع نفسه من كل سلوى ليتوغل في دواخله لذا يمسي وحيدا ، وفي اللحظة نفسها تنصهر تلك الوحدة في محاولة للتواصل مع الاخرين لنكتشف مرة اخرى ان اليأس والوحدة ، الخلاص والتواصل هي مفردات متكافئة .

من الاهمية بمكان ان نلاحظ كيف تتبلور الثورة من خلال عملية بحث متأنية ومشوبة بالغموض ، فماهي بالمشروع الذي تفرضه فئة ما على الواقع ، بل ان هذا الواقع كما يرغب في تفسيره الرومانسيون الالمان يعبر عن نفسه ويأخذ بالتكون في مواضع عدة متجسدا في فئات متنافرة وفي اوقات متباينة. وبوسعنا ان نلاحظ ايضا أن هنالك شخصيات متناقضة تماما قد اسهمت في سياق واحد من مثل اميليانو ثاباتا وبينوستيانو كارانثا ، لويس كابريرا وخوسيه باسكوثيلوس ، فرانشيسكو بليا والبارو اوبريغون ، فرانثيسكو ماديرو ولاثارو كارديناس[42] ، فيليبه انخلس[43] وانطونيو دياث سوتتواي غاما . ولو أننا اجرينا مقارنة بين رموز حركة الاصلاح ورموز الثورة لوجدنا بفضل ما امتازت به افكار رموز الاصلاح من وضوح وافكار رموز الثورة من غموض ، أن علو شأن الليبراليين لم ينتشلهم من بعض القسوة التي جعلت منهم رموزا جديرة بالاحترام لكنهم كانوا ضباطا وابطالا في دائرة عامة ، في حين نجد ان الفظاظة والخشونة اللتين اتصف بهما كثير من القادة لم تحولا دون تحولهم الى اساطير شعبية . فهاهو ذا بليا مازال ممتطيا صهوة جواده في شمالي البلاد وفي الاغاني وفي جولات مصارعة الثيران ، وثاباتا مازال يموت

---

(٤٢) لاثارو كارديناس (١٨٩٥ـ١٩٧٠) : جنرال وسياسي مكسيكي . تسنم الحكم بين (١٩٣٤ـ١٩٤٠) . اليه يعود الفضل في تأميم الصناعة النفطية وتنفيذ الاصلاح الزراعي في المكسيك . المترجمة

(٤٣) فيليبه انخلس : مدير الكلية العسكرية ايام الثورة . اشترك في الثورة مع فرانثيسكو بليا . أشتهر بخططه الستراتيجية والتكتيكية . اعدم على ايدي قوات كارانثا . المترجمة

في كل كرنفال شعبي ، وماديرو يطل من الشرفات ملوحا بالراية الوطنية ، واوبريغون وكاراتثا مافتئا يسافران في قطارات الثورة في عرض البلاد وطولها ويثيران الضجة في مقاصر النساء وينتزعان الشباب من منازل ذويهم والكل يسير بمعيتهما . الى اين ؟ لا أحد يعرف . انها الثورة ، تلك الكلمة السحرية التي ستغير كل شيء وستبهجنا بهجة عارمة وتمنحنا موتا خاطفا . من أجلها يغور الشعب المكسيكي في ذاته ، في ماضيه وفي جوهره كيما يستخرج انتماءه من دواخله ومن حشاشته . هوذا سر خصبه المتناقض وقحط قرننا التاسع عشر . فخصب الثورة الثقافي والفني انما اعتمد على العمق الذي وسم به أبطالها واساطيرها ولصوصها الى الابد حس المكسيكيين وخيالهم .

اذن فالثورة هي غوص المكسيك المفاجىء في كينونتها البحتة . ومن قرارتها وحشاشتها استخرجت على نحو عشوائي اسس الدولة الجديدة .. انها عودة الى التقاليد واستئناف العلائق بالماضي ، تلك العلائق التي قطعت ايام الاصلاح والدكتاتورية . والثورة هي بحث عن ذاتنا ورجوع الى الام ، ولذا فهي عيد . انها عيد الرصاص اذا ما استعرنا عبارة مارتين لويس غوثمان(٤٤) وهي ككل اعيادنا الشعبية ترف وانفاق ، محاولة لبلوغ الاقاصي ، انفجار الفرح والحرمان ، صرخة يتم وحبور وانتحار وحياة كلها ممتزجة معا. ثورتنا هي الوجه الاخر للمكسيك، الوجه الذي تجاهله الاصلاح وامتهنته الدكتاتورية ، ليس وجهها المهذب والمتواري ، أو تلك الصيغة التي ادركوها على نحو قسري من خلال الكذب والقطيعة ، بل وجه العيد والموت

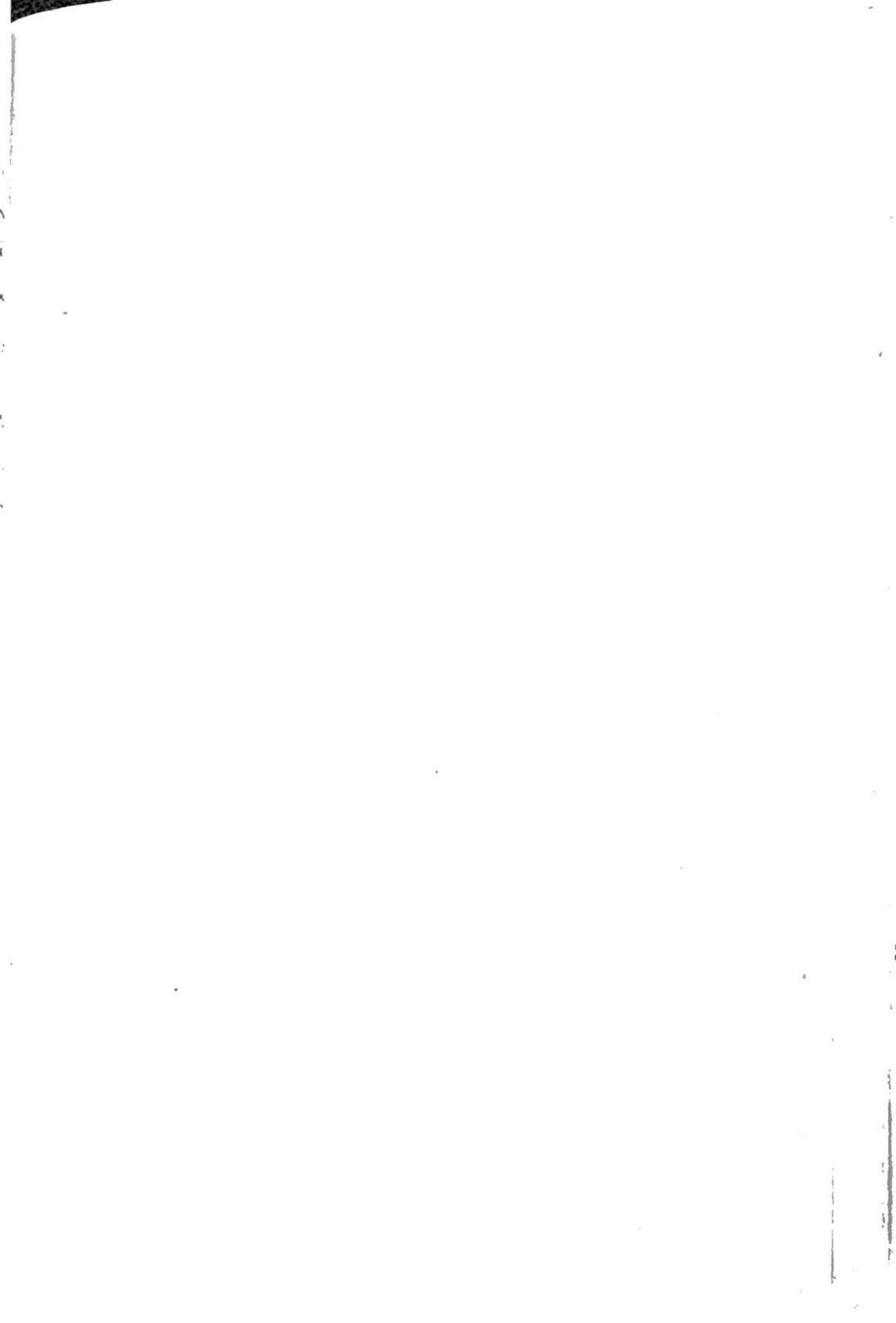
---

(٤٤) مارتين لويس غوثمان (١٨٨٧–١٩٧٧) : روائي مكسيكي برع في وصف الثورة المكسيكية . من اعماله « ظل القائد » و « مذكرات بانتشو بليا » .
المترجمة

الفظ المتألق ، وجه الرقص والاطلاقات النارية ، وجه المهرجان والحب الذي يجسد وجه الاختطاف والتراشق بالرصاص . فالثورة قلما تمتلك افكارا : انها اندلاع الواقع : تسرد وتواصل مع الاخر ، بعث لجوهر اشياء غافية عتيقة وهي خروج كم هائل الى الفضاء من مشاعر الشراسة والرقة والعذوبة الخبيئة خوفا من ان تبلغ كينونتها ولكن مع من تتواصل المكسيك في هذا العيد الدامي ؟ انها تتواصل مع نفسها ومع كينونتها المحض ... تجرؤ على ان تكون . ولذا فالانفجار الثوري ماهو الا عيد جارف يتعرف فيه المكسيكي الذي أثملته ذاته في لحظة عناق مميت الى مكسيكي آخر .

الفصل السابع

الانتلجنسيا المكسيكية



رب قائل يقول أو يؤكد في تبسيط مبتذل ان الثقافة المكسيكية هي انعكاس للمتغيرات التأريخية التي جاءت بها الحركة الثورية • الا أن ماهو اكثر دقة القول ان تلكم المتغيرات والثقافة المكسيكية أيضا عبرت على نحو ما عن نزعات الامة وميولها المتناقضة احيانا في ذلك الجزء من المكسيك الذي اتخذ على عاتقه مسؤولية توكيد الهوية المكسيكية والتمتع بها • وبهذا السياق بوسعنا أن نقول أن تأريخ ثقافتنا لا يتميز من تأريخ شعبنا وان كانت هذه العلاقة لاتبدو وثيقة احيانا • وما يجعلها ليست بالعلاقة الوثيقة ولا الحتمية هو أن الثقافة كثيرا ما تتقدم على التأريخ وتتنبأ به ، او أنها تكف عن التعبير عنه وتخونه كما يلاحظ في بعض مراحل دكتاتورية دياث • ومن جهة اخرى ، فالشعر ، تبعا لطبيعته وطبيعة الكلمات التي هي اداته ،يرمي دوما الى الغاء التأريخ لا بقصد الحط من قيمته بل تجاوزه • لذا فان قصر الشعر على معانيه التأريخية سيصبح رديفا لجعل مفردات الشاعر قصرا على مدلولاتها المنطقية والنحوية • ان الشعر ليهرب من التأريخ ومن اللغة على الرغم من ان كليهما زاده الذي لاغنى عنه ، والشيء عينه يمكن ان يقال ، باستثناءات طبيعية ، عن الرسم والموسيقى والرواية والمسرح وباقي الفنون الاخرى • غير أننا في الصفحات الاتية لن تتطرق الى موضوع الاعمال الابداعية ، بل سنكتفي بوصف بعض مواقف « الانتلجنسيا » المكسيكية ، اي مواقف تلك الشريحة التي اتخذت من الفكر النقدي نشاطا حياتيا لها ، وفضلا عن ذلك فان منجزها لايكمن في الكتب ولا المدونات بل في تأثيره العام وفي نشاطه السياسي •

اذا ما كانت الثورة غوصا مفاجئا وماحقا في دواخلنا وفي جذورنا واصولنا فما من شيء ولامن أحد يمكن له أن يجسد هذا الجهد الخصب اليائس خيرا من خوسيه باسكوتشيلوس مؤسس التعليم المعاصر في المكسيك • ان اعماله ، الوجيزة والخصبة في آن واحد ، ما انفكت تنبض في جوهرها • وكان مشروعه

الذي اكمل به المهمة التي شرع فيهـا في الوقت عينه خوستو سييرا القائمـة على نشر التعليم الابتدائي وتطوير التعليم العالي والجامعي يهدف الى تأسيس التعليم علـى بعـض المبادىء التي تتضمنها تقاليدنا وتناستها الوضعية او تجاهلتها ، اذ كان باسكوتشيلوس يعتقـد أن الثورة كانت ستعيد اكتشاف مغزى تأريخنا الذي بحث عنه سييرا عبثا وأن التعليم الحديث سيقوم علـى مبادىء « الدم ، اللغة ، الشعب » •

آنذاك كان للحركة التعليمية صفة عضوية ، فهي ليست بالعمل المنفرد لرجل غير عادي ، وان كان باسكوتشيلوس بمختلف المعايير رجلا غير عادي ، انما كانت ثمرة للثورة التي رفدتها ، وعندما بلغت نضجها حققت للحركـة الثورية الجانب الاعظم فيها والاكثر سرية • لقد أسهم في ذلك الانجاز شعراء ورسامون وكتاب واساتذة ومعماريون وموسيقيون ، اي « الانتلجنسيا » المكسيكية قاطبة على وجـه التقريب • وبدت مهمـة اجتماعية لكنها كانت تشترط حضور روح قادرة على الاشتعال وعلى اشعال الاخرين • وهكذا كان باسكوتشيلوس فيلسوفا وانسانا مؤثرا لانه احتاز وحدة الرؤية التي منحت المشاريع المشتتة تماسكها ، واذا ما اغفلت هذه الرؤية احيانا بعض التفاصيل فانها حالت أيضا دون الضياع فيها • ولم يكن عمله الذي أخضع لتقويمات كثيرة وضرورية ، لم تكن دوما تحقق السعادة ، عمل التقني قدر ماهو عمـل المؤسس •

كان باسكوتشيلوس يحسب التعليم مشاركة حية • فمن ناحية ، تؤسس المدارس وتطبع الكتب الاساسية والمناهج الكلاسيكية ، ومن ناحية اخرى تنصرف « الانتلجنسيا » الى الشعب لاكتشافه وجعله عنصرهـا الاسمى • وتعاود الظهور في المدارس وفي المجالس الفنون الشعبية التي طواها النسيان على مدى قرون ويعود الشعب الى الترنم بالاغاني القديمة واداء الرقصات الاقليمية بحركاتها التـي يسمهـا النقـاء والخجل ، بتحليقهـا وسكونها ،

وبحشمتها وتأججها . وهكذا ولد الرسم المكسيكي المعاصر ، وكرس جانب من أدبنا للماضي الكولونيالي وجانب اخر منه للسكان الاصليين . وكان الجانب الاكثر جرأة هو ما جسد الحاضر : فظهرت رواية الثورة . وسرعان ما أكتشفت المكسيك الضائعة وسط التصنع الدكتاتوري بعيون يقظة عاشقة هي عيوننا « نحن الابناء الذين عدنا بعد طول غياب الى بلاد لا نعرف حتى كيف نعرفها : قشتالية او عربية او شبيهة بالازتيكية سنبدأ نرعاها » .

لقد ادرك باسكوتشيلوس ، وهو احد أفراد جيل « الاتينيو » المساهمين في حملة مناهضة السياسة الوضعية ، ان كل تعليم انما يحمل في داخله صورة للعالم ويدعو الى اعتماد برنامج للحياة ، وهذا ما دفعه الى بذل كل ما في وسعه من اجل انشاء مدرسة مكسيكية ضمن صيغة تفوق ما تضمنته المادة الثالثة من الدستور التي تقضي بتطبيق التعليم العلماني ، اذ ان العلمانية لم تكن حيادية قط ، وما أبدته من لا مبالاة مزعومة بصدد القضايا الاخيرة كان تمثيلية لم تنطل على أحد . وباسكوتشيلوس الذي لم يكن كاثوليكيا ولا يعقوبيا لم يكن ايضا محايدا ، ولهذا فقد أراد للتعليم في المكسيك ان يقوم على التقاليد نفسها ، وبالاسلوب نفسه الذي سلكته الثورة لخلق اقتصاد جديد (مشترك) . ولذلك فان تأسيس المدرسة على وفق التقاليد كان يعني صياغة علنية للدوافع الثورية التي كانت تطرح حتى ذلك الحين غريزة وترددا . ولو كانت تقاليدنا حية حقا وغير متحجرة لاعادت اكتشافنا تقاليد عالمية اخرى ولاندمجت فيها تقاليدنا ودامت ووجدت لها مبررا .

اذن سيقودنا كل رجوع الى التقاليد الى الاقرار بأننا جزء من تقاليد اسبانيا العالمية ، وهي الوحيدة التي يمكننا ان تتقبلها ونديمها عند الاميركيين الاسبان . فثمة اسبانيتان : الاولى منغلقة على نفسها ، والثانية منفتحة على العالم ، مارقة حطمت اغلالها كي تتنشق هواء الروح الطلق . وهذه الاخيرة هي اسبانيتنا ، أما الاخرى ، اسبانيا الاصيلة تلك ، اسبانيا

القروسطية ، فلم تمنحنا كينونتنا ولا اكتشافاتنا وقد قضينا كل تأريخنا ، وهو جزء من تأريخ الاسبان ، بمقاتلتها • حسن اذن ، فان تقاليد أسبانيا العالمية في اميركا تكمن على وجه التحديد في استيعاب القارة وحدة عليا بحسب الزاوية التي ننظر اليها منها • ولذا فان الرجوع الى التقاليد الاسبانية لن يكون له معنى اخر غير الرجوع الى وحدة أميركا الاسبانية • أن فلسفة العرق الكوني (فلسفة الانسان الاميركي الجديد الذي سيحل كل التناقضات العرقية والصراع الكبير بين الشرق والغرب) لم تكن سوى نتيجة طبيعية وثمرة اخيرة للنزعة العالمية الاسبانية ابنة عصر النهضة • ولم يجمع أي جامع أفكار باسكوثيلوس بزهد المحافظين المكسيكيين ولا تقليدتهم ، لان القارة ، في نظره وفي نظر مؤسس أميركا طرحت نفسها مستقبلا وابتكارا : « ان أميركا الاسبانية هي كل ماهو جديد بامتياز • وهي ليست ابتكارا في الارض وحدها بل في الروح ايضا » • ولم تكن تقليديته أيضا تستند الى الماضي ، بل عثرت على اسباب وجودها في المستقبل •

لعل فلسفة باسكوثيلوس اذن تشكل المحاولة الاولى لفض نزاع خفي قائم منذ اندلاع الثورة • فقد أصبحت الحركة الثورية ، بكل ما تعنيه من تفجر الغريزة ، توقا الى التواصل مع الاخر والى الكشف عن كينونتنا وبحثا عن انتمائنا الذي قطعته الليبرالية وعثورا عليه • غير ان تلك التقاليد التي اعيد اكتشافها ما كانت كافية لتشفي غليلنا في بلد عاد ليولد لانها لم تشتمل على المقدمات العالمية التي ربما كانت ستجدينا نفعا لاقامة مجتمع جديد ، وحل باسكوثيلوس المسألة عندما طرح فلسفة العرق الايبرو أميركي وأستعيض عن شعار الفلسفة الوضعية الذي ينادي بـ « حب ، نظام ، تقدم » بشعار يفيض فخرا الا وهو « من اجل عرقي ستنطق الروح » •

ومما يرثى له ان فلسفة باسكوتشيلوس هي قبل كل شيء عمل شخصي خلافا لما كان عليه أمر الليبراليين والوضعيين الذين اداموا تيارات ايديولوجية كبيرة . لقد كان لمنجز باسكوتشيلوس التماسك الشعري الذي تتسم به النظم الفلسفية العظمى ، الا أنه افتقر الى دقتها وكان ذلك المنجز حدثا عقيما لم يخلف من بعده مدرسة ولا حركة . كان مالرو يقول : « ان الاساطير لا تلجأ الى مخاطبة عقلنا بل غرائزنا » لذلك لن يتعذر علينا ان نعثر في نظام باسكوتشيلوس على أجزاء لما تزل حية ، شظايا خصبة ، اضاءات وارهاصات لكننا لن نجد فيها أساسا لكينونتنا ولاثقافتنا .

كانت الثورة في الفترة التي تولى فيها لاثاروكارديناس زمام الحكم في البلاد تسعى الى تحقيق ذاتها على نحو بالغ العمق والسعة . فقد وضعت الاصلاحات التي دقت اسفينها الانظمة السابقة موضع التنفيذ وراحت انجازات كارديناس تكمل انجازات ثاباتا وكارانثا . كما اسفرت الحاجة الى اعطاء الشعب شيئا يفوق العلمانية والليبرالية عن اجراء تعديل في المادة الثالثة من الدستور : « سيكون التعليم الذي ستشرع فيه الدولة اشتراكيا ، وستحارب التعصب والاحكام المسبقة وستزرع في داخل الشباب مفهوما عقلانيا ودقيقا عن العالم وعن الحياة الاجتماعية » . الا ان الماركسيين رأوا في نص المادة الثالثة الجديد شيئا منقوصا ، اذ كيف يمكن تطبيق التعليم الاشتراكي في بلد ما لبث دستوره يقضي باشاعة الملكية الخاصة ولا تسير الطبقة العاملة فيه التجارة العامة ؟ . وكان التعليم الاشتراكي سلاحا فتاكا ، فقد كشف عن الكثير من الوسائل غير الضرورية للنظام واثار انتقادات المحافظين التي كانت تلقى جزافا . وفي الوقت نفسه بدا ذلك النظام عاجزا عن تجاوز سلبيات الثورة ، لان الثورات لا تصنع بالكلمات والافكار لا تفرض بمرسوم . فما ينطوي عليه نص المادة الثالثة من فلسفة ضمنية لا يدعو الى المشاركة المبدعة ولا يرسي قواعد للامة مثلما فعلت من قبل الكاثوليكية الكولونيالية . كان

التعليم الاشتراكي فخا لم يسقط فيه سوى المبدعين امام شماتة الرجعيين جميعا ، والصراع القائم بين النزعة العالمية لتقاليدنا واستحالة الرجوع الى الصيغ التي عبرت عن ذلك النزاع ما كان ليحل باعتماد فلسفة لم تكن اساسا فلسفة للدولة المكسيكية ولا كانت قادرة على ان تصبح كذلك .

لقد اطاح الصراع نفسه بكل الصيغ السياسية والاقتصادية التي جاءت بها الثورة وساد اوجه الحياة المكسيكية جميعا وعي حي جدا يتجلى في عراقة ثورتنا واصالتها وفي الوقت نفسه سعي الى تحقيق الشمولية والتماسك اللذين ما كانت الثورة لتقدمهما لنا . كانت « الكانبوليبي » مؤسسة اقتصادية اجتماعية سياسية ودينية ازدهرت ازدهارا طبيعيا في صميم الحياة في عصر ما قبل كورتيس واستطاعت ان تتعايش في الفترة الاستعمارية مع صيغ اخرى للملكية بفضل طبيعة العالم الذي شيده الاسبان . ذلك النظام العالمي الذي سمح بوجود صيغ شتى للملكية وكان يضم اعراقا وطوائف وطبقات متعددة . ولكن كيف يمكن للملكية المشتركة للاراضي ان تتكامل في وسط مجتمع دشن مرحلته الرأسمالية وسرعان ما وجد نفسه مرميا في أتون الصراعات الامبريالية ؟ وهي المشكلة نفسها التي طرحت على الكتاب والفنانين أي مشكلة العثور على حل عضوي شامل لا يفرط في خصوصية كينونتنا ازاء نظام عالمي ، كما حدث مع الليبرالية ، وقمين بالا يجعل مشاركتنا تقتصر على الموقف السلبي الجامد الذي يتخذه المؤمن او المقلد . وأضحت تلك هي المرة الاولى التي يطرح فيها المكسيكي حياة وتأريخا ، بوصفه شيئا لابد من اجتراحه من قمة رأسه الى اخمص قدميه . ولما بدا ذلك مستحيلا راحت ثقافتنا وسياستنا الاجتماعية تتأرجحان بين أطراف عدة . وحينما أبدينا عجزنا عن الاتيان بنظرية ما انتهى بنا الامر الى قبول سلسلة من الالتزامات سواء في مجال التعليم أم في حل المعضلات الاجتماعية . وقد سمحت لنا تلك الالتزامات بالدفاع عن كل ما كان عرضة للغزو ، وبرغم ذلك فمن الخطورة

بمكان ان نحسبها التزامات نهائية • وهذا ما يعكسه لنا النص الحالي للمادة الثالثة ، فعلى الرغم من ان التعديل الدستوري قد عاد علينا بالفائدة ولكن مازالت هنالك أسئلة تسمو على اي اعتبار فني اخر بلا اجابات : ماهو مغزى التقاليد المكسيكية وماهي قيمتها الحالية ؟ وماهو البرنامج الحياتي الذي تقدمه مدارسنا الى الشباب ؟ ان الاجابة عن هذه الاسئلة لا يمكن ان تلقى على كاهل رجل واحد ، واذا كنا لم نجب عنها فلان التأريخ نفسه لم يفض هذا الصراع •

ما أن انتهى الفصل العسكري للثورة حتى شرع الكثير من المفكرين الشباب ممن لم تسنح لهم المشاركة في النزاع المسلح بسبب من عامل العمر او الكفاءة ، في التعاون مع الحكومات الثورية • وبذلك تحول المفكر الى مستشار ، سرا او علنا ، للجنرال الامي وللقائد الفلاحي او النقابي او للزعيم الذي في السلطة[1] • لذا بدت المسؤولية جسيمة وكان لابد من ارتجال كل شيء • فقد درس الشعراء الاقتصاد ، والحقوقيون علم الاجتماع ، والروائيون القانون الدولي وعلم التربية او الهندسة الزراعية ، واستثني الرسامون الذين كوفئوا بأحسن ما يمكن حينما سلمت اليهم واجهات المباني العامة • ووظفت بقية « الانتلجنسيا » في اغراض محددة ومباشرة : مشاريع القوانين ، الخطط الحكومية ، البعثات السرية ، المهمات التعليمية ، تأسيس المدارس ومصارف الادامة الزراعية وغيرها ، السلك الدبلوماسي ، التجارة الخارجية والادارة العامة وفتحت هذه المجالات جميعا الابواب على مصاريعها امام « الانتلجنسيا » النابعة من صلب الطبقة الوسطى • وسرعان ما برز عدد هائل من الفنيين والخبراء بفضل المدارس المهنية الجديدة وبفضل البعثات

---

(١) في هذا النص اشارة الى قائد الثورة اميليانو ثاباتا الذي كان اميا . وقد عمل ابو المؤلف « اوكتافيو باث » نفسه مستشارا له ..
(المترجمة)

الدراسية الى خارج البلاد . لقد اسهمت مشاركتهم في الادارة الحكومية في ادامة المهمة التي باشرها الثوريون الاوائل ورأحوا يذودون جميعا المرة تلو الاخرى عن ارث الثورة . وكانت المسألة الاصعب هي اوضاعهم اذ كان هاجسهم عدم التفريط في مكانتهم المادية او الفكرية ولهذا اتخذوا من الالتزام فنا واسلوب حياة وحظيت مهمتهم بالاعجاب في اكثر من جانب ، غير أنهم خسروا جراء ذلك استقلالهم ، وكان نقدهم يبدو متميعا من فرط الحكمة والميكافيلية. ولم تستطع « الانتلجنسيا » المكسيكية برمتها او لم تحسن استخدام اسلحة المفكر الخاصة الا وهي النقد ، الدراسة والحكم مما ادى الى اجتياح الروح الكورتيسية كل الانشطة العامة ، وهذا على ما يبدو نتيجة طبيعية لكل ثورة تنتقل الى مرحلة الحكم . وكما هو شأن البيروقراطية دوما ، فقد استشرت الاخلاق الطائفية المغلقة والعبادة السحرية لـ « سر الدولة » ولم تعد تناقش الشؤون العامة علانية ، بل كان يؤثر الهمس بها . وهنا ينبغي ألا تفوتنا التضحيات الحقة التي دفعت في اغلب الاحيان ثمنا لذلك التعاون . لقد قاد شيطان الاندفاع ـ لا شيطان الطمع ـ والرغبة في خدمة البلاد وانجاز المهمة الجماعية بل حتى بعض الزهد في اخلاق المواطنة (التي كانت تفهم انكارا للذات وهي من صفات المفكر) بعضهم الى الخسارة الاكثر ايلاما وهي خسارة المنجز الشخصي . وما كان المفكر الاوربي يعيش هذه المأساة فقد أزيح المفكر في اوربا والولايات المتحدة من السلطة وراح يعيش في المنفى ويمارس تأثيره خارج نطاق الدولة ، وكانت رسالته الرئيسة هي النقد ، اما في المكسيك فهي العمل السياسي اذ أن عالم السياسة بطبيعته عالم القيم النسبية اي ان القيمة المطلقة الوحيدة فيه هي النشاط . بيد أن الانتلجنسيا المكسيكية لم تخدم البلاد حسب ، بل دافعت عنها وكانت مكرمة ونشيطة . ولكن ألا تراها قد تخلت عن كونها « انتلجنسيا » اي بمعنى الم تتنازل عن كونها الوعي الناقد الذي يمثل شعبه ؟.

لقد أدت حالة التذبذب في الثورة والضغوط الدولية التي لم تكف البلاد عن الاحساس بوطأتها حالما بدأت بالاصلاحات الاجتماعية والديماغوجية التي اصبحت مرضا مزمنا في نظامنا السياسي وفساد القادة الذي ازداد تفاقما عندما تجلـى عجزنا عن تحقيق النهج الليبرالي بصيغ ديمقراطية الى اثـارة ظنون الشعب وفقـدان الثقة بين المفكرين . فالانتلجنسيا المكسيكية التـي يوحدها مشروع مشترك كان فيها مارقون وانعزاليون ونقاد وامعات . وقـد تخلى بعضهم عن تعاونه ليؤسس جماعات وأحزاب معارضة من مثل مانويل غوميث مورين واضع قوانين المالية الثورية بالامس ورئيس حـزب العمـل الوطني ، الحزب اليميني اليوم واخرين من مثل خيسوس سيلبا ايرثوغ ممن برهنوا على ان النشاط التقني لا يختلف عن الاستقلال الروحي وقد انضوى تحت لواء مجلته « كواديرنوس امريكانوس »[2] الكتاب المستقلين جميعا في أميركـا الاسبانية . أما بيثنته لومباردو توليدانو ونارثيســو باسولـس واخرون فقد تحولوا الى الماركسية وهي الفلسفة الوحيدة التي كانوا يعتقدون انها تزاوج بين خصوصيات المكسيك والنزعة العالمية للثورة . ولابد لنا من أن نقوم مهمة هؤلاء الرجال في مجال السياسة الاجتماعية ، الا ان ما يؤسف عليه هو ان نشاطهم قد أفرغ من مضمونه منذ سنوات عدة بسبب انقيادهم الى النهج السياسي الستاليني حتى في أسوأ لحظاته .

وبينما كان جزء من الانتلجنسيا يميل الى الماركسية في صيغتها الرسمية والبيروقراطية دوما بحثا عن وسيلة لكسر عزلتهم من خـلال الاندماج فـي الحركة العمالية العالمية بدأ اخرون بمهمة المراجعة والنقد ، اذ اماطت الثورة اللثام عن وجه المكسيك وراح صامويل راموس ، يتقصى حقيقة تلك الملامح وينتزع الاقنعة ويبدأ بدراستها بوصفه مكسيكيا . فقـد قيـل ان كتابـه « صورة الانسان والحضارة في المكسيك » وهو المحاولة الرصينـة الاولى

---

(٢) تعني « دفاتر اميركية » . المترجمـة

للتعرف الى انفسنا ، يشكو من تحديدات مختلفة ، لان المكسيكي الذي تصفه صفحات الكتاب شخص منعزل أما الادوات التي يفيد منها الفيلسوف للولوج في الواقع ـ اي نظرية الاستياء في مفهوم أدلر وليس شيلر ـ فهي تقلل من اهمية النتائج التي توصل اليها . غير ان هذا الكتاب مازال يعد نقطة الانطلاق الوحيدة التي نمتلكها لنتعرف الى انفسنا ، وهذا لا يعود الى كون الجزء الاعظم من الملاحظات الواردة فيه مازال صحيحا ، بل لان الفكرة الاساسية التي استوحاها الكاتب ما فتئت فكرة حقيقية ، وهي ان المكسيكي كائن يتوارى عندما يعبر عن نفسه ، فعباراته وايماءاته تكاد تكون ابدا اقنعة له واذا ما استخدمنا منهجا مختلفا عما استخدمه في تلك الدراسة لوجدنا ان راموس قد قدم لنا وصفا دقيقا لجملة من المواقف التي تجعل أيا منا شخصا منغلقا على نفسه وعصيا على الفهم .

وفي حين راح صامويل راموس يكتشف المعاني التي تحملها بعض التصرفات الاكثر تميزا فينا ، وهو الكشف الذي كان لابد ان يستكمله بتحليل نفسي لاساطيرنا ومعتقداتنا وبدراسة لحياتنا الايروسية كان خورخه كويستا منكبا على استقصاء مغزى تقاليدنا . لقد كانت افكاره المتناثرة في مقالات نقدية في السياسة وفي علم الجمال تتسم بالرصانة وبوحدة الموضوع على الرغم من ان كاتبها لم تسنح له قط فرصة جمعها في كتاب . والشيء نفسه يمكن ان يقال عن موضوعاته في الكلاسيكية في الشعر المكسيكي وفي تأثير فرنسا في ثقافتنا والرسم على الجدران واشعار لوبث بيلارده . فكويستا يحرص على تكرار مثل هذا التفكير : اي ان المكسيك بلاد صنعت نفسها ولذا تراها تفتقر الى الماضي او بعبارة أصح أن المكسيك صنعت نفسها نقيضا لماضيها ، نقيضا لنعرتين اقليميتين فيها ، نقيضا لحالتين من القصور الذاتي ولحالتين من الاصالة الا وهما الهندية والاسبانية . ان التقاليد الحقة للمكسيك لا تديم الوضع الكولونيالي بل ترفضه لانها اختيار حر لبعض

القيم العالمية ، قيم العقلانية الفرنسية و « فرنسيتنا » هذه ليست عرضيـة ولاهي حصيلة ظرف تأريخي بحت لأن المكسيكي يكتشف ذاته في الثقافة الفرنسية التي هي اختيار حر ايضا ، كما لو أنه هاجس عالمـي • ونمـاذج شعرنا ، شأنها شأن الصيغ التي تستلهمها أنظمتنا السياسية ، هي صيغ عالمية وقليلة الاهمية في آن واحد انها صيغ المكان واللون المحلي : اي انها تطبق فكرة الانسان وترمي الى تحقيق تلك الفكرة من خلال التضحية بخصوصيتنا القومية وهي ايضا تمثل الدقة والشكل • وهكذا فان شعرنا ليس شعـرا رومانسيا أو وطنيا ماعدا في حالتي الموت والخيانة • وهذا هو حال الصيغ الفنية والسياسية الاخرى •

يستهين كويستا بالامتحان التأريخي ويرى في التقاليد الاسبانية قصورا ذاتيا وتطابقا وسلبية لانها انكرت الوجه الاخر من تلك التقاليد ، كمـا انـه يلغي تحليل تأثير تقاليد السكان الاصليين • ولكن أوليس ميلنا الى الثقافة الفرنسية هو ايضا وليد ظروف متباينة مثلما هو وليد التأريخ العالمي او تأريخ المكسيك او مصاهـرة مفترضة ؟ ونسي كويستا لتأثره بخوليان بيندا أن الحضارة الفرنسية انما تغذت على تأريخ فرنسا وانها جزء لا ينفصم مـن الواقع الذي تستند اليه •

اننا اليوم مدينون لخورخه كويستا بملاحظات قيمة عدة ، على الرغم من تحديدات موقفه الفكري التي تبدو اليوم اكثر وضوحا مما كانت عليه في الماضي عندما صبها مؤلفها في مواضيع متفرقة ونشرها في الصحف فالمكسيك تعرف نفسها فعلا بأنها انكـار لماضيها • وكنا نخطؤهـا ، كما هو خطـأ الليبراليين والوضعيين ، متأتيا من التفكير في ان هذا الانكار يتضمن قسرا اعتماد الراديكالية والكلاسيكية الفرنسيتين في السياسة والفن والشعـر • والتأريخ نفسه يرفض فرضيته القائلة : ان الحركة الثورية والشعر المعاصر والرسم وعملية نمو البلاد نفسها تهدف جميعا الى فرض خصوصياتنا وتحطيم

المعمار الفكري الذي تقترحه علينا فرنسا • أما الراديكالية المكسيكية ، كما حرص ان يظهرها في تلك المقالة ، فلها معنى آخر •

وبعيدا عن الفروقات التي تفصل بين راموس وكويستا سنلاحظ نوعا من صلة قربى تجمع بينهما ، فكلاهما يعكس في اتجاهين مختلفين رغبتنا في معرفة ذاتنا ، اذ ان الاول يمثل نزعتنا الى توكيد خصوصيتنا البحتة كما جسدتها الثورة ، والاخر يمثل الحاجة الى ادغام خصوصيتنا في التقاليد العالمية •

ثمة انسان مستوحد آخر : انه دانيل كوسيو بيبغاس الاقتصادي والمؤرخ ومؤسس صندوق الثقافة الاقتصادية الذي كان مؤسسة للنشر لا تدر ارباحا • وكان هدفها الاول الذي جاء منه اسمها هو تأمين النصوص الاساسية في علم الاقتصاد ، بدءا بآدم سمث واصحاب النظرية الطبيعية وكينس وماركس ، للأسبان الاميركيين وقد تحول الصندوق بفضل كوسيو ومن خلفه الى دار نشر للاعمال الفلسفية والسوسيولوجية والتأريخية التي احدثت تجديدا في الحياة الفكرية في البلدان الناطقة بالاسبانية • ونحن مدينون أيضا لكوسيو بيبغاس بالدراسة الاكثر رصانة وكمالا للنظام البورفيري • ولعل أفضل مافي نشاطه الفكري والاكثر اثارة هي تلك الروح التي تتأجج في نقده وسلاسة افكاره واستقلالية احكامه وفي رأيي أن كتابه الموسوم « اقاصي أميركا » ، وهو الدراسة التي لم تعرف الرحمة بواقعنا والتي كتبها بتهكم وشجاعة وجرأة تثير الاعجاب ، لهو افضل مؤلفاته •

اما كارديناس فقد فتح الابواب للمهزومين في حرب اسبانيا الاهلية وكان من بينهم كتاب وشعراء وأساتذة اليهم يعود الفضل في نهضة الثقافة المكسيكية وبخاصة في مجال الفلسفة • وكان خوسيه غاوس معلم الانتلجنسيا الشابة أحد الاسبان الذين يشعر المكسيكيون بالامتنان لهم • وكان الجيل الجديد مؤهلا لادارة كل الوسائل التي يستلزمها المشروع الفكري حتى باتت

تلك هي المرة الاولى منذ عصر الاستقلال التي لم تشعر الانتلجنسيا فيها بالاضطرار الى اعداد نفسها خارج قاعات الدراسة • فالمعلمون الجدد لا يعلمون الشباب الفلسفة بل الوسائل والادوات التي تخلقها وتلك هي تحديدا مهمة المعلم •

وكان وجود الفونسو رييس واحدا من العوامل المشجعة الجديدة ، فاعماله التي يسهل علينا اليوم ان نتأملها بأبعادها الحقيقية انما هي دعوة الى الدقة والى التماسك • ولم تكن كلاسيكية رييس التي تحتل موقعا وسطا بين اكاديمية راميريث وورومانسية سييرا تنطلق من صيغ جاهزة • لانها بدلا من أن تصبح محض تقليد او تبن للصيغ الجاهزة أضحت نزعة تبحث عن ذاتها وتقومها ، وكانت في آن واحد المرآة والنبع اللذين يتعرف الانسان فيهما الى ذاته ولكنه يتجاوزها ايضا •

يرى الفونسو رييس في الادب شيئا يفوق كونه هاجسا او قدرا ، انه في نظره دين • فذلك الكاتب الشمولي ، الذي كانت اللغة بالنسبة اليه هي كل ما يمكن ان تكون عليه لغة ما : صوت ، ايماءة ، رسم بلا حياة ، سحر ،جهاز توقيت وكائن حي ، كان شاعرا وناقدا وكاتب مقالة : انه الاديب بعينه ، عامل المنجم ، الصائغ الماهر ، البيدق ، البستاني ، العاشق وراهب الكلمات • اما اعماله فهي تأريخ وشعر وتأمل وابداع • نعم كان رييس يمثل وحده فريقا من الكتاب ، واعماله نفسها تؤلف ادبا شاملا • أتراه كان يلقننا درسا اذن في الشكل ؟ لا ، كان مثلا لنا في التعبير • ففي وسط عالم من الخطباء المفوهين او من الصموتين الغارقين في التأمل ينبري رييس محذرا ايانا من مخاطر اللغة ومن مسؤولياتها • لقد اتهموه بقولهم انه لم يمنحنا فلسفة او اتجاها ما ، لكنهم نسوا ان جزءا مهما من كتاباته مكرس في تسليط الضوء على الكثير من الحالات التي طرحها علينا تاريخ اميركا • ويخيل الي ان اهمية رييس انما تكمن تحديدا في ان قراءة اعماله هي درس لنا في الوضوح

والشفافية ، لأنه حينما يعلمنا القول يلقننا التفكير • ومن هنا تتأتى اهمية تأملاته في الانتلجنسيا الاميركية ومسؤوليات المفكر والكاتب في عصرنا الراهن •

يقول لنا رييس ان الالتزام الاول للكاتب ينبع من اخلاصه للغة • فالكاتب انسان ليس له من أداة سوى الكلمات • وعلى النقيض مما يستخدمه الحرفي والرسام والموسيقي من ادوات فان الكلمات تأتي مترعة بالمعاني الغامضة بل المتناقضة واستخدام تلك المعاني يعني ازالة الغموض فيها ، تنقيتها واحالتها حقا الى اداة لتفكيرنا وليس اقنعة او مقتربات منه • والكتابة تشترط حرفة حقة وموقفا يتخطى الاسلوب البلاغي النحوي • فجذور الكلمات تشتبك بجذور الاخلاق ، أي ان نقد اللغة هو نقد تأريخي واخلاقي ، وكل اسلوب انما هو شيء يتعدى كونه طريقة للكلام : انه طريقة للتفكير ولذا فهو حكم ضمني او علني على الواقع الذي يحدق بنا • وبين اللغة ، ذلك الكائن الاجتماعي بطبعه ، والكاتب الذي لا ينتج الا في توحده بنفسه تتأسس علاقة بالغة الغرابة ، اذ بفضل الكاتب تستوي اللغة غير المتبلورة والافقية وترسم أبعاد شخصيتها ، وبفضل اللغة يسهم الكاتب الحديث في حياة المدينة بعد ان انقطعت سبل اتصاله الاخرى بشعبه وعصره •

اذن ليس بوسعنا ان نعثر في اعمال الفونسو رييس على النقد حسب ، بل على الفلسفة وعلم اللغة وعلم الاخلاق • ولهذا السبب ، لن يغدو من قبيل المصادفة ان رييس حينما كان يدافع عن شفافية المفردة ومعناها العالمي انطلق يبشر برسالة • وبغض النظر عن هذا الاخلاص المتأصل للغة الذي يميز كل كاتب فاننا نجد ان ثمة واجبات خاصة منوطة بالكاتب المكسيكي في مقدمتها التعبير عن « خصوصيتنا » او اذا استعرنا عبارة الفونسو رييس « البحث عن الروح الوطنية » وهي المهمة الشاقة والمتطرفة • لاننا الان نستخدم لغة جاهزة ليست من ابتداعنا لتعبر عن مجتمع متلكىء وعن انسان

معقد . اذن لم يعد لنا من حيلة سوى استخدام لغة خبرت حتى الان تجارب غونغورا وكيبيدو وثرباتتس وسان خوان[٣] كيما نعبر عن انسان جاء تـوا الى الوجود ولا يعرف نفسه . ان الكتابة تعـدل عملية تقويـض اللـغة الاسبانية واعادة خلقها لتصبـح لغة مكسيكية دون ان تفقـــد كينونتهـا الاسبانية . قصارى القول ، ان اخلاصنا للغة يملي علينا اخلاصا لشعبنـا ولتقاليد لن تكون ملكا لنا الا من خلال عملية عنف فكرية . ففـي كتابات رييس يتعايش كلا المصطلحين اللذين يشكلان هذا الواجب الثنائي الطرف ، ولذلك ففي ذروة مجده كانت اعماله تقوم على ابتداع لغة وشكل عالمين قادرين على احتواء صراعاتنا المقهورة دون خنقها او تمزيقها .

يتصدى رييس للغة بوصفها مشكلة فنية واخلاقية . فاعماله لم تكن نموذجا لنا ولا درسا وانما كانت حافزا . ولذا لا يمكن لموقفنا مـن اللغـة ان يفترق عن موقف اسلافنا ، أي ان تأريخ شعبنا وحياته يطرحان علينا ، بوصفهما رغبة ترمي الى خلق « الشكل » الذي يعبر عنها ويتخطاها دون ان يخونها ، على نحو اكثر جذرية من اسلافنا لاننا اقل منهم تعويلا على افكار صورتها لنا الحضارة الغربية افكارا كاملة . فالوحدة والتواصل مع الاخر ، الروح المكسيكية والنزعـة العالمية ما برحت تمثل النهايات التـي تنهـش المكسيكي . ومفردات هذا الصراع لا تسكن في دواخلنا أو تضفي علـى سلوكنا الخاص وعلاقتنا بالاخرين طابعا قاتما تارة ومتألقا تارة اخرى حسب، بل انها تقبع في أعماق كل محاولاتنا السياسية والفنية والاجتماعية . ولـذا فان حياة المكسيكي ان لم تكن توازنا قلقا وشاقا فهي تمزق دائم بين كـلا الطرفين .

---

(٣) سان خوان دي لاكروث (١٥٤٢–١٥٩١) من اعلام الادب الاسباني اشتهر باشعاره الغنائية وباعماله النثرية من مثل (ليل الروح الدامـس) و و « شعلة الحب » وغيرهما . (المترجمة)

اذن بوسعنا أن نعد تأريخ المكسيك كله ، بدءا بالغزو وانتهاء بالثورة ، عملية بحث عن ذواتنا التي شوهتها مؤسسات غريبة وأخفتها وراء اقنعة ، وهو بحث أيضا عن « شكل » يعبر عنا . لقد نجحت مجتمعات ما قبل كورتيس في تحقيق ابداعات بالغة الغنى والتنوع بحسب ما يستدل عليه من الشواخص القليلة التي خلفها الاسبان واكتشافات علماء الاثار والانثروبولوجيا ، لأن الغزو دمر تلك « الاشكال » واعاد تركيب الصيغة الاسبانية . ففي الحضارة الاسبانية ثمة اتجاهان ينبضان في داخلها ، وهما متصالحان الا انهما غير متوحدين تماما وسبب ذلك يعود الى الدولة الاسبانية نفسها وهما التقاليد القروسطية الاصيلة التي ماتزال حية في اسبانيا حتى اليوم والتقاليد العالمية التي صادرتها اسبانيا وتبنتها قبل الاصلاح المضاد ، اذ قدر لها بفعل الكاثوليكية ان تحقق في مجال الفن نظرية أصابت نجاحا كبيرا في الاتجاهين ، والشيء نفسه يمكن ان يقال عن بعض المؤسسات وافكار القانون السياسي التي لعبت دورا حاسما في تكوين المجتمع الكولونيالي وفي اوضاع الهنود ومجتمعاتهم . ونظرا للطبيعة العالمية التي تتميز بها الكاثوليكية التي أضحت دينا للجميع وبخاصة اليتامى والمحرومين ، وهو الامر الذي يتناساه مؤيدو هذه الفكرة ومعارضوها ، فان المجتمع الكولونيالي استطاع ان يتحول في لحظة ما الى نظام يتوحد فيه الشكل والجوهر . اما الواقع والمؤسسات ، الشعب والسلطة ، الفن والحياة ، الفرد والمجتمع فلم يكن يفصل بينها جدار ولا هوة ، بل كان الكل موصولا بعضه ببعض . وسادت مفاهيم واحدة وارادة واحدة وحكمت كلها البشر جميعا . ومهما كان المرء يائسا فهو لا يحيا وحيدا ولا المجتمع يحيا وحيدا ، وما العالم والعالم الاخر ، الموت والحياة ، العمل والتأمل الا تجارب شاملة وليست افعالا ولا مفاهيم منفصلة عن غيرها ، فكل جزء فيها يسهم في الكل ، والكل بدوره يحيا في كل جزء من الاجزاء . وهكذا استبدل بنظام عصر ما قبل كورتيس « شكل » عالمي منفتح على مشاركة كل المؤمنين ومساهماتهم .

ان الشلل الذي اصاب المجتمع الكولونيالي وانتهى به الى التحجر في قناع من الرقة او من القسوة كان على ما يبدو وليد ظرف قلما اضحى موضع دراسة الا وهو تزامن تدهور الكاثوليكية الاوربية بوصفها مصدرا للحضارة مع انتشارها في اسبانيا الجديدة وتصاعد مدها • وانحسرت الحياة الدينية التي كانت ذات عصر غابر مصدر ابداع الى محض مشاركة خاملة بالنسبة الى الغالبية من الناس • واما الاقلية التي كانت تحيا حالة من التأرجح بين الفضول والايمان فقد رأت فيها محاولات منقوصة او العابا ذكية ، واخيرا رأت فيها صمتا وسباتا ، او بعبارة اخرى قدمت الكاثوليكية نفسها الى الجموع الغفيرة من السكان الاصليين ملاذا لهم ، وحل اليتم ، جراء القطيعة التي خلفها الغزو ، في رجوع الى جوف الام المظلم • لذلك أصبحت الديانة الكولونيالية رجوعا الى حياة ما قبل الولادة ، تلك الحياة السلبية ، المحايدة والقنوع بذاتها واما الاقلية التي سعت الى الخروج الى هواء العالم الطلق فقد آل مصيرها الى الاختناق والخرس والتقهقر •

ومن هنا أمسى الاستقلال والاصلاح والدكتاتورية مراحل متباينة ومتناقضة لرغبة واحدة في الاجتثاث • اما القرن التاسع عشر فلابد لنا من ان ننظر اليه بوصفه قطيعة شاملة مع « الشكل » • وهو ، في الوقت نفسه ، القرن الذي برزت فيه الحركة الليبرالية محاولة يوتوبية تحث على الانتقام من الواقع ، وتحولت البنية الليبرالية الى حالة صورية للوضعية ، فتأريخنا المستقل هو قطيعة وبحث منذ أن وعينا ذاتنا وامتلكنا فكرة عن الوطن وحسا وطنيا ، أي أنه قطيعة مع التقاليد ومع « الشكل » ، وبحث عن شكل جديد قادر على احتواء خصوصياتنا كلها ومنفتح على المستقبل • فلا الكاثوليكية المنغلقة دون المستقبل ولا الليبرالية التي استعاضت عن المكسيكي الذي يتمتع بصفة محددة بتجريد لا حياة فيه استطاعتا ان تكونا ذلك « الشكل » المنشود الذي هو تعبير عن رغباتنا الخاصة وعن تطلعاتنا العالمية•

لقد غدت الثورة اكتشافا لانفسنا وعودة الى الجذور اولا ، ومن ثم تحولت الى بحث لايجاد نظرية أجهضت مرارا لأنها عاجزة عن استيعاب تقاليدنا وعن تقديم مشروع جديد يحمل الخلاص لنا . وفي خاتمة المطاف اصبحت التزاما لاغير . ولكن ، لا الثورة كانت قادرة على ربط انفجارها ، ذلك الانفجار المخلص لنا ، برؤية عن العالم ، ولا « الانتلجنسيا » المكسيكية فضت ذلك الصراع القائم بين قصور تقاليدنا واشتراطاتنا العالمية .

يقودنا هذا العرض الاجمالي الى التطرق الى المشكلة التي اثارها مؤخرا كل من راموس وثيا بخصوص اجتراح فلسفة مكسيكية ما . فاذا كانت الصراعات التي عرجنا على بحثها في معرض هذه الدراسة والتي ظلت خبيئة ومحتجبة وراء اشكال وافكار غريبة حتى عهد قريب قد أجدت نفعا في تبرير وجودنا ، فانها أعاقتنا عن الافصاح عن انفسنا وعن الكشف عن طبيعة الخلاف الحبيس في داخلنا . كان حالنا أشبه بحال شخص عصابي ، ليس للمبادىء الاخلاقية والافكار المجردة من وظيفة عملية غير الدفاع عن كل ما تنطوي عليه سريرته ، هذه المنظومة المعقدة التي يخدع بها نفسه والاخرين قدر تعلق الامر بالمغزى الحقيقي لميوله وطبيعة صراعاته ، ولكن حالما تظهر تلك الصراعات على حقيقتها الى الضوء ، لايجد هذا المريض بدا من مواجهتها وحلها بنفسه وما يحدث لنا لعلى شبه كبير بهذا ، فنحن سرعان ما ألفينا أنفسنا عراة ازاء حقيقة هي بدورها عارية ، ولم يعد ثمة ما يبررنا ، وليس من أحد سوانا بقادر على الاجابة عن الاسئلة التي يطرحها علينا الواقع . وبذلك أضحى التأمل الفلسفي مهمة ملحة فيها يكمن خلاصنا . غير أن الغاية منه ينبغي الا تقتصر على دراسة ماضينا الفكري ووصف مواقفنا المتميزة حسب ، بل لابد من أن تقدم لنا حلا محددا أو شيئا يمنح وجودنا على وجه البسيطة معنى .

ولكن كيف يمكن لتأمل فلسفي كهذا ان يكون مكسيكيا ؟ أن أي دراسة في تقاليدنا ستصبح فلسفة في تأريخ المكسيك وتأريخا للافكار المكسيكية . بيد أن تأريخنا ماهو الا جزء من التأريخ العالمي . ولذا فما اردت الذهاب اليه هو أننا باستثناء مرحلة الثورة كنا نعيش تأريخنا دوما فصلا من تأريخ العالم كله ، وكذلك افكارنا التي لم تكن افكارا خاصة بنا بكل ما جاءت به بل هي موروثة عن تلك الافكار التي ولدت في اوربا او التي غزتنا منها . اذن ، ان فلسفة معنية بتأريخ المكسيك لن تغدو سوى تأمل في المواقف التي اتخذناها ازاء الموضوعات التي اقترحها علينا التأريخ العالمي الا وهي : الاصلاح المضاد ، العقلانية ، الوضعية والاشتراكية . خلاصة القول ، ان التأمل التأريخي يمكن ان يجعلنا نجيب عن السؤال الاتي : كيف عاش المكسيكيون الافكار العالمية ؟

لعل السؤال السابق يشتمل ضمنا على فكرة تتعلق بالسمة الفارقة للهوية المكسيكية وهي الموضوع الثاني الذي تطرحه تلك الفلسفة المكسيكية التي نحن بصددها . فنحن المكسيكيين لم نخلق « شكلا » يعبر عنا ، ولذلك لا يمكن ان نضع الهوية المكسيكية ضمن شكل محدد او نزعة تاريخية معينة اي انها تخبط بين مشاريع عالمية عدة زرعت في داخلنا او فرضت علينا على نحو متعاقب واضحت جميعا في يومنا هذا دونما جدوى . فالهوية المكسيكية بهذا السياق هي طريقة تحول دون ان نكون نحن انفسنا ، او طريقة مكرورة كيما نكون او نحيا باسلوب آخر . وبايجاز فهي تبدو حينا قناعا وحينا آخر تصميما مباغتا على البحث عن ذواتنا او فتحا مفاجئا لصدورنا بغية العثور على صورتنا الاكثر سرية . ومن هنا كان لابد لفلسفة مكسيكية من أن تواجه الغموض الذي يشوب تقاليدنا ورغباتنا نفسها في ان نكون ، فلسفة ينبغي لها ألا ترضى بشيء لا يترتب عليه حل عالمي اذا ما كانت ستشترط أصالة قومية لاتشوبها شائبة .

ثمة كتاب كثيرون كرسوا انفسهم لمهمة دراسة ماضينا الفكري ، أذ تبرز بهذا المعنى دراسات ليوبولدوثيا وادموندو اوغرمان . كان مصدر قلق اوغرمان نابعا من مشكلة معرفة أي ضرب من الكينونة التأريخية ذالك الذي ندعوه « أميركا »(٤) فما هي بالاقليم الجغرافي ولا بالماضي ولا هي بالحاضر ايضا ، انما هي فكرة ، او بدعة خلقتها الروح الاوربية . أميركا هي يوتوبيا، وهي تلك اللحظة التي تستحيل فيها الروح الاوربية روحا عالمية ، تنطلق فيها من اسار خصوصياتها التأريخية وتستوعب ذاتها كما لو انها فكـرة عالميـة تكاد تتجسد باعجوبة وتستقر بمكان ما وبزمان دقيق ، أي بالقادم من الايام . تفهم اميركا الحضارة الاوربية وحدة عليا ، وقد اصاب اوغرمان قلب الحقيقة عندما أعتقد أن قارتنا هي تحديث للروح الاوربية .. ولكـن ما الذي سيحل باميركا ، ذلك الكائن التأريخي المستقل ساعة مواجهتها الواقع الاوربي ؟ يرى ليوبولدو ثيا في هذا السؤال موضوعا جوهريا ويؤكد ، وهو المؤرخ للفكـر الاسباني الاميركي والناقد المستقل في الموضوعات السياسية اليومية في آن واحد، أن أميركا كانت حتى عهد قريب هي حوار أوربا الاحادي الطرف واحدى الصيغ التاريخيـة التي بلورت فيها فكرهـا ، امـا الان فان ذلـك الحوار أصبح حوارا ثنائي الطرف ، وليس هو بالحوار الفكري المحض بل حـوار اجتماعي وسياسي حيوي . ومن جانب آخر عكف ثيا على دراسة الاغتراب الاميركي اي الا نكون نحن انفسنا وان يتولى الاخرون مهمة التفكير فينا . فهذا الاغتراب يمثل طريقة كينونتنا الخاصة على نحو يفوق كل خصوصياتنا . الا ان هذه المسألة كشفت عن وضع عالمي يتقاسمه وايانا البشر جميعا ، ووعينا ذلك سيعني الشروع في وعي ذاتنا . حقا اننا عشنا على تخوم التأريخ ، ولكن مركز المجتمع العالمي ونواته انتهيا في يومنا هـذا الى التشتت وصرنا جميعا

---

(٤) ان اميركا التي يقصدها المؤلف هنا هي امريكا اللاتينية .
(المترجمة)

كائنات تعيش على التخوم ، بما في ذلك الاوربيون والاميركان ، نعيش على الهامش حيث لم يعد هنالك من مركز .

وانصرف كتاب اخرون من الشباب أيضا الى استبطان مغزى مواقفنا الحيوية . وكانت الصفات الغالبة على اعمالهم هي الحرص الشديد على معرفتنا والدقة وعدم المحاباة . ومع ذلك فان الجزء الاعظم من كتاب هذه المجموعة ، وبخاصة اميليانو اورانغا الذي عد الملهم الاكبر لها ، ادرك ان موضوعة المكسيكي هي جزء من عملية تأمل طويلة في شيء اكثر شمولا من كل ذلك الا وهو الاغتراب التأريخي للشعوب التابعة واغتراب الانسان بعامة .

اذن لابد من ان يكون كل تأمل فلسفي أصيلا حقا ولابد من ان يكون التفكير فيه منصبا على مشكلة محددة ، اذ ذاك فقط يمكن لمادة التأمل ان تتحول الى موضوع عالمي . ويبدو ان زماننا ملائم لمشروع على هذا المستوى. اذ يحدث ، أول مرة ، الا تجد المكسيك في خدمتها مجموعة من الافكار العالمية الكفيلة بتبرير وضعنا . فأوربا ، مستودع الافكار الجاهزة ، تحيا ليومها وبمعنى ادق ، أن العالم الحديث لم تعد في جعبته أي أفكار . ولذلك يواجه المكسيكي واقعه كسائر الرجال العصريين وحيدا . وفي هذا العري سيلقى هويته العالمية الحقة التي كانت بالامس محض تطويع للفكر الاوربي . ولعل اصالة التأمل ستجسد الهوية المكسيكية ، كما هو شأن هذه الفلسفة ، في نبرة الفيلسوف وتوكيده واسلوبه حسب ، وستبقي مضمون فكره بعيدا عنها . وقد تصبح الهوية المكسيكية قناعا ، فاذا ما قدر له السقوط يوما اتاح لنا في نهاية الامر رؤية الانسان القابع خلفه . وهكذا حولت ظروف المكسيك الحالية مشروع الفلسفة المكسيكية الى ضرورة تحدونا على التفكير في مشكلات لم تعد خاصة بنا حسب ، بل انها تمس البشر جميعا . واذا كانت الفلسفة المكسيكية حقا فلسفة مكسيكية فانها ستصبح على نحو مبسط وسهل فلسفة جافة .

بوسعنا ان نؤكد الاستنتاج الانف الذكر من خلال دراسة المشكلة تأريخيا ، اذ نجد أن الثورة المكسيكية حظرت التقاليد الفكرية ، اما الحركة الثوريةفقد كشفت أنجل الافكار والمفاهيمالتي بررت وجودنا في السابق انما كانت افكارا جامدة تشل كينونتنا ، واثال علينا ، من جانب اخر التاريخ العالمي وراح يطرح مباشرة المشكلات والقضايا التي كان اباؤنا في الماضي يعيشون اثارها . غير ان وضع المكسيك الراهن ماعاد يختلف عن اوضاع البلدان الاخرى نظرا لخصوصياتنا الوطنية من حيث تطابق الازمنة التأريخية. الغموض الذي تتسم به تقاليدنا وحالة شبه الاستعمار التي نعيشها وغيرها . ولعلها المرة الاولى في التأريخ التي تصبح فيها ازمة ثقافتنا ازمة نوع ، ولذلك فان تأملات بول فاليري الحزينة في الاراء التي قيلت في الحضارات البائدة تجعلنا اليوم نميل الى اللامبالاة ، اذ ليست الحضارة الغربية هي التي سيؤول مصيرها الى الانهيار غدا كما حدث فيما مضى للحضارات الاغريقية والعربية والازتيكية والمصرية ، بل ان الانسان هو الذي سيتداعى . لقد أستعيض عن تعددية الحضارات التي كانت تتبجح بمفاهيم شتى ومتناقضة عن الانسان والتي كانت تطرح صورا متباينة وثرة عن المستقبل بحضارة واحدة وبمستقبل واحد . وحتى عهد قريب كان التأريخ تأملا في حقائق متضاربة ومتغايرة اقترحتها كل واحدة من تلك الحضارات وتوكيدا للتغاير الجذري لكل مجتمع ونموذج . اما الان فقد استعاد التأريخ وحدته وعاد الى ما كان عليه اصلا ، أي تأمل في الانسان . وهكذا تحل تعددية الحضارات التي انقذتها التأريخانية الحديثة في فكرة واحدة : هي الفكرة التي تؤكد لحظتنا الراهنة لان الحضارات كلها تصب في الحضارة الغربية التي استوعبت خصومها وسحقتهم ، ولابد للخصوصيات من ان تجيب عن الاسئلة التي يثيرها التأريخ وهي الاسئلة عينها التي توجه الى الجميع . لقد استعاد الانسان كله الواحد واضحت قرارات المكسيكيين تؤثر في سائر البشر » والعكس صحيح اذ ان الخلافات التي تفرق بين الشيوعيين « الغربيين »

هي دون الصراعات التي كانت تتنازع الفرس والاغريق والرومان والمصريين والاوربيين عمقا لان الشيوعيين الديمقراطيين البرجوازيين يشهرون افكارا متضادة لكنها نابعة من مصدر مشترك وهم يختلفون في لغة عالمية لكنها مفهومة لكلا الفريقين . وتبعا لما يردده المحافظون فان الأزمة المعاصرة ليست صراعا بين حضارتين مختلفتين ، بل هي انشقاق في صلب حضارتنا ، تلك الحضارة التي افتقدت الخصوم واذابت مستقبلها في مستقبل العالم . كما ان قدر الانسان بمعناه الضيق لم يعد ينأى عن قدر الانسان بمعناه الواسع . ولذا فان اي مسعى لحل صراعاتنا بدءا بالواقع الازتيكي لابد ان يتمتع بسلطة عالمية او سيحكم عليه مسبقا بالعقم .

لقد حثتنا الثورة المكسيكية على الخروج من ذواتنا ووضعتنا في مواجهة التأريخ عندما أملت علينا ضرورة خلق مستقبلنا ومؤسساتنا . غير ان الثورة المكسيكية ماتت قبل ان تحل تناقضاتنا . ففي اعقاب الحرب العالمية الثانية تنبهنا الى ان عملية خلق ذواتنا التي فرضها علينا الواقع لا تختلف عن اي عملية خلق يشترطها واقع مماثل على الاخرين ، واننا ، كسائر سكان المعمورة، نعيش منعطفا حاسما ومعنويا ، أيتاما للماضي ، وازاء مستقبل لابد من خلقه . اما التأريخ العالمي فهو مهمة جماعية ، واما متاهتنا فهي متاهة البشر ، كل البشر .



الفصل الثامن

ايامنا

من خلال البحث والعثور المؤقت على ذواتنا قدر للحركة الثورية ان تغير المكسيك وتصيرها مكسيكا « أخرى » . فان يكون المرء نفسه يعني دوما ان تتمكن من أن نكون ذلك الاخر الذي هو نحن والذي نحمله خبيئا في دواخلنا وعدا أو كينونة ممكنة على نحو يفوق أي شيء آخر . وهكذا أعادت الثورة خلق الامة على هذا النحو أو ذاك ، في هيأة أمة اخرى لا أقل أهمية عنها وتوسعت بها بين اعراق وفئات لم يقيض للاستعمار ولا للقرن التاسع عشر ضمها اليها . ولكن على الرغم مما اتسمت به الحركة الثورية من خصب غير عادي الا انها لم تفلح في الاتيان بنظام حيوي لعله كان سينطوي على رؤية للعالم وسيصبح ركيزة لمجتمع عادل وحر بحق في آن واحد ، فالثورة لم تصنع من بلدنا مجتمعا ولم تخلق حتى أملا في مجتمع : اي عالم يتعرف فيه البشر الى انفسهم من خلال بشر اخرين وحيث « مبدأ السلطة » او القوة أيا كان مصدرها أو مبررها يخليان السبيل الى سيادة الحرية المسؤولة . حقا أن أيا من المجتمعات المعروفة لم يبلغ حالة مشابهة ، ومن جانب آخر لم يكن امرا عرضيا ان الثورة لم تمنحنا رؤية عن الانسان قابلة للمقارنة بالرؤية التي جاءت بها الكاثوليكية الكولونيالية او الليبرالية وسادت في القرن المنصرم . ان الثورة ظاهرة تنتسب الينا ولكن الكثير من تحديداتها يعتمد على الظروف ذات العلاقة بالتأريخ العالمي المعاصر .

وبحسب التسلسل الزمني فان الثورة المكسيكية هي اولى ثورات القرن العشرين العظيمة ، وليس لنا الا ان ننظر اليها جزءا من عملية شاملة لما تنته بعد كيما يتاح لنا فهمها فهما كاملا . فقد اقترحت ثورتنا ، شأنها في ذلك شأن سائر الثورات الحديثة ، في المرتبة الاولى تصفية النظام الاقطاعي واجراء عملية تغيير في البلاد بالاعتماد على الصناعة والتقنية ، والقضاء على تبعيتنا الاقتصادية والسياسية واخيرا ارساء دعائم الديمقراطية الاجتماعية او بعبارة اخرى تحقيق القفزة التي حلم بها الليبراليون الاكثر شهرة وانجاز عمليتي الاستقلال والاصلاح على نحو فعلي وخلق امة حديثة من المكسيك ، شريطة ان يتم ذلك كله دونما خيانة لنا . وخلافا لذلك ، فلربما كانت تلك التحولات ستكشف لنا عن كينونتنا الحقة او عن وجه لنا نجهله ونعرفه في آن واحد ، عن وجه لما يزل جديدا برغم تقادم السنين المقبوره عليه . وكانت الثورة توشك ان تخلق لنا مكسيكا وفية لنفسها .

انتقلت البلدان « المتقدمة » عدا المانيا من النظام القديم الى نظام الديمقراطيات البرجوازية الحديثة انتقالا لا يمكننا ان ندعوه طبيعيا ، فالتحولات السياسية والاقتصادية والتقنية حدثت وتداخلت فيما بينها وكأنها مستوحاة من فكرة عليا للتلاحم . آنئذ كان للتأريخ منطقة وكان اكتشاف سر عمله ليعدل الاستحواذ على المستقبل . وهذا الاعتقاد الباطل الى حدما ما فتيء يجعلنا نرى تأريخ الامم العظمى كما لو انه تطور هائل ومهيب لمقترح منطقي . لقد انتقلت الرأسمالية فعلا على نحو تدريجي من أشكال التراكم البدائية الى صيغ معقدة باطراد لتصب بعدئذ في عصر رأس المال التمويلي والامبريالية العالمية . وترتب على انتقال الرأسمالية البدائية الى الرأسمالية العالمية تغيرات راديكالية سواء في الاوضاع الخاصة بكل بلد أم في المحيط العالمي . ونحن نلاحظ من جهة ان الفروقات بين العامل ورب عمله ـ بعد انتهاء قرن ونصف من استغلال الشعوب المستعمرة وشبه المستعمرة ـ كانت اقل حجما

من تلك الفروقات القائمة بين هذا العامل نفسه ومنبوذ هندوسي او جندي بوليفي ، ومن جهة اخرى ، أن التوسع الامبريالي اخضع المعمورة لعملية توحيد من خلال امتصاصه كل الثروات حتى الكامنه منها والقائها في تيار التداول العالمي وجعلها بضائع . وبذلك منح العمل الانساني صفة عالمية (فمهمة جاني القطن يكملها على مبعدة الاف الكيلومترات عامل نسيج آخر) . وهكذا تحققت أول مرة فعلا ، وليس مبدأ معنويا مسلما به ، وحدة الشرط الانساني ، فحطمت صروح الثقافات والحضارات الغربية وقادت الشعوب الى الدوران في فلكين أو ثلاثة جسدت مصادر قواها السياسية والاقتصادية والروحية ، في حين شاركت الشعوب التي ضمت على هذا النحو مشاركة سلبية في العملية : اي انها في السياق الاقتصادي كانت منتجة للمواد الاولية واليد العاملة الرخيصة حسب وتحولت ، في السياق السياسي ، الى مستعمرات وشبه مستعمرات وكانت ، في السياق الروحي ، مجتمعات همجية وحالمة . وأما بالنسبة الى الشعوب التي عاشت بعيدا عن المركز فان « التقدم » لم يعن ولا يعني لها التمتع بامتيازات مادية معينة بل بلوغ «الحالة الطبيعية » التأريخية ، أي ان تغدو في نهاية الامر « كيانات عاقلة » . وهذا ما كانت عليه خلفية الثورة المكسيكية وكل ثورات القرن العشرين بعامة .

قد يتاح لنا ان نرى بوضوح أكبر اين كان يكمن المشروع الثوري . تلك المهمة التي حققتها البرجوازية الاوربية في ما ينوف على مائة وخمسين عاما والتي انجزت في وقت قصير وبأقل التضحيات البشرية الممكنة . وكان لابد لنا من ان نرسخ سلفا دعائم استقلالنا السياسي وان نسترجع مواردنا الطبيعية كي تتمكن من بلوغ الغاية ، شرط ان يتحقق ذلك كله دون المساس بالحقوق الاجتماعية وحقوق العمال التي يقرها دستور ١٩١٧ تحديدا . بيد ان « فتوحات » كهذه كانت تأتي في أوربا والولايات المتحدة محصلة نهائية لقرن كامل من الصراعات البروليتارية ، وكانت وما تزال تعني في جانب كبير

منها الاسهام في الموارد التي تحصل عليها « الميتروبولي » من الخارج • غير ان الامر كان مختلفا معنا فتلك الموارد الكولونيالية التي ينبغي ان تتوزعها فيما بيننا كانت غائبة والادهى من ذلك اننا لم نكن نمتلك حتى حق التصرف في النفط والمعادن والطاقة الكهربائية والطاقات الاخرى اللازمة لاحداث عملية التغيير في البلاد ، لذلك فالمسألة لم تكن تتعلق بعملية انطلاق من البداية وانما الانطلاق من نقطة ما قبل البداية •

لقد اعتمدت الثورة الدولة الجديدة بوصفها عنصرا أساسيا في عملية التحول الاجتماعي التي كانت ترمي في المقام الاول الى استعادة الاراضي وتوزيعها ، الشروع في استصلاح اراض اخرى ، اقامة المشاريع الاروائية ، وانشاء المدارس الريفية ومصارف دعم الفلاحين • وقد تمادى الخبراء في ارتكاب اخطاء فنية مثلما تمادى الاخلاقيون من المتنفذين التقليديين والساسة الجشعين في تدخلاتهم الخبيثة •

كل ذلك كان حقيقة ، والحقيقة الاخرى هي ما كان يتوعدنا من خطر العودة الى احتكار الاراضي ، ذلك الخطر الذي انطوت عليه الكثير من الصيغ الحديثة • لذا بات الدفاع عن كل ما تعرض للغزو أمرا ضروريا ، ومع ذلك فقد آل النظام الاقطاعي الى الزوال • ويبدو من غير المعقول تناسي هذا الامر ، الا انه ماكان ليقف عند هذا الحد لان الاصلاح الزراعي عاد بالفائدة على الفلاحين وأفاد في تحطيم البنية الاجتماعية القديمة وفتح الابواب امام ولادة قوى انتاجية جديدة • اذن ، وعلى الرغم من المنجزات الكثيرة فقد ظل الآف الفلاحين يعيشون في ظروف مزرية ، والافا اخرى لم يجدوا امامهم من سبيل سوى الهجرة الى الولايات المتحدة سنويا للعمل عمالا موسميين • ولعل النمو الديموغرافي ، وهو العامل الذي لم تأخذه الحكومات الثورية الاولى بنظر الاعتبار ، يفسر لنا على نحو خاص حالة اختلال التوازن التي نشهدها في يومنا هذا • وقد يبدو من غير المعقول أيضا ان الجزء الاعظم

من البلاد كان يعاني شحة في الاراضي الصالحة للزراعة. ولكن ثمة عاملان حاسمان آخران يضافان الى ذلك هما : أولا ، ان استصلاح اراض زراعية جديدة لم يؤد الغاية المطلوبة ، وثانيا أن الصناعات الحديثة والمراكز الانتاجية لم تحقق النمو السريع اللازم لاستيعاب ذلك الفائض السكاني الذي حكم عليه بالبطالة بسبب تلك الاوضاع . وبايجاز أن مواردنا الحالية لا تؤهلنا لانشاء الحد اللازم من الصناعات والمشاريع الزراعية الكفيلة بتشغيل هذا الفائض من الايدي والافواه . لذا يبدو واضحا ان المسألة لا علاقة لها بنمو ديموغرافي فائض حسب ، وانما بقصور في التنمية الاقتصادية . يبدو جليا أيضا أننا واجهنا واقعا يتعدى امكانيات الدولة الفعلية بل امكانيات الدولة برمتها . أذ كيف يتسنى لنا الحصول على هذه الموارد الاقتصادية والتقنية ؟ ومن اين ؟ ينبغي لنا ألا نطرح هذا السؤال الذي سنسعى الى الاجابة عنه فيما بعد على نحو منفصل ، لانه يحتم علينا ان نأخذ في الحسبان مشكلة التنمية الاقتصادية بمجملها . فالصناعة لاتنمو بالسرعة نفسها التي يشترطها النمو السكاني مما يؤدي الى البطالة ، ومن ناحية اخرى فان بطالة الفلاحين تعرقل تطور الصناعة لانها تحول دون زيادة عدد المستهلكين .

قيل أن الثورة أثارت ايضا مسألة أستعادة الثروات الوطنية حينما سنت الحكومات الثورية ، وحكومة كارديناس بالتحديد ، قانون تأميم النفط والسكك الحديد وصناعات اخرى . وهي السياسة التي وضعتنا في مواجهة مع الامبريالية ، اذ كان على الثورة ان تتخلى عن اسلوب المصادرة او ان تعلقه دون التنازل عما استعادته (ولابد لنا ان نضيف هنا وان على نحو عابر انه لولا تأميم النفط لبات من المستحيل تحقيق التطور الصناعي) . ولم تقتصر الثورة على اعتماد المصادرة اسلوبا ، بل انشأت صناعات حكومية حديثة مولت من خلال شبكة من المصارف والمؤسسات المالية ، صناعات اخرى اهلية وشبه اهلية ، وعموما فقد سعت الى ادارة التنمية الاقتصادية على نحو

عقلاني وكفيل بتحقيق الفائدة للجميع • وتحقق هذا كله ، فضلا عن قضايا كثيرة اخرى ، بايقاع بطيء لاتعدم فيه العثرات والاخطاء والاساليب الملتوية. وعلى الرغم من الصعوبات والتناقضات الفظيعة التي كانت تتنازع البلاد فقد أخذ وجه المكسيك يتغير ثم بدأت تظهر شيئا فشيئا طبقة عمالية جديدة وطبقة برجوازية وعاشتا معا في كنف الثورة • ولم يقيض لهما سوى في الوقت الحاضر ان تعيشا حياة مستقلة •

اتخذت الوصاية الحكومية على الطبقة العاملة في البدء صيغة التحالف الشعبي ، اذ ساند العمال كاراتثا مقابل سياسة اكثر اجتماعية واكثر تقدما • وللسبب عينه ساندوا اوبريغون وكاييس ، اما الدولة فقد تولت من جانبها حماية المنظمات النقابية • ولكن ذلك التحالف سرعان ما تحول الى حالة من التبعية • وكافأت الحكومات القادة حينما ناطت بهم مسؤولية المناصب العليا العامة ثم اشتدت تلك العملية واكتملت في عهد كارديناس مما يبدو مثيرا للغرابة اذ ان عهده كان من أشد مراحل الثورة تطرفا • وكان القادة الذين حاربوا الفساد النقابي هم على وجه التحديد الذين تخلوا عن المنظمات العمالية•• ورب قائل يقول ان حكومة كارديناس كانت حكومة ثورية ، والامر الطبيعي في هذا هو ان النقابات قد ساندت تلك السياسة ، الا انها شاركت ، بدفع من قادتها ، في حزب الثورة اي الحزب الحاكم بوصفها قطاعا آخر من قطاعاتها • وبذلك احبطت امكانية ظهور حزب عمالي او في الاقل حزب لحركة نقابية على غرار ماهو موجود في الولايات المتحدة اي حزب لا يتعاطى السياسة ، مستقل وبعيد عن اي تدخل رسمي • وكان الرابح الوحيد هم القادة العماليين الذين تحولوا الى محترفي سياسة نوابا وشيوخا وحكاما • وعلى الرغم من كل ذلك فقد شهدنا في السنوات الاخيرة تغييرا ما ، اذ استعادت التجمعات العمالية استقلالها بحماس متنام وغيرت زعماءها المفسدين وناضلت من اجل الديمقراطية النقابية واستطاعت هذه الحركة أن تكون واحدة من

القوى الحاسمة في نهوض الحياة الديمقراطية ، ولكن نظرا للخصائص الاجتماعية التي تتصف بها بلادنا فقد كان لابد من تجنب أي طائفية يبديها بعض القادة الجدد والبحث عن تحالفات مع الفلاحين ومع قطاع جديد ينبغي ان يكون ايضا ابنا للثورة الا وهو الطبقة الوسطى لكي يجعلوا من العمل العمالي عملا فاعلا . فالطبقة الوسطى ظلت حتى عهد قريب مجموعة صغيرة من التجار الصغار و « اصحاب المهن الليبرالية التقليدية » اي (من المحامين والاطباء والاساتذة ... الخ) . وقد خلقت التنمية الاقتصادية والتجارية وتطور الادارة العامة طبقة وسطى كبيرة العدد ، كانت طبقة فجة جاهلة ثقافيا وسياسيا الا أنها تفيض حيوية .

أما البرجوازية المتنفذة والاكثر امتلاكا لزمام امورها فقد حققت استقلالها وحاولت ان تلتصق بالدولة لا رغبة في أن تحظى بحمايتها هذه المرة بل لانها الجهة الوحيدة التي تضطلع بمسؤولية الادارة . وهكذا خلف الصيرفي الجنرال الثوري وراح الصناعي فيهم يطمح الى ان يحل محل التقني والسياسي وكانت تلك الفئات تسعى ، في عملية احتكار متنامية ، الى تحويل الحكومة الى اداة للتعبير عن مصالحها السياسية ، الا ان البرجوازية لم تكن تؤلف كلا متجانسا ، فبعض الذين يعدون ورثةللثورة المكسيكية (على الرغم من انهم كان ينكرون ذلك احيانا) كانوا عازمين على خلق رأسمالية وطنية ، وبعضهم كان من الوسطاء ومن صغار عملاء رأس المال العالمي . وتبعا لما تردد ، كان داخل الدولة الكثير من التقنين الذين اداموا سياسة المصلحة الوطنية المنسجمة مع الماضي الثوري من خلال حالات من التقدم والتراجع والجرأة والتنازل . ولعل هذا كله يعطينا تفسيرا واضحا عن مسيرة الدولة المتعرجة ورغبتها في « عدم كسر التوازن » ، فمنذ عهد كاراتنا كانت الثورة المكسيكية التزاما بين قوى متضاربة اي بين القومية والامبريالية ، الحركة العمالية والتنمية الاقتصادية ، الاقتصاد المسير ونظام « المشروع الحر » واخيرا الديمقراطية والنظام الابوي الحكومي .

ان أيا من هذه المنجزات ما كان له ان يتحقق في ظل نظام الرأسمالية الكلاسيكية ، بل لولا الثورة وحكوماتها لما ظهر فينا حتى رأسماليون مكسيكيون . والحق ان الرأسمالية الوطنية لم تكن نتيجة طبيعية للثورة حسب ، وانما هي بنت الدولة الثورية وكيان من كياناتها ، بل ولولا توزيع الاراضي والامتيازات المادية الهائلة والمشاريع الحكومية ومشاريع «المشاركة الحكومية » ولولا سياسة الاستثمارات العامة والمعونات المباشرة وغير المباشرة التي قدمت للصناعة ، وعلى نحو أعم لولا تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية لما قدر لصيارفتنا و « لرجال الاعمال » ممارسة نشاطهم والمشاركة ضمن « العاملين المحليين » في اي شركة من الشركات الاجنبية ، اذ كان لامناص من تسريع «الزيادة الطبيعية » للقوى الانتاجية في بلد باشر عملية التنمية الاقتصادية بعد قرنين من التخلف . هذه الزيادة هي التي أصطلح على تسميتها بتدخل الدولة او ادارة الاقتصاد ، وهذه الاخيرة تتم على نحو جزئي . وبفضلها سار التطور في بلادنا بوتيرة أسرع واكثر ثباتا من اي عملية تطور اخرى في أميركا . ولم يكن الامر يتعلق بحالة رخاء مؤقتة او بتقدم قطاع دون آخر كقطاع النفط في فنزويلا والسكر في كوبا ، انما كان تطورا على نطاق اكثر اتساعا وشمولا . ولربما بات الملمح الاكثر اهمية فيه هو الميل الى خلق « اقتصاد منوع » وصناعة « متكاملة » اي متخصصة عمادها مواردنا .

تعقيبا على ما ذكرنا من قبل ، لابد لنا ان نضيف اننا لم نحقق حتى الساعة كل ما كان ضروريا او لازما بل لم نحقق اقل من ذلك بكثير ، فنحن نفتقر الى الصناعات الاساسية على الرغم من امتلاكنا صناعة تعدين حديثة ، ولكننا لم نصنع المكائن التي تصنع المعدات والجرارات وما لبثنا نعاني نقصا في الطرق والجسور وسكك الحديد ، اما البحر فقد ادرنا له ظهورنا حيث لاموانىء ولا بحر ولا صناعة سمكية ، واحتفظت تجارتنا الخارجية بتوازنها

بفضل السياحة والدولارات التي يحصل عليها « الاجراء المكسيكيون » في الولايات المتحدة . الا أن مايفوق هذا اهمية هو ان الرأسمال الاميركي مافتىء يزداد نفوذا وحسما في المراكز الحيوية في اقتصادنا برغم التشريعات الوطنية . وخلاصة القول هو ان المكسيك مازالت تعد من الناحية الجوهرية بلادا منتجة للمواد الاولية على الرغم من انها بدأت تعتمد على الصناعة . وهذا يعني نوعا من الخضوع لحالات التذبذب التي تشهدها السوق العالمية في داخل البلاد وخارجها ، اي بعبارة اخرى الفقر والفروقات الهائلة بين حياة الاغنياء والمعوزين والاختلال في التوازن القائم .

غالبا ما يطرح على بساط البحث التساؤل الاتي آكانت السياسة الاجتماعية والاقتصادية صائبة ام لا ، ولاريب في ان هنالك شيئا اكثر تعقيدا من التقنية واكثر جسامة من الاخطاء المرتكبة او السلوك اللا اخلاقي وغير الرصين الذي تسلكه بعض الفئات ، والحق هو أن موارد الامة بأسرها غير كافية « لتمويل » عملية التنمية الشاملة في المكسيك بل انها لاتكفي لانشاء ما اصطلح التقنيون على تسميته بـ « البنية الارتكازية الاقتصادية » اي القاعدة الصلبة الوحيدة القادرة على تحقيق التقدم الفعلي ، فنحن تعوزنا رؤوس الاموال ، وما زال الايقاع الداخلي لتحقيق رؤوس الاموال واعادة الاستثمار بطيئا بما فيه الكفاية . ولذلك فمشكلتنا الجوهرية بحسب مايردده الخبراء تكمن في الحصول على الموارد اللازمة لعملية التنمية ، ولكن اين يتم ذلك ؟ وكيف ؟ .

من السمات التي تميز الاقتصاد العالمي اختلال التوازن القائم بين انخفاض أسعار المواد الاولية وارتفاع اسعار المواد المصنعة . فبلدان من مثل المكسيك اي غالبية بلدان المعمورة ، تخضع للتقلبات المستمرة والمفاجئة التي تشهدها السوق العالمية ، وذلك ما يؤكده موفدونا الى الكثير من مؤتمرات بلدان اميركا الجنوبية والمؤتمرات الدولية الاخرى ومالم تلغ حالة التقلب

هذه سيغدو التخطيط لمشاريع اقتصادية طويلة الامد مستحيلا • ومن ناحية اخرى لن يكــون ممكنا التوصل الى تقليــص التباين المتزايد بين البلدان « المتخلفة » والبدان المتقدمة مالم تعمد هذه الاخيرة الى دفع اسعار منصفة لقاء المنتجات الاولية ، فهذه المنتجات هي مصدرنا الرئيس في الموارد وهي خير مصدر لتمويل التنمية الاقتصادية في بلدنا •ويكاد المتحقق في هذا المجال يكون معدوما او قليلا لاسباب معروفة جدا • وتؤكد هذه البلدان المتقدمة ، دونما اكتراث ، كما لو اننا مازلنا في بدايات القرن الماضي ، أن المسألة تتعلق « بقوانين السوق الطبيعية » التي قلما يكون للانسان تأثير فيهـا ، والحـق فهي تكمن في قوانين « شريعة الغاب » التي مازالت تتحكم فينا •

ولعل الاستثمارات الاجنبية الاهلية هي أحـد الحلول التي كثيرا ما تقترحها علينا البلدان المتقدمة ، وبخاصة الولايات المتحدة ، غير ان العالم كله يعرف ان هذه الاستثمارات تخرج من البلاد كأسهم وفوائد اخرى ناهيك عما يترتب عليها بالدرجة الاولى من تبعية اقتصادية ومن تدخل سياسي مـن خارج البلاد على المدى البعيد ، ومن ناحية اخـرى فان رأس المال الخاص لايعنى بالاستثمارات الطويلة الامد والقليلة الريع التي نحتاج اليها بل على النقيض من ذلك ، فان رأس المال هذا يبحث عن المجالات المربحة التي تقدم افضل وسائل الربح واسرعها ، واخيرا لايبدو أن الرأسمالـي قادر علـى الخضوع لخطة تنمية اقتصادية عامة ولا راغب فيها •

لاغرو اذن في ان يكون أفضل حل ، ولربما الوحيد ، هو استثـمار رؤوس الاموال العامة ، سواء أكانت قروضا حكومية أو عن طريق المنظمات الدولية ، فالاولـى تتضمن شروطا سياسية او اقتصادية مما يجعلنا نؤثـر الثانية • وكما بات معروفا فان الامم المتحدة ومنظماتها المختصة قد تأسست لدعم التطور الاقتصادي والاجتماعي في البلدان « المتخلفة » فضلا عن اهدافها الاخرى • اما ميثاق منظمة الدول الاميركية فهو ايضا ينص علـى مبادىء

مماثلة • وازاء الاوضاع العالمية غير المستقرة التي كانت بالدرجة الاساس انعكاسا لحالة اختلال التوازن القائمة بين « الدول العظمى » و « الدول المتخلفة » كان اتخاذ اجراء ملموس على نحو فعلي في هذا المجال يعد أمرا طبيعيا • الا ان الشيء المؤكد في ذلك هو ان المبالغ التي ترصد لتنفيذ هذه الغاية ستبدو مضحكة وبخاصة اذا قورنت بما تنفقه القوى الكبرى في ميدان المعدات العسكرية • فهذه القوى تتغاضى عما يحدث في قاع المعمورة بسبب تصميمها على كسب الحرب القادمة من خلال الاحلاف العسكرية مع حكومات عليلة لا شعبية لها وبسبب انشغالها بغزو القمر • ولذا فمن البديهي ان نجد انفسنا قبالة جدار يتعذر علينا ان نقفز فوقه أو أن نخترقه وحدنا ، صحيح ان سياستنا الخارجية كانت صائبة ولكن مما لايدع مجالا للشك اننا اذا ما اتحدنا مع شعوب اخرى تنوء بمشكلات مشابهة لمشكلاتنا سيكون بوسعنا ان ننجز الكثير • وفي هذا السياق لاتختلف أوضاع المكسيك عن اوضاع اغلب البلدان الاميركية اللاتينية والاسيوية والافريقية •

من السهولة بمكان ان نعالج مشكلة غياب رأس المال بأسلوب اخر • فمن المعروف لنا جميعا ان ثمة طريقة أثبتت فاعليتها الا وهي أن رأس المال في نهاية الامر هو جهد انساني متراكم ، والتطور العجيب الذي حققه الاتحاد السوفييتي والصين الى حدما هو تطبيق لهذه المعادلة ، فبفضل الاقتصاد الموجه الذي يحول دون حالات التبذير والفوضى التي تلازم النظام الرأسمالي وبفضل الاستخدام « العقلاني » لعدد هائل من الايدي العاملة والرامي الى استغلال موارد هي ايضا هائلة ، تمكن الاتحاد السوفيتي في غضون نصف قرن من ان يصبح المنافس الوحيد للولايات المتحدة الاميركية • اما بالنسبة الينا ، فنحن نفتقر الى السكان والى الامكانيات المادية والتقنية التي تشترطها تجربة على هذا النحو من الاهمية (فضلا عن وجودنا الى جوار الولايات المتحدة والظروف التأريخية الاخرى) • ومن ناحية اخرى فان الاستخدام

« العقلاني » لليد العاملة والاقتصاد الموجه انما يعنيان العمل بنظام القطعة ، معسكرات الاعتقال ، الاشغال الشاقة ، ابعاد الاعراق والقوميات الى الخارج ، الغاء حقوق العمال الاساسية وهيمنة البيروقراطية وسوى ذلك من معان اخرى • وقد تبين لنا أن منهج « التراكم الاشتراكي » كما كان يدعوه ستالين أشد وطأة من انظمة « التراكم البدائي » لرأس المال التي كثيرا ما اثارت بحق حفيظة كل من ماركس وانجلز • لذلك فلا أحد يساوره الشك في ان « الاشتراكية » التوتاليتارية قادرة على ان تغير اقتصاد بلد ما ، الا ان ما يثير الشك حقا هو هل انها تنجح في تحرير الانسان ، وهذه هي المسألة الوحيدة التي تعنينا وهي الوحيدة التي تبرر قيام ثورة ما •

ان بعض الكتاب من مثل اسحاق دويتشر يظن ، والحق يقال ، ما أن تعم حالة من الرخاء حتى تبتدىء لا شعوريا مرحلة الانتقال الى الاشتراكية الحقة والى الديمقراطية ولم يخطر بباله ان ذلك سيعني ظهور طبقات او طوائف ستتمتع بسيادة مطلقة على السلطة السياسية والاقتصادية • ويؤكد لنا التأريخ أنه لم يحدث قط ان تنازلت طبقة بملء ارادتها عن امتيازاتها وغنائمها ، لذا فان فكرة « الانتقال اللاشعوري » الى الاشتراكية تغدو فكرة خيالية اشبه ما تكون بخرافة « الاضمحلال التدريجي للدولة » التي ترددت على شفاه ستالين ومن جاء بعده • ومن الثابت ان التحولات في المجتمع السوفييتي ليست هي بالامر المستحيل ، فكل مجتمع هو مجتمع تأريخي وما أقصده انه مجتمع محكوم بالتحول ، والشيء نفسه ينطبق على البلدان الرأسمالية • واللافت للنظر اذن في كلا النظامين الان هو رفضهما التغيير ورغبتهما في عدم التنازل تحت أي ضغط سواء اكان داخليا ام خارجيا ، ومن هنا تتأتى خطورة هذا الوضع • اي الحرب قبل التحول •

يصبح وجود الحالات التأريخية الشاذة في ضوء الفكر الثوري التقليدي ومن منظور ليبرالية القرن الماضي كالبلدان « المتخلفة » او وجود

امبراطورية « اشتراكية » توتاليتارية في القرن العشرين امرا فاضحا ، فكثير من احلام القرن التاسع عشر نراها اليوم وقد اضحت حقيقة (كالثورات الكبرى ، التقدم العلمي والتقني وتحول الطبيعة وما الى ذلك) . لكنها حدثت على نحو متناقض ومفاجىء يتحدى منطق التأريخ الشهير . لقد تأكد منذ عصر الاشتراكيين الطوبائيين ان الطبقة العاملة ستصبح هي العنصر الرئيس في التأريخ العالمي وستحدد وظيفتها في تحقيق الثورة في البلدان الاكثر تقدما لتضع بذلك أسس تحرير الانسان . ومما لاجدال فيه ان لينين قد فكر في استحالة القيام بقفزة تأريخية وفي اناطة المهمة التأريخية التي اضطلعت بها البرجوازية ، اي التنميــة الاقتصادية بدكتاتورية البروليتاريا ، ولعله كان يحسب ان الثورات في البلدان المتخلفة ستعجل بل ستفجر عمليات التغيير الثوري في البلدان الرأسمالية لانه كان يرى ان الامر يتعلق بتحطيم القيود الامبريالية باختيار الحلقة الاضعف ، وكما هو معلوم للجميع ، فان الجهود التي تبذلها البلدان « المتخلفة » كي تبلغ مرحلة التصنيع الذاتي هي جهود ، بمعنى ما ، « مضادة » للاقتصاد وتفرض تضحيات جسيمة على السكان . وعندما يغدو مستحيلا رفع مستوى الشعوب باللجوء الى سبل اخرى فان عملية كهذه ستستلزم حقا موارد بطولية . وهكذا يصبح الاكتفاء الذاتي في نهاية الامر انتحارا . اما اذا عددناه حلا وطنيا فعندئذ سيتحول الى تجربة باهظة يدفع ثمنها العمال والمستهلكون والفلاحون . ولكن على الرغم من ذلك فان القومية في البدان « المتخلفة » ليست هي الرد المنطقي انما هي انفجار حتمي لوضع صيرته الامم « المتقدمة » وضعا يائسا لا حل له . وبالمقابل ، ربما كان الاتجاه العقلانــي في الاقتصــاد العالمي ، اي الاشتراكية ، قــد أوجــد اقتصاديات تكميلية وليس انظمة متنافسة . ولو اختفت الامبريالية وسوق الاسعار العالمية المعدلة ، اي بمعنى اذا ما الغي الربح ، لربما كانت الشعوب « المتخلفة » قد اعتمدت على الموارد اللازمة لتحقيق التحول الاقتصــادي وكانت الثــورة الاشتراكية في اوربا والولايات المتحدة قد يسرت انتقال

الشعوب جميعا ، باسلوب عقلاني وغير محسوس تقريبا ، الى العالم الحديث .

ان تأريخ القرن العشرين يسوقنا الى الشك ، في الاقل ، في قيمة هذه الفرضيات الثورية وبالدرجة الاولى في الوظيفة العالمية التي انيطت بالطبقة العاملة على قدر ما تجسد مصير العالم . ولن تتمكن ، مهما صدقت نوايانا ، من توكيد ان البروليتاريا كانت العامل الحاسم في كل التحولات التأريخية التي شهدها هذا القرن ، اذ ان اعظم ثورات عصرنا بما فيها الثورة الروسية قد تفجرت في البلدان المتخلفة وان العمال فيها مثلوا شريحة لم يكتب لها قط ان تكون حاسمة ضمن جموع شعبية واسعة من الفلاحين والجنود والبرجوازية الصغيرة والاف من البشر الذين طحنتهم الحروب والازمات ، تلك الجماهير التي لم يكن لها شكل محدد والتي نظمتها جماعات صغيرة من محترفي الثورات او « الانقلابات » . وهذا النظام ينطبق حتى على الثورات المضادة كالفاشية والنازية . ومما لاريب فيه ان اكثر ما يبعث على الحيرة هو غياب الثورة الاشتراكية في اوربا ، اي في عقر الازمة المعاصرة نفسه . ويبدو لي أن من العبث أيلاء الظروف المتفاقمة اهمية ، الا وهي وجود البروليتاريا الاكثر ثقافة والادق تنظيما وصاحبة التقاليد الثورية الاكثر عراقة في أوربا .

فقد تهيأت في أوربا غير مرة «الظروف الموضوعية» المؤاتية للاستحواذ على السلطة . وفي الوقت عينه أن كثيرا من الثورات المتفرقة ، في اسبانيا على سبيل المثال وفي هنغاريا حتى وقت قريب ، كان مصيرها القمع بلا رحمة دون ان يحظى ذلك حتى بأي تضامن عمالي عالمي . يضاف الى ذلك أننا شهدنا البربرية وهي تعود مع هتلر وشهدنا انبعاث القومية على نحو عام في ارجاء القارة القديمة جميعا ، واخيرا فبدلا من ان تعلن البروليتاريا تمردها المنظم ديمقراطيا راح القرن العشرين يشهد ولادة «الاحزاب» ، تلك التجمعات

الوطنية او العالمية التي جمعت بين الروح والنظام ، بين الكنيسة والجيش ، وهما الكيانان اللذان يبدو الانضباط والتدرج فيهمـا قيمتين حاسمتين ، وأضحت تلك الاحزاب التي لا يجمع بينها وبين الاحزاب السياسية القديمة جامع العامل المؤثر في كل التحولات التي اعقبت الحرب العالمية الاولى •

أحسب أن التناقض القائم بين المركز والمحيط بات جليا • فمنذ الفترة التي سبقت الحرب العالمية الاولى كانت تظهر باستمرار في المستعمرات أو في البلدان « المتخلفة » سلسلة من الاختلالات والتغيرات الثورية • ومالبث المد يتنامى عاما اثر عام دونما انحسار اذ تراجعت الامبريالية في اسيا وأفريقيا وحلت محلها دول جديدة ذات ايديولوجيات غامضة ، الا أنها تلتقـي في فكرتين قلما كانتا قابلتين للمزاوجة بالامس وهما القومية وتطلعات الجماهير الثورية •• ففي اميركا اللاتينية ، القارة الوادعة الى حد ما حتى تأريـخ غير بعيد ، عشنا أفول الدكتاتوريات وتصاعد موجة ثورية جديدة • وفي كـل انحاء العالم بدءا باندونيسيا وفنزويلا ومصر وكوبا وغانا كانت المكونات السائدة واحدة : القومية ، الاصلاح الزراعي ، مكاسب عمالية وفوق كل هذا وذاك دولة عازمة على تحقيق التصنيع والقفز من عصر الاقطاع الى العصر الحديث • واذا توخينا تعريف هذه الظاهرة تعريفا عاما سيغدو امرا غير ذي بال ان نعرف ان في تلك المهمة تحالفت الدول مع جماعات متنفذة بشكل او بآخر من البرجوازية المحلية أو أنها في روسيا او الصين عمدت الى الغـاء الطبقات القديمة لتتولى البيروقراطية فرض التحولات الاقتصادية • والملمح البارز في هذا والحاسم ايضا هو ان ما يحدث في البلدان « المتقدمة » ليس ثورة بروليتارية بل انتفاضة الجماهير والشعوب التي تعيش على هامش العالم الغربي • فبعد ان ربطت الامبريالية مصير تلك الشعوب بمصير الغرب هاهي ذي الان تنتفض لتسفر عن هويتها ولتعقد العزم على المشاركة في رسـم التأريخ العالمي •

اذن ثمة تباين واضح بين الرجال والصيغ السياسية التي تجسدت من خلالها انتفاضة الامم « المتخلفة » : هنا غاندي وهناك ستالين ، وعلى مبعدة منهما ماوتسي تونغ وهنالك شهداء من امثال ماديرو وثاباتا ، واخرون مهرجون من مثل بيرون ومفكرون من مثل نهرو . اذن فالمعرض متنوع ولن يختلف الامر مع كارديناس وتيتو وعبد الناصر . ولربما كان سيصعب فهم الكثير منهم ، بوصفهم قادة سياسيين ، لو انهم ظهروا في القرن الماضي او في الثلث الاول من القرن الحالي . والشيء نفسه يمكن ان يقال عن لغتهم اذ تتحد العبارات الواعدة بالخلاص بالايديولوجية الديمقراطية والثورة . لقد كانوا الرجال الاشداء والساسة الواقعيين الا انهم كانوا أيضا الملهمين ، الحالمين والديماغوجيين ، وكانت الجماهير تتبعهم لانها عثرت فيهم على ذاتها ، اما الفلسفة السياسية لتلك الحركات فكانت تفتقر الى التناغم اذ ان الديمقراطية التي طبقت بحسب المفهوم الغربي اختلطت بصيغ غير مألوفة او وحشية وهي تتراوح بين « الديمقراطية الموجهة » في اندونيسيا و «عبادة الشخصية» في الوثنية السوفيتية . ولايفوتنا ان نذكر هنا ما يكنه المكسيكيون من تبجيل مهيب لشخص رئيسهم .

والى جانب عبادة القادة والاحزاب الرسمية الحاضرة في كل مكان يحدث احيانا ان تظهر تجمعات منفتحة كما حدث في المكسيك ، يستطيع الراغبون في المشاركة في المهام العامة الانضواء تحت لوائها فعليا . وهذه التجمعات تضم بين جنبيها قطاعات واسعة من اليسار ومن اليمين كما هو حال حزب المؤتمر في الهند . ولابد هنا من ان نذكر ان من الملامح التي تجدر الاشادة بها في الثورة المكسيكية هو غياب الارهاب المنظم ، ولاريب في ان هذا يعزى الى غياب السياسة الحصيفة وشخصية الحزب المنفتحة على حد سواء . لقد أنقذنا افتقارنا الى « الايديولوجية » من مغبة السقوط في تلك المصيدة البشرية الماكرة التي آلت اليها ممارسة « فضيلة » السياسة في بعض

الانحاء . لقد عرفنا حقا العنف الشعبي ونمطا شاذا من القمع وعرفنا الاهواء المتقلبة ، العسف والوحشية ، وقبضة بعض الجنرالات الحديدية و « الامزجة السود » الا انها جميعا تظل في أسوأ لحظاتها حالات انسانية ، اعني عرضة للعاطفة وللظروف وللمصادفة وللخيال ، اذ لاشيء فيها يشذ عن روح النظام المقفرة واخلاقيته القائمة على القياس والبوليسية . غير اننا نجد في البلدان الشيوعية ان الحزب اقلية او طائفة مغلقة على نفسها ومتنفذة وهي تلعب في آن واحد دور الجيش والادارة ومحاكم التفتيش اي ان السلطة الروحية فيه والقبضة العلمانية تتوحدان في خاتمة المطاف . وبذلك ظهر نوع جديد تمامامن الدول في التأريخ لا تختلف المقومات الثورية فيه أبدا – كأختفاء الملكية الخاصة والاقتصاد الموجه – عن المقومات البالية من مثل الصفة القدسية للدولة وتأليه الزعماء . وهكذا فالماضي والحاضر والمستقبل او التقدم التقني والاساليب المبتذلة في السحر السياسي ، التنمية الاقتصادية والعبودية النقابية ، العلم ولاهوت الدولة .. كل هذا يرسم ملامح وجه الاتحاد السوفيتي العجيب والرهيب . وبذلك صار قرننا الحالي بوتقة هائلة تغلي العصور التأريخية كلها فيها وتنصهر وتتمازج .

كيف يمكن اذن للانتلجنسيا المعاصرة – وهنا اشير الى تلك الانتلجنسيا التي ورثت عن اوربا تقاليدها الثورية – الا تكون قد حللت الوضع الراهن من منظور الواقع الجديد المتجسد أمام أعيننا وليس من منظور القرن الماضي القديم ؟ ربما كان الجدال الذي دار بين روزا لوكسمبورغ ولينين عن « العفوية الثورية عند الجماهير » ووظيفة الحزب الشيوعي بوصفه طليعة البروليتارية » ، على سبيل المثال ، سيكتسب اهمية اخرى في ضوء ظروف كل من روسيا والمانيا . ولاشك في ان الاتحاد السوفيتي لايمت الا بشبه ضئيل الى ما يمكن ان تكون عليه « دولة العمال » مما كان يدور في خلد ماركس وانجلز . وعلى الرغم من كل ذلك فهاهي ذي الدولة قائمة ، ولم يأت

وجودها نتيجة زلل او « خطأ تأريخي » بل هو حقيقة هائلة وجلية بذاتها فهي تبرر نفسها بالاسلوب الوحيد عينه الذي تبرر به الكائنات الحية وجودها اي بثقل وجودها وكماله • ان فيلسوفا مبرزا من مثل لوكاش ، كرس الكثير من جهوده في ادانة « اللاعقلانية » المتفاقمة في الفلسفة البرجوازية ، لم يحاول البتة ان يحلل المجتمع السوفيتي تحليلا جادا نابعا من العقل ، أيمكن لاحد اذن ان يثبت ان الستالينية كانت عقلانية ؟ ام تراه عقلانيا لجوء الشيوعيين الى توظيف « الديالكتيك » الذي لم يكن يقتصر ببساطة على عقلنة بعض الافكار المتسلطة كما هو شأن اي حالة عصابية اخرى ؟ و « نظرية القيادة الجماعية » ونظرية « الطرائق المختلفة لتحقيق الاشتراكية » وفضيحة باسترناك ، أكان كل ذلك عقلانيا ؟• من ناحية اخرى لم يعكف اي مفكر أوربي من اليسار ولا «عالم بالماركسية» على دراسة ملامح الثورات الزراعية والقومية في أميركا اللاتينية والشرق الممحوة والمشوهة في محاولة لفهمها على حقيقتها اي بوصفها ظاهرة عالمية تشترط تفسيرا جديدا • ومن المؤكد أنني لا اقترح هجر الطرائق القديمة والتنكر للماركسية ، في الاقل أداة للتحليل التأريخي ، بيد أن الاحداث الجديدة التي تتناقض جذريا وما تنبأت به النظرية باتت تشترط ابتكار ادوات جديدة او في الاقل تطالبنا بجعل الادوات القديمة اكثر حدة ومضاء •

كتب تروتسكي بتواضع جم وبأرقى العبارات قبيل وفاته : « اذا لم تعقب الحرب العالمية الثانية ثورة في البلدان المتقدمة فحري بنا ان نعيد النظر في المنظور التأريخي العالمي كله » •

لقد كان التأريخ العالمي هو المصب الذي انتهت اليه الثورة المكسيكية• فواقعنا ونظامنا و « زمننا التأريخي » باستثناء بعض الفروقات الطفيفة لا يختلف عن وضع بلدان أخرى في أميركا اللاتينية وفي الشرق وفي افريقيا • وعلى الرغم من أننا تحررنا من الاقطاعية ومن القيادات العسكرية والكنيسة،

الا ان مشكلاتنا تظل واحدة في جوهرها ، وهي كثيرة ويتعذر حلها ، ناهيك عن الكثير من الاخطار التي تحدق بنا وكثير من الاغراءات بدءا بـ « حكومة الصيارفة » اي الوسطاء وانتهاء بالنزعة القيصرية ، وبين هذه وتلك هناك الديماغوجية القومية والصيغ المتشنجة الاخرى التي تسود الحياة السياسية. وفضلا عن ذلك فمواردنا المادية شحيحة ، ولما نعلم بعد كيف نستثمرها كلها ، وادواتنا الفكرية تفوقها فقرا ، اذ اننا قلما فكرنا لأنفسنا ، فكل ما شاهدناه وما تعلمناه كان في اوربا وفي الولايات المتحدة . والكلمات العظمى التي حققت لشعوبنا ميلادها تنطوي اليوم على معان مخطوءة ، ولا أحد يدرك على نحو دقيق الام ترمي هذه العبارات من مثل « ان فرانكو ديمقراطي وهو يمثل جزءا من العالم الحر » وكلمة الشيوعية انما تشير الى ستالين ، والاشتراكية تعني اجتماع السادة المنافحين عن النظام الاستعماري . كل شيء يبدو كما لو انه خطأ فادح ، وكل شيء حدث كما لو انه ما كان يجب ان يحدث ،نقول هذا طلبا لبعض العزاء لانفسنا ، لكننا نحن الذين ارتكبنا الخطأ وليس التأريخ . اذن لابد لنا من ان نتعلم كيف ننظر الى الواقع وجها لوجه ، وان نبتدع ، اذا ما اضطررنا الى ذلك ، كلمات وافكارا جديدة كي نعبر عن تلك الحقائق الجديدة والغريبة التي طرأت على حياتنا . ولعل التفكير هو المسؤولية الاولى التي يتحتم على الانتلجنسيا الاضطلاع بها ولربما تغدو في بعض الاحيان واجبها الاوحد .

وبعد كل هذا ما العمل ؟ لم تعد ثمة وصفات جاهزة . الا أن هناك بداية صالحة الا وهي ان مشكلاتنا انما تخصنا نحن وهي من صلب مسؤولياتنا ، ومع ذلك فهي ايضا مشكلات الجميع ، لان اوضاع شعوب أميركا اللاتينية هي اوضاع السواد الاعظم من الشعوب التي تحيا على تخوم العالم . لقد تخلينا أول مرة منذ قرابة ثلاثمائة عام عن كوننا مادة خاملة تنفذ فيها رغبات المتنفذين . واذا كنا محض اشياء تجدنا الان وقد اصبحنا عناصر فاعلة في

المتغيرات التأريخية ، في حين تؤثر مواقفنا أو محاولاتهم الغاءنا على حياة القوى العظمى • أما صورة العالم الحالي بوصفه صراعا دائرا بين عملاقين (وما يتبقى هم اصدقاء ومساعدون وخدم وانصار بالضرورة الحتمية) فهي صورة سطحية الى حد ما • لان خلفية التأريخ المعاصر او الاحرى جوهره انما تكونه الموجات الثورية للشعوب التي تحيا على تخوم العالم • فالاتحاد السوفيتي كان يرى في تيتو حقيقة بغيضة لكنها حقيقة لا يمكن تجاهلها ، وهذا ينطبق على عبد الناصر ونهرو في نظر الغرب • أهو جبهة ثالثة ، ام ناد جديد للامم ، ام ناد للفقراء مانراه يتشكل اليوم ؟• لعل الوقت مازال مبكرا ولربما هو متأخر لأن التأريخ يمضي مسرعا وايقاع نمو المتنفذين يفوق ايقاع نمونا ولكن قبل ان يتحول جمود الحياة التأريخية الى تحجر أبدي ، مما سيعني حالة « تعادل » بين الدول العظمى ، مازالت امامنا امكانيات للعمل المكثف الحاذق •

يبدو أننا نسينا وجود الكثيرين ممن هم على شاكلتنا ، من المشتتين والمستوحدين • فنحن المكسيكيين يعوزنا حس جديد لمواجهة الحس الذي تتميز به بلدان أميركا اللاتينية • هذه البلدان التي تحيا اليوم يقظتها ، فهل ترانا تاركيها وحيدة ؟ ثمة اصدقاء لنا مجهولون في الولايات المتحدة وأوربا والصراعات الدائرة في الشرق ترتبط بنحو او بآخر بصراعاتنا • واذا لم تكن قوميتنا مرضا عقليا او وثنية ما فلابد لها من ان تصب في حالة بحث عالمي ، ولابد لنا ايضا من ان ننطلق من وعينا ان الاغتراب الذي نحياه تشاطرنا اياه غالبية شعوب العالم • وأن نكون نحن انفسنا يعني ان نقابل بوجه الانسان المتغير الزحف الجليدي التأريخي وسيكون من الاجدى لنا الا نمتلك وصفات جاهزة ولا براءة اختراع في حلول نعالج بها سوءاتنا ، اذ مازال بمستطاعنا في الاقل ان نفكر وان نعمل بقناعة وتصميم •

قد لاتختلف الغاية من دراستنا التأملية هذه عما يؤرق أناسا آخرين او شعوبا اخرى : كيف سيتسنى لنا ان ننشيء مجتمعا او ثقافة لا يتنكران لانسانيتنا ولا يحيلانها الى محض تجريد عبثي ؟ ان السؤال الذي يطرحه الجميع على انفسهم لا يخرج عما يطرحه المكسيكيون فكل ما نستشعره من ضيق وكل هذا العنف الذي يسم ردود افعالنا وحالات الانفجار في دواخلنا وتلك الانفجارات المباغتة في تأريخنا التي كانت في البدء قطيعة وانكارا للصيغ المتحجرة التي تقمعنا انما يرمي الى الحلول في حالة من البحث وفي محاولة لخلق عالم يخلو من الكذب ، من الايمان الزائف ، من المواراة ، من الجشع الذي لايغرب ومن العنف والتصنع ، وترمي ايضا الى خلق مجتمع لا يصنع من الانسان اداة للمدينة او مرعى لها ، بل الى خلق مجتمع انساني .

يتوارى المكسيكي خلف اقنعة شتى قد يسقطها ذات يوم او ذات عيد او مأتم بالاسلوب نفسه الذي قوضت فيه الامة تلكم الصيغ التي راحت تضيق الخناق عليها . الا اننا لما نجد بعد ذلك القناع الذي تتصالح فيه الحرية والنظام والكلمة والفعل تصالحا لا يقوم على يقين خارق بل على يقين انساني او على نحو أدق على يقين من هم اشباه لنا . وفي حالة البحث تلك حدث ان تراجعنا غير مرة لنتقدم ثانية الى الامام بعزم اكبر . اما الان فقد بلغنا الحافة سريعا ، اي في غضون بضعة اعوام استنفدنا الاشكال التأريخية جميعا ، تلك الاشكال التي كانت ملكا لاوربا . ولم يتبق لنا سوى العري والكذب . وبعيد تهافت العقل والايمان والالهة واليوتوبيا ، الشامل هذا ، لن تقوم ثانية نظم فكرية ، حديثة كانت او قديمة ، نظم قادرة على احتواء سأمنا والتخفيف من تخبطنا . لم يعد امامنا من شيء ، وها نحن في نهاية الامر مستوحدون كسائر البشر ، مثلنا مثلهم نحيا في عالم العنف والتصنع و « اللامؤاحدة » ،

عالم الوحدة المغلقة التي تقهرنا حينما تذود عنا وتلغي كياننا وتشله حينما نختبىء فيها • فاذا ما نزعنا عن وجوهنا هذه الاقنعة واذا ما انفتحنا على العالم ، واذا ما واجهنا انفسنا حينئذ سنكون قد بدأنا حقا رحلة الحياة والتفكير • وهنالك في تلك الوحدة المنفتحة حيث تنتظرنا ايادي مستوحدين آخرين سنبلغ حالة السمو الروحي ، وسيحدث اول مرة في تأريخنا أن نغدو معاصرين لجميع البشر •

ملحق

جدلية الوحدة



الوحدة ، ان تشعر انك وحيد ، ان تدرك وحدتك ، ان تكون منتزعا من العالم ، خارج ذاتك ، منفصلا عنها ، ليست هي بالمشاعر التي يتفرد بها المكسيكي حسب ، لان البشر جميعا في لحظة ما من حياتهم يخالجهم شعور بأنهم مستوحدون ، بل هم جميعا مستوحدون الان . وأن نحيا ، يعني أن ننفصل عما كنا كي نغور فيما سنكون .. في ذلك المستقبل الغريب ابدا . فالوحدة هي قرارة الشرط الانساني الاخيرة ، والانسان هو الكائن الوحيد الذي يستشعر الوحدة وهو الوحيد الذي يمضي حياته في بحث عن الاخر . ولئن كان بوسعنا التحدث عن الطبيعة عند الاشارة الى الانسان ، ذلك المخلوق الذي اجترح نفسه تحديدا عندما رفض الطبيعة ، فان طبيعته هذه لتكمن في توقه الى التحقق في الاخر . وبهذا السياق يسمي هذا الانسان حنينا وبحثا عن التواصل مع الاخر ، ولذلك فكلما داخله احساس بذاته ، تجسد احساسه ذاك افتقادا للاخر ووحدة .

ان الفرد لايكون الا من خلال العالم الذي يحف به . والجنين ، بهذا المعنى ، هو حياة خام خالصة وتدفق جاهل ذاته . فنحن ساعة مولدنا ، نقطع الاسباب التي كانت تصلنا بحياة العشو التي عشناها في رحم الام حيث لا انفصال بين الرغبة والشبع . ولهذا فان احساسنا بالحياة يفصح عن نفسه انفصالا وقطيعة وحرمانا وسقوطا في عالم شرس غريب . وكلما كبرنا

استحال احساسنا الفطري هذا شعورا بالوحدة ومن ثم وعيا بأننا محكومون بالعيش مستوحدين ، غير أن تجاوزنا وحدتنا وأعادتنا الصلات التي كانت تربطنا ذات ماض فردوسي بالحياة لن يلغيا شعورنا بأننا مستوحدون . وعلى الرغم من ان جهودنا كلها ترمي الى الغاء هذه الوحدة ، الا أن الاحساس بها يكتسب معنى مزدوجا هو وعينا ذاتنا وهو ايضا رغبتنا في الخروج منها ، الا ان الوحدة التي هي شرط حياتنا نفسه تبتدىء اختبارا وتطهيرا لنا ، وبانتهائها يتلاشى ما نشعر به من برم وحيرة لأن ما ينتظرنا عقب الخروج من متاهة الوحدة هو الكمال واللقاء استقرارا وسعادة وانسجاما مع العالم .

جسدت لنا اللهجة الشعبية هذا الازدواج حينما جعلت من الحزن صنوا للوحدة اذ أن لوعة الحب هي لوعة الوحدة ، اما التواصل مع الاخر والوحدة والرغبة في العشق فهي تتضارب فيما بينها ويكمل بعضها بعضا ، لتشف القوة المنقذة من الوحدة عن فكرة غامضة ونابضة : انها فكرة الذنب أي ان الانسان وحيد « لان الله لايمد اليه يده » . نعم ، الوحدة لوعة ، ادانة وتكفير وقصاص لكنها وعد بنهاية منفانا . والحيوات كلها مسكونة بهذه الجدلية .

ان الولادة والموت هما تجربتان في الوحدة . فنحن نولد مستوحدين ونموت مستوحدين . ولاشيء يفوق الولادة ، ذلك الغوص الاول في عالم الوحدة ، خطورة سوى هذا السقوط الاخر في غياهب المجهول اي الموت . ولكن سرعان ما تصبح تجربة الموت وعيا له ، الا ان الاطفال والرجال البدائيين لا يؤمنون بالموت او على نحو ادق لا يعرفون للموت وجودا على الرغم من أن هذا « الموت » يعتمل سرا في داخلهم . اما الانسان المتحضر فان اكتشافه الموت لم يأت متأخرا قط ،لان النذر والدلائل كلها كانت تذكره بأنه ميت لامحالة . ولذلك أمست حيواتنا درسا يوميا في الموت ، ان لم نقل ان الحياة تلقننا الموت اكثر مما تلقننا العيش الا انها لاتحسن ذلك التلقين .

وهكذا تمضي حياتنا بين الولادة والموت ، وحينما يلقى بنا خارج صومعتنا الأمومية، نقفز قفزة اليمة وعيمقة حقا لن تفضي بنا الى سوى السقوط في الموت • أترى الموت اذن يعني ان نعود الى هناك ، الى حياة ما قبل الحياة ؟ ام تراه يعني ان نحيا ثانية حياة ماقبل الولادة ، تلك الحيا ةالتي يكف السكون والحركة ، الليل والنهار ، الزوال والخلود عن التناقض فيها ؟ ام تراه يعني أن نمتنع تماما عن الكينونة وعن الوجود ؟ هل الموت هو الحياة الحقة ؟ أو باتت الولادة موتا والموت ولادة ؟ هيهات ان نعرف ، لأن كل مافي كينونتنا يتوق الى الهرب من هذه الأضداد التي تمزقنا • واذا كان كل شيء (وعي الذات ، الزمن ، العقل ، العادات ، والتقاليد) يسعى الى ان يجعلنا منبوذين من الحياة ، فكل شيء ايضا يحثنا على العودة وعلى الهبوط في الرحم الخالق الذي انتزعنا منه • ومادام الحب رغبة وجوعا الى التواصل مع الاخر والى السقوط والموت والانبعاث لذا تجدنا نطلب اليه ان يمنحنا كسرة من الحياة الحقة ومن الموت الحق ، الا أننا لا نطلب اليه السعادة ولا الطمأنينة ، بل لحظة ليس غير من حياة كاملة تنصهر فيها الاضداد ويتآلف فيها الموت والحياة والزوال والخلود لاننا نعلم على نحو مبهم ان الحياة والموت هما حركتان متناقضتان ، لكنهما متكاملتان لحقيقة واحدة • وعلى النحو نفسه يندغم الخلق والدمار معا في حالة انصهار عند ممارسة الحب ، وفي جزء من الثانية تلوح للانسان الحالة الابلغ كمالا •

يكاد الحب في عالمنا يكون تجربة صعبة المنال • فكل شيء يقف على الضد منه : الاخلاق ، فئات المجتمع ، القوانين ، الاعراف والعشاق انفسهم • وكانت المرأة دوما بالنسبة الى الرجل هي « الاخر » نقيضه ومكمله ولكن اذا ما هفا جزء من كينونتنا الى التوحد بها فان جزءا اخر لا يقل عنه تأثيرا سيسعى الى ابعادها واقصائها • المرأة شيء رائع تارة وضار تارة أخرى ، بل هي دوما شيء مختلف عنا • وعندما يعمد الرجل الى « تشييئها » او عندما

يحيلها الى كائن هامشي ويسقط عليها كل التشويهات التـي تمليها عليـه مصلحته وغروره وسأمه وحبه فانه يجعل منها محض اداة يتوسل بها لادراك المعرفة واللذة او سبيلا للبقاء على قيد الحياة. ولربما تكون المرأة معبودة ، الاهة ، أما ، ساحرة او ملهمة كما تقول سيمون دي بوفوار لكنها لـن تفلح ابدا في ان تكون هي نفسها ولذلك تبقى علاقاتنا الايروسية محكومة بالرذيلة منذ البدء ، فثمة شبح ينهض بيننا وبين المرأة ، الا وهو شبح صورتها التي نرسمها عنها وتستعرض بها نفسها . لاننا قلما تتمكن من لمسها جسدا لايعي ذاته ، اذ تنزلق بيننا وبينها فكرة الجسد الخاضع ، الذليل الذي يهب نفسه. وهي بدورها يراودها الاحساس عينه ، لانها لاتشعر بذاتها ولاتدرك كنهها ، الا بوصفها « شيئا » أو الاخر . ولم يكتب لها قط ان تصبح سيدة نفسها ، لان كينونتها منشطرة بين ماهي عليه حقا والصورة التي ترسمها عن نفسها ، تلك الصورة التي أملتها عليها الاسرة والمجتمع والمدرسة والصديقات والدين والحبيب . اما انوثتها فنادرا ما تفصح عن نفسها لانها تتجسد مـن خـلال صيغ ابتكرها الرجل . واما الحب فماهو بالفعل الطبيعي في نظرها بل شيء انساني او بعبارة ادق الاكثر انسانية او أنه خلق : شيء من صنع ايدينا لا من صنع الطبيعة ، شيء صنعناه وما زلنا نصنعه يوميا ونهده كل يوم .

الا ان هذه ليست هي العوائق الوحيدة التي تقف حائلا بين الحـب وبيننا . فالحب انتقاء او اختيار حر لقدرنا واكتشاف مباغت للجزء الاكثـر سرية وقدرية في كينونتنا . بيد أن اختيار الحب يكاد يكون مستحيـلا في مجتمعنا ، اذ يذكر اندريه بريتون في واحد من أروع كتبه (الحب المجنون) أن ثمة أمرين محرمين كانا يعيقان اختياره في الحب منذ ولادته وهما النهي الاجتماعي والفكرة المسيحية عن الخطيئة ولذا كان لابد للحب من ان يخالف قانون العالم كيما يتحقق لكنه اضحى في زماننا هذا فضيحة وفوضى ومخالفة كما لو أنه كوكبان يحطمان قدرية مداريهما ليجدا نفسيهما وسط الفضاء .

كما ان المفهوم الوحيد الذي نعرف عن الحب هو مفهوم الحب الرومانسي الذي تترتب عليه قطيعة وفجيعة مادام كل شيء في المجتمع يحول دون ان يكون الحب اختيارا حرا .

ولهذا تحيا المرأة أسيرة الصورة التي يفرضها عليها المجتمع الذكوري . لأنها لاتستطيع ان تختار شيئا سوى ان تقطع صلتها بذاتها ، ولكم ألف الناس أن يقولوا عن امرأة عاشقة « لقد غيرها الحب وصيرها انسانا آخر » . وهذا حقيقة . فلطالما صنع الحب من المرأة كائنا آخر ، واذا هي جرؤت على الحب، على الاختيار او جرؤت على ان تكون هي نفسها ، وقتئذ لا مهرب لها من تهشيم الصورة التي يكبل العالم بها كينونتها .

الرجل ايضا لا يقوى على الاختيار ، لان حلقة امكانياته ضيقة جدا . فعندما يكون طفلا ، يكتشف الانوثة في أمه وفي شقيقاته ، ومذاك يدخل الحب في دائرة كل ماهو محرم . ومفهومنا الايروسي أيضا محكوم بالخوف وباغواء الزنا بالمحارم . ومن ناحية أخرى نجد أن الحياة العصرية تستثير حسيتنا على نحو لاضرورة له وتقمعها في الوقت نفسه بكل ضروب التحريم الطبقي والاخلاقي وحتى الصحي . ويصير الذنب حافزا الى الرغبة ورادعا لها . اذن كل شيء يقيد اختيارنا ويجعلنا مرغمين على اخضاع صبواتنا الدفينة لتلك الصورة الانثوية التي يمليها علينا وسطنا الاجتماعي ، لذلك يصعب علينا ان نغرم بشخص ينتمي الى عرق اخر او يتحدث بلغة اخرى او ينتمي الى طبقة أخرى وان كان ليس مستحيلا ان يفضل رجل اشقر امرأة زنجية ، أو أن تؤثر هؤلاء الزنجيات رجالا صينيين . ولاهو بالمستحيل ان يهوى السيد خادمته أو أن يحدث العكس والممكنات المشابهة لهذه كثيرة وتجعلنا نحمر خجلا . وبسبب من عجزنا عن الاختيار هذا تجدنا ننتقي زوجاتنا من بين النساء اللائي « يناسبننا » . غير أننا لا نعترف أبدا بارتباطنا ، وربما الى الابد ، بأمرأة قلما أحببناها ، امرأة عاجزة عن الخروج من ذاتها والظهور

على حقيقتها على الرغم من انها مغرمة بنا . اما الجملة التي ذكرها سوان : « تدور في خلدي أحلى سني عمري التي بددتها مع امرأة لم تكن من طرازي » فلربما يكررها اغلب الرجال العصريين ساعة مماتهم .. وسترددها النساء أيضا .

يفهم المجتمع الحب ، خلافا لطبيعة هذا الاحساس . اتحادا راسخا مكرسا لانجاب الابناء ويقرنه بالزواج . وكل شذوذ عن هذه القاعدة تنزل به عقوبة تتفاوت قسوتها بحسب الزمان والمكان (وبقدر تعلق الامر بنا فهذه العقوبة في اغلب الاحيان تكون مميتة . اما اذا كان المخالف هو المرأة ، فثمة في المكسيك وسائر البلدان الاسبانية الاميركية الاخرى اخلاقيتان سائدتان تحظيان بتأييد الجميع وهما : اخلاقية السادة واخلاقية الاخرين اي الفقراء : النساء والاطفال) . ان الحماية التي يحظى بها الزواج قد تلقى لها مسوغا اذا ما سمح المجتمع بالاختيار حقا . ولما كان لايفعل ذلك فحري بنا اذن قبول فكرة ان الزواج هو ليس أسمى غاية يتحقق فيها الحب بل صيغة قانونية واجتماعية واقتصادية لها غايات تختلف عن غايات الحب اذ ان استقرار الاسرة يكمن في الزوا ج الذي يتحول الى محض اسقاط للمجتمع ، واسقاط لاهدف له سوى امتاع هذا المجتمع نفسه ، وهذا ما يفسر لنا الطبيعة الضاربة في التحفظ التي يتسم بها الزواج ، ولكن اي طعن في الزواج سيعني تقويض الاسس التي ينهض عليها المجتمع .. ومن هنا يغدو الحب ايضا عملا لا اجتماعيا ، وان كان لايقترح ذلك . فكلما بلغ الحب تحققه هدم الزواج وحوله الى مالايبغيه المجتمع الا وهو الكشف عن حالتين من الوحدة تنشئان وحدهما عالما يحطم الكذب الاجتماعي ويلغي الوقت والعمل ويعلن اكتفاءه الذاتي . ليس غريبا اذن أن يلاحق المجتمع بالحقد نفسه الحب والشعر الذي هو شهادته ويلقي بهما في غياهب السرية ، الى الخارج الى العالم المائج والغامض ، عالم المحرمات والترهات والشواذ . ولاغرو ايضا ان يتفجر الحب والشعر بصيغ غريبة صافية قد تكون فضيحة او جريمة او قصيدة .

لذا كانت حماية الزواج تشترط ملاحقة الحب والتسامح مع البغاء ان لم يكن هذا يعني الترخيص فيه رسميا . ومازال غموض البغي يحمل دلالته : انها كائن مقدس لدى بعض الشعوب ، واما بالنسبة الينا فهي كائن منبوذ حينا ومرغوب فيه حينا اخر ، وهي صورة ساخرة للحب وضحيته ورمز للقوى التي يمتهنها عالمنا . بيد اننا لن نكتفي بكذبة الحب الذي ينطوي على وجود البغاء . ففي بعض الاوساط تصاب الروابط التي تجعل من الزواج امرا مقدسا بالوهن وتختلط الامور . كما ان الانتقال من مخدع الى اخر لم يعد يعني أي اباحية . وقد أصبح الرجل ، هذا الساحر الذي لا يقوى على الخروج من ذاته لان المرأة كانت دوما اداة لزهوه وهما له ، رمزا للماضي كما هو شأن الفارس الجوال اذ لم يعد أمامه من أحد يغويه ولا عذارى يطلبن نجدته ولا خطر محدق يقضي عليه . كما ان الايروسية المعاصرة تنطوي اليوم على مفهوم مغاير لمفهوم الماركيز دوساد ، لأن ساد كان يجسد الطبع المأساوي وكان ممسوسا على نحو مطلق . اما أعماله فكانت تعد كشفا انفجاريا عن الشرط الانساني ، واما ابطاله فلا أحد يفوقهم يأسا . والايروسية المعاصرة هي صورة بلاغية وتمرين ادبي وحالة من الرضا وليس كشفا عن الانسان بل وثيقة اخرى عن مجتمع يشجع الجريمة ويدين الحب ، أفتراها تعني حرية العاطفة اذن ؟ وكف الطلاق ايضا عن كونه فتحا ، ولم يعد يعني تسهيل مهمة الغاء الروابط القائمة بل السماح للرجال وللنساء بان يختاروا بحرية . ففي المجتمع المثالي يكاد يكون الدافع الوحيد للطلاق هو زوال الحب او ظهور حب جديد . ولكن في مجتمع يتمتع الجميع فيه بحق الاختيار يغدو الطلاق خطأ في التسلسل التأريخي او حالة منفردة كالبغاء والفوضى والزنا .

يزعم المجتمع انه كل واحد يحيا بذاته ولذاته . الا اننا اذا ما ادركنا أن المجتمع كل لا ينفصم فهو في داخله يحيا حالة من الانشقاق بسبب الازدواجية التي ربما تمتد جذورها الى تلك اللحظة التي انطلق الانسان فيها من العالم

الحيواني ، ولما اصبح بوسعه استخدام يديه صنع نفسه ووعيه واخلاقه .
المجتمع اذن نظام يعاني حاجة غريبة لتبرير كل غاياته ورغباته . وفي بعض الاحيان تتفق غايات المجتمع التي تتوارى خلف اقنعة الاخلاق السائدة مع رغبات الافراد الذين يشكلونه او احتياجاتهم ، وفي احايين اخرى تتناقض تلك الغايات مع تطلعات فئات وشرائح مهمة فيه ، وليس غريبا ان تنكر فيه غرائز الانسان الدفينة . وحينما تأزف هذه اللحظة يحيا المجتمع أزمة : أما ينفجر واما يصاب بالركود ويصبح الافـراد الذين يكونونـه ادوات لا روح فيها .

تعبر الازدواجية الملازمة لكل مجتمع ، تلك الازدواجية التي يتطلع هذا المجتمع الى حلها بتحوله الى محض جماعة ، عن نفسها في عصرنا الراهن بصيغ شتى منها الصالح والطالح ، المباح والمحـرم ، المثالي والواقعـي ، العقلاني واللاعقلاني ، الحسن والقبيح ، الهجوع والسهاد ، الاغنياء والفقراء ، البرجوازيون والبروليتاريون ، السذاجة والوعي ، والخيال والفكر . فالمجتمع يسعى بحركة لا تقاوم من كينونته البحتة الى تجاوز هذه الازدواجية والـى تحويل هذه المجموعة من التناقضات المنفردة التي تؤلفه الى نظام متسق . بيد ان المجتمع الحديث يرمي الى حل ازدواجيته من خلال الغـاء جدليـة الوحدة التي تجعل الحب ممكنا . اما المجتمعات الصناعية ، وبغض النظر عن فروقاتها « الايديولوجيـة » والسياسية والاقتصادية ، فانها تسعى جاهـدة الى تحويل الفروقات النوعية اي الانسانية الى نماذج كمية موحدة . فطرائق الانتاج الواسع انما تطبق ايضا على الاخلاق والرسم والاحاسيس . واذا ما الغيت التناقضات والاستثناءات فستخلق بذلك سبل الوصول الى التجربـة الاعمق التي تهبها الحياة للانسان والتي تكمن في التوغل في الواقع بوصفه كلا واحدا تتحالف فيه الاضداد . ان السلطات الحديثة تلغي الوحدة بمرسوم ومعها تلغي الحب ، تلك الصيغة السرية والبطولية للتواصل مع الاخـر .
ومن هنا كان الدفاع عن الحب نشاطا لا اجتماعيا وخطيرا دوما ، ومن ثم

أصبح حقا ثوريا . الا ان وضع الحب في زمننا الحاضر يكشف لنا كيـف ان جدلية الوحدة في صيغتها الابلغ ترمي الى احباط نفسها بسبب ما يكيده له المجتمع .. وحياتنا الاجتماعية انما ترفض على الدوام كل امكانية لتواصل ايروسي اصيل مع الاخر .

لعل الحب واحد من الامثلة الاكثر سطوعا عن هذه الغريزة المزدوجـة التي تقتادنا الى استغوار ذواتنا والغوص فيها ، وفي الوقت نفسه الى الخروج منها وتحققنا في ذات اخرى . اي في الموت والبعث وفي الوحدة والتواصل مع الاخر . الا ان الحب ليس المثال الوحيد على ذلك . ففي حياة كل انسان ثمة سلسلة من المراحل هي ايضا مراحل افتراق والتقاء وهجر ووصل . وكل واحدة منها محاولة لتخطي وحدتنا لتتبعها حالة غوص في اجواء غريبة .

يواجه الطفل واقعا يتعذر اخضاعه لكينونته فلا يستجيب لدوافعه في بادىء الامر بسوى البكاء أو الصمت . ثم يحاول اعادة خلق الحبل المقطوع الذي كان يصله بالحياة من خلال الحب واللهو . وهكذا يبتدىء حوارا لن ينتهي حتى يردد حوار موته الاحـادي الطرف ، غير ان صلاتـه بالعالـم الخارجي لن تبقى صلات سلبية مثلما كانت عليه في حياة ماقبل الولادة . لان العالم يطالبه الان بالاجابة ، والواقع لابد له من ان يكون مسكونا بأفعاله . لذلك سرعان ما تكتسب طبيعة المراهقين الخاملة التي لا تختلف عـن طبيعـة كرسي ما او كتاب ما او اي شيء اخر حياة خاصة بها . ومن خلال اللهـو والخيال ومن خلال الطبيعة السحرية التي تتسم بها اللغـة او مـن خـلال الايماءات او الرموز او الافعال يشرع الطفل في خلق عالم حي تتمكن فيـه الاشياء من الاجابة عن أسئلته . فاللغة العارية من مدلولاتها الفكرية لم تعد تكون مجموعة من الرموز ، بل تصبح نظاما دقيقا للجذب السحري . امـا التجسيد فقد يعدل عملية نسخ حقة للشيء . وينطبق هذا على النحت لدى الانسان البدائي ، اذ أنه ليس تجسيدا بل هو بديل من الشيء المجسـد .

ويعود الكلام ثانية كي يصبح نشاطا خلاقا للحقائق اي نشاطا شعريا • وهكذا يشيد الطفل عن طريق السحر عالما على وفق صورته ، وبهذا الاسلوب يجد حلا لوحدته ، ثم يعود ليتوحد بمحيطه • غير ان صراعه ينشأ في اللحظة التي يتوقف فيها عـن الايمان بسطـوة كلماته او ايماءاته ويبتدىء وعينا أيضـا متمثلا بعدم ثقة في الفعل السحري لادواتنا •

قدتغدو المراهقـة ايضا قطيعة مع العالم الطفولي ولحظة توقف أمـام عالم المراهقين • وفي هذا السياق يشير « سبرنغر » الى أن الوحدة علامة فارقة من علامات المراهقة فنرسيسيوس المستوحـد صورة طبق الاصل للمراهـق والانسان يكتسب وعيه بتفرده أول مرة في هذه المرحلة • بيد ان جدليـة المشاعر تتدخل من جديد ، وهذا يعني ان المراهقة على رغم كونها وعيا متطرفا للذات لكنها لايمكن تخطيها الا من خلال نسيان الذات او العطاء• لان المراهقة هي سن الوحدة وهي ايضا عهد علاقات الحب الكبرى والبطولة والتضحية، ولذلك يخال الشعب البطل والعاشق شخصين مراهقين ، واظنه على حق في ذلك ، لان الصورة التي ألفناها عن المراهق المستوحد ، المتقوقع داخـل نفسه الذي تتنازعه الرغبة والحياء تكاد تتلاشى اليوم وسط مجموعـات الشباب الذين يرقصون ويغنون ويتنزهون معـا ، او في صـورة عاشقين يتنزهان تحت الاشجار الخضر المتشابكة التي تظلل قارعة الطريق • ان المراهق ينفتح على العالم ، على الحب ، على العمل والصداقة والرياضة والبطولة ، لذلك نجد _ اذا ما استثنينا الادب الاسباني الذي لا يطرح سوى نماذج من الصعاليك والايتام _ أن الاداب الحديثة لدى الشعوب تعج بالمراهقين المستوحدين الذين يحيون حالة بحث عن التواصل مع الاخر : عن خاتم ، عن سيف وعن رؤية ما ، اذ تبدو المراهقة شراعا من الاسلحة ينطلق فيـه المراهق الى حيث عالم يمور بالاحداث •

اما النضج فلا يعد مرحلة من مراحل الوحدة لأن الانسان الذي يعيش في صراع مع الاخرين ومع الاشياء ينسى ذاته في هذه المرحلة في العمل، وفي الابداع و فيخلق الاشياء والافكار والمؤسسات ويتوحد وعيه الشخصي بوعي الاخرين . ويبدأ الوقت باكتساب معناه وغايته ليغدو هو التأريخ : تلك العلاقة النابضة والمهمة بالماضي وبالمستقبل . والحق ان تفردنا النابع من دنيويتنا ومن توغلنا القدري في زمن انما هو نحن . زمن يلتهمنا عندما يمنحنا زاد بقائنا ، لا يلغى بل يزداد رهافة و خلاصا بصيغة او باخرى . اذ يتوغل وجودنا في التأريخ الذي يستحيل على حد تعبير اليوت « نموذجا للحظات لازمن لها » . وبذا يتحول الانسان الناضج الذي يتهدده خطر الوحدة في عصور الخصب الى حالة شاذة . ويؤشر اصطدامنا المتواتر هذا بفئة المستوحدين فداحة الخطر الذي يتربص بنا . لذلك بات الانسان في عصر العمل الجماعي هذا اكثر وحدة من اي زمان مضى لان الانسان المعاصر لا يمنح أي شيء مما يفعل نفسه ، فثمة جزء فيه ، ولعله الجزء الاعمق ، يظل دوما سليما ومتيقظا . أما العمل « ذلك الاله العصري الوحيد » فلم يعد خالقا، اذ يستجيب هذا العمل الابدي ، اللامتناهي للحياة دونما غاية ترجى من المجتمع الحديث . وهذه الوحدة المبهمة التي يولدها في الفنادق والدوائر وورش العمل ودور السينما هي ليست بالاختيار الذي يشذب الروح ولاهي بالمطهر اللازم لتطهيرها بل هي ادانة مطلقة وهي مرآة لعالم لا منفذ له .

يتجلى المعنى المزدوج للوحدة ـ التي هي قطيعة مع العالم وسعي الى خلق عالم اخر ـ واضحا في مفهومنا عن الابطال والقديسين والمخلصين . فالخرافة ، السيرة ، التأريخ والقصيدة تؤشر كلها مرحلة الوحدة والاعتكاف التي غالبا ما تكون أولى مراحل الشباب وترهص بالرجوع الى العالم والى العمل بين البشر ، انها سنوات الاعداد والدراسة ، بل هي تحديدا سنوات التضحية ، التوبة ، الاختبار ، التكفير والتطهر . ولذا فالوحدة قطيعة مع

عالم زائل وتهيؤ للرجوع الى الصراع الاخير . وقد أضاء ارنولد توينبي هذه الفكرة بالشواهد الكثيرة التي اوردها : أسطورة كهف افلاطون وسير حياة القديس بولص وبوذا ومحمد وميكافيلي وداتني .. لقد عرفنا جميعا الوحدة في حياتنا الخاصة وفي طفولتنا المغلولة وعرفنا الاعتكاف كيما نطهر أنفسنا وكيما نعود فيما بعد الى ذواتنا .

ان جدلية الوحدة او « الحركة الثنائية للانسحاب والعودة » كما اصطلح على تسميتها أرنولد توينبي لترتسم على نحو جلي في تاريخ الشعوب قاطبة . ولعل المجتمعات القديمة الاكثر بساطة من مجتمعنا تجسد هذه الحركة خيرا منا .

اذن لن يستعصي علينا ان نتخيل الى اي مدى تصبح الوحدة حالة خطيرة ومريعة للانسان البدائي ، هذا المصطلح الذي يستخدم عبثا وعلى نحو يفتقر الى الدقة . فكل نظام المحرمات المعقد والصارم وكل نظم الحضارة البالية وطقوسها انما تقصد الابقاء على الانسان بمنجى من الوحدة . ولهذا تغدو الجماعة مصدر العافية الوحيد ويصير المستوحد انسانا سقيما او غصنا متيبسا لامناص من اقتطاعه وحرقه ، لان المجتمع نفسه سيتهدده الخطر اذا ما افترس المرض احد عناصره . ان ديمومة المواقف والاشكال العلمانية تؤمن لنا بقاء الجماعة في اطار الزمن وكذلك وحدتها وتلاحمها على حد سواء : في حين ان الطقوس التي يمارسها الانسان البدائي وحضور ارواح الموتى حضورا دائما تؤدي الى خلق وسط او محور للعلاقات التي تحد من العمل الفردي وتنجي الانسان من الوحدة والجماعة من الفرقة .

لذا فالانسان البدائي يرى ان العافية والمجتمع والفرقة والموت مفردات متكافئة ومن يرحل بعيدا عن مسقط الرأس « يفقد انتماءه الى الجماعة وان كانت في حالة وفاته ستجري له المراسم الجنائزية المتعارف عليها » . أما النبذ الدائم فهو يعدل عندها الحكم بالموت . كما ان توحد

الجماعة الواحدة في المجتمع بأرواح اسلافها وتوحد أولاء الاسلاف بالارض يتجسدان على نحو واضح في الطقس الرمزي الافريقي الاتي : « عندما يعود مواطن من كيمبرلي بصحبة امرأة اقترن بها ، فانهما يتزودان بحفنة من تراب الارض التي أقاما بها • ويتعين على المرأة ان تتناول كل يوم شيئا من ذلك التراب لتألف المقام الجديد ، فهذا القليل سيجعل الانتقال بين كلا المقامين يسيرا » • من جانب آخر فان التكامل الاجتماعي بين الجماعة يتخذ « صفة عضوية وحيوية » والفرد هو عضو في جسد بالمعنى الحرفي للكلمة • ولهذا السبب نجد ان الاحاديث الفردية بين الجماعة ليست مألوفة• «ولا يسكن لأحد ان ينجو أو أن يدان بمعزل عن الاخرين اي دون ان تؤثر فعلته في كل افراد الجماعة » •

وعلى الرغم من كل هذه الاحترازات فان الجماعة لن تظل بمأمن من الفرقة ، اذ بوسع اي شيء ان يفرقها : الحروب ، النعرات الدينية ، تبدل نظم الانتاج والغزوات • ومتى ما تفرقت ألفى كل فريق منها نفسه ازاء وضع جديد أو ازاء الوحدة• والوحدة التي هي حصيلة القطيعة مع مركز العافية الذي كان يجسده المجتمع القديم المغلق لم تعد تهديدا او طارئا بل هي الشرط الجوهري والقرار الاخير لوجوده • لـذا يتجلى الحرمان والاهمال كما لو انهما وعي بالخطيئة ، وهذه الخطيئة ليست خروجا عن قاعدة بل هي جزء منها او على نحو ادق باتت سمة لها • فالوحدة والخطيئة الاصلية يتوحدان معا • والعافية والتواصل الجماعي يمسيان مصطلحين مترادفين الا انهما يشغلان حيزا من ماض غابر ، ويخلقان العصر الذهبي ، المملكة التي عاشت قبل التأريخ والتي ربما يقدر لنا بلوغها يوما اذا حطمنا سجن الزمن • وبذا تولد ، من خلال وعي الخطيئة ، الحاجة الى الخلاص ، وهذه الحاجة ستخلق بدورها الحاجة الى وجود المخلص •

وهكذا تظهر لنا ميثولوجيا جديدة ودين جديد • وخلافا للمجتمع القديم سيبدو المجتمع الجديد منفتحا ومتدفقا لانه تشكل من المنفيين • ان ولادة الزمان وسط جماعة لم تعد تكفي كي تحدد للانسان انتماءه ، لانها هبة من الاعلى وليس له الا أن يكون أهلا لها • ولذلك فهو يزيد من ابتهالاته على حساب السحر وتزيد طقوس الشروع في تلك الابتهالات من حدة طابعها التطهري : ففكرة الخلاص تأتي مترافقة مع التأمل الديني والزهد واللاهوت والتصوف ويكف القربان والتناول عن كونهما وليمة طوطمية ، اذا ما كانا حقا تلك الوليمة ، ليصبحا اسلوبا للاندغام في المجتمع الحديث ويسوت اله ما. غالبا ما يكون الها ابنا ، سليل قدامى الالهة الخالقين ليبعث على نحو دوري : انه اله الخصب ، وهو اله الخلاص • اما التضحية التي يقدمها فهي هبة تصور لنا الجماعة من خلالها على الارض ذلك المجتمع الفاضل الذي يترقبنا في الجانب الاخر من الموت ، حيث ينبض هناك في ذياك الامل حنين الى المجتمع القديم وحيث تنبض العودة الى العصر الذهبي خبيئة في ثنايا الوعد بالخلاص •

قد يتعذر علينا الاحاطة بكل المقومات التي أوجزناها آنفا عند دراسة التأريخ الخاص بكل مجتمع ، ومع ذلك مازالت ثمة مقومات تكاد تتطابق مع كل تفاصيل الدراسة المجملة السابقة • لنأخذ ، على سبيل المثال ، ولادة الديانة الاورفيوسية، اذ يبدو من نافلة القول ان عبادة أورفيوس[1] ظهرت عقب الكارثة التي المت بحضارة « أخائيا » الاغريقية وأفضت الى حالة من التشظي الشامل في العالم الاغريقي والى مصالحة واسعة النطاق بين الشعوب والحضارات • وهكذا أوجدت الحاجة الى اعادة خلق الروابط الاجتماعية المقدسة الغابرة

---

(1) أورفيوس : في الميثولوجيا الاغريقية هو شاعر وموسيقي سحر بانغامه حتى الوحوش الضارية . حاول أن يعيد زوجته الى الحياة فسلب بغنائه عقول الهة الجحيم . (المترجمة)

تلك العبادات السرية التي كـــان يمارسها « أولئك الاشخاص الذين قاسوا الاجتثاث ونقلوا الى أمكنة اخرى وأعيد لم شملهم على نحو مصطنع والذين كانوا يحلمون بعودة صيغة منظمة لم يفلحوا في الانفصال عنها وكان القاسم المشترك بينهم هـــو كونهم ايتاما » • (وهنا سأشير اشــارة عابرة الى آن أورفانوس لا تعني اليتم حسب ، بل أيضا الفراغ • والوحدة واليتم فعلا هما في نهاية الامر تجارب الفراغ) •

تبين لنا ديانات اورفيوس وديونيسيوس[٢] بوضوح ، شأنها شــأن الاديان البروليتارية التي ظهرت في نهاية العالم القديم ، عملية انتقال المجتمع المغلق الى المجتمع المنفتح • فوعي الذنب والوحدة والتكفير يلعب في داخل هذه الاديان الدور المزدوج عينه الذي يلعبه في الحياة الفردية •

ولهذا فالشعور بالوحدة والحنين الى جسد انتزعنا منه هو حنين الى المكان • وتبعا للمفهوم الموغل في القدم المتداول بين الشعوب جميعا نجد أن ذلك المكان ماهو الا مركز العالم او « سرة » الكون ، اذ يتماثل احيانا مـــع الفردوس وكلاهما يتوحد بذلك المكان الاسطوري او الحقيقي الذي هـــو اصل الجماعة • كان الموتى من الازتيك يرجعون الى ميكتلان ، ذلك الموضع الذي هاجروا منه والواقع شمالا ، اذ تشير طقوس تشييد المدن او محـــلات السكنى جميعا الى البحث عن هذا المقام المقدس الذي أقصينا عنه ، ولهذا تشغل الامكنة المقدسة برمتها : روما ، القدس ومكة مركز العالم او ترمـــز اليه وتجسده وما الحج اليها سوى تكرارات طقسية لتلك الشعائر التي كانت تؤديها الشعوب ذات ماض اسطوري قبل الاقامة بالارض الموعودة • وتعزى عادة الطواف حول البيت او المدينة قبل اجتياز عتبات الابواب ايضا الـــى الاصل نفســـه •

---

(٢) ديونيسيوس : اله الخمر والكروم عند الاغريق . ويقابله باخوس عنـــد الرومان . (المترجمة)

تأتي اسطورة المتاهة « اللابرينث » هـي الاخرى ضمـن سياق هذه المعتقدات والافكار المماثلة لها التي جعلت من المتاهة احد الرموز الاسطورية الاكثر خصبا واهمية ، اي الوجود في مركز الحصن المقدس او وسط طلسم او أي شيء آخر ، ذلك الوجود القادر على اعادة العافية والحرية الى الشعب ثم حضور البطل او القديس الذي يلج المتاهة او القصر المسكون بعد ان يؤدي شعائـر التوبـة والتكفيـر والعـودة بعـد ذلك الـى بنـاء المدينـة او انقاذهـا أو منحها الخـلاص . ولئـن أمست العناصر الصوفيـة في اسطـورة بيرسيوس[3] قلمـا تبـدو مرئيـة فـأن عناصر الزهـد و الصوفيـة يتحـد بعضهـا ببعـض في اسطـورة غريـال المقدسة[4] اي الخطيئة التي تسبب يباب الارض وعقم اجساد رعايا الملك الصياد وطقوس التطهر والصراع الروحي واخيرا الرحمة او التواصل مع الاخر .

لقد كابدنا الابعاد من مركز العالم وحكم علينا بالبحث عنه في الادغال والصحارى وفي دهاليز المتاهة وأقبيتها . وشهدنا زمنا لم يكن فيه الزمـن تعاقبا ولا انتقالا بل تدفق دائم لحاضر ثابت تلتقي فيه الازمنة كلها والماضي والمستقبل .. اما الانسان الذي انطلق من تلك السرمدية التي صـارت فيها الازمنة كلها زمنا واحدا فقد وقع في شرك « الزمن التوقيتي » وغدا أسير الساعة والتقويم والتعاقب ، فما ان يوزع الزمن على امس ويوم وغد وساعات ودقائق وثوان حتى يكف الانسان بمرور الزمن عن ان يكون واحدا ويكف عن التقاء تدفق الواقع ، لانني عندما أقول « في هذه اللحظة » تكون اللحظة

---

(٣) بيرسيوس : بطل اغريقي قطع رأس الالاهة ميدوزا .

(المترجمة)

(٤) اسطورة غريال المقدسة : غريال هي الكأس التي قدمت للسيد المسيح في العشاء الاخير وجمعت فيها فيما بعد دماؤه النازفة من جنبه . كثر استخدام هذه الاسطورة في روايات الفروسية ، اذ كانت رمزا للبحث الدائم .

(المترجمة)

قد انقضت .. ان قياس حيز الزمن يضع فاصلا بين الانسان والواقع الذي هو حاضر مستمر ويحيل كل صيغ الحضور التي يعبر فيها الواقع عن نفسه الى اشباح كما يشير بيرغسون .

لو تأملنا طبيعة هاتين الفكرتين المتناقضتين نوجدنا أن الزمن « التوقيتي » هو تعاقب متسق يخلو من أي خصوصية وهو يمضي طوال الوقت على نحو متساو ومترفع من اللذة او الالم اي انه يمضي حسب . وخلافا لذلك فان الزمن الاسطوري ليس تعاقبا متسقا بنسب متساوية لانه ينوء بكل خصوصيات حياتنا ، انه ممتد كالأزل وقصير كنفحة هواء وقد يكون نذير شؤم او بشير خير ، او خصب او محل . ولاريب في أن في هذه الفكرة تعددية زمنية ، اذ ينصهر الزمن والحياة معا ليؤلفا كلا واحدا او وحدة عصية على الانفصام ، في حين كان الزمن عند الازتيك مقترنا بالمكان وكان كل يوم مرتبطا بواحدة من الجهات الاربع ، وبوسعنا ان نقول الشيء عينه عن التقاويم الدينية . وبات العيد يفوق كونه محض تأريخ او ذكرى سنوية . انه ليس مناسبة للاحتفاء بل هو يعيد صنع الحدث ويشطر الزمن التوقيتي كي يعاود ارساء الحاضر الازلي في غضون ساعات قلائل لاتقاس . ولذا راح العيد يصنع من الزمن خالقا ، واصبح التكرار مفهومه . ان الزمن يتناسل فيرجع العصر الذهبي . أما هنا ، ففي كل مرة يقيم فيها القس شعائر القداس المقدس يهبط المسيح فعلا ويهب للبشر نفسه ويخلص العالم . كان كيركغارد يعتقد ان المؤمنين الاقحاح هم « معاصرو يسوع » . وسوى الحاضر الذي يحل التعاقب العبثي في الزمن ويقتحم العيد الديني والاسطورة هناك الحب والشعر اللذان يكشفان لنا عن هذا الزمن الاصلي الخاطف . يقول خوان رامون خيمينث[٥] « مزيدا من الزمن لايعني مزيدا من الخلود » مشيرا الى خلود

---

(٥) خوان رامون خيمينث (١٨٨١–١٩٥٨) : من ابرز رموز الشعر الغنائي في اسبانيا حاز جائزة نوبل في عام ١٩٥٦ . اتسم اسلوبه بالنقاء والعمق . من اعماله « ارواح بنفسجية » « قيظ » و « انا وحماري » .

(المترجمة)

اللحظة الشعرية . ولاريب في ان مفهوم الزمـن بوصفه حاضرا ثابتا وحالا راهنا نقيا يفوق مفهوم الزمن التوقيتي قدما ، فهو ليس ادراكا مباشرا لتدفق الواقع بل عقلنة لمضي هذا الزمن .

لعل التشعب السالف يعبر عن نفسه في التناقض القائم بين التأريـخ والاسطورة او بين التأريخ والشعر . فالزمن في الاسطورة وفي العيد الديني و حكايا الاطفال أيضا لا تأريخ له : « كان يا ما كان ... » او « حينما كانت الحيوانات تتحدث ... » او « في البدء ... » هذا البدء الذي لا يؤشر سنة معينة أو يوما محددا يشمل البدايات كلها ويدخلنا في الزمن الحي حيث كل شيء يعلن حقا بداية كل اللحظات . وبفضل الطقوس التي تحققها وتخلقها الحكاية الاسطورية والشعر وقصص الحوريات يسلم الانسان بعالم تذوب فيه كل الاضداد ، فكل الطقوس لها صفة الحدوث في هذه الساعة او في هذه اللحظة ، وكل قصيدة نقرأ انما هي اعادة خلق واحتفال طقسي وعيـد .

والمسرح والشعر الملحمي هما ايضا عيدان ، ففي التمثيل المسرجي ، كما في الالقاء الشعري ، يتوقف الزمن العادي عن الانسياب ويتنحى جانبا امـام الزمن الاصلي . وبفضل مشاركتنا سيلتقي هذا الزمن الاسطوري ، الاصلي ، أبو الازمنة كلها التي تقنع الواقع بزمننا الداخلي ، الذاتي . وهكذا يحطـم الانسان ، سجين التعاقب ، سجن زمنه اللامرئي ليبلغ الزمن الحي وتتماثل الثانية في النهاية مع الزمن حين لم يعد هذا الزمـن قياسا مكانيا واستحال نبعا وحاضرا نقيا يتخلق دونما توقف . وبفعل الاسطورة والعيد ، دنيويا كان أو دينيا يكسر الانسان وحدته ويعود ليكون واحدا مع الخلق . وبذلك تعاود الاسطورة المتنكرة والخفية والمتوارية الظهور في كل مشاهد حياتنا تقريبـا وتتدخل على نحـو حاسم في تأريخنا اي تفتـح امامنا الابواب للتواصـل الجماعي .

لقد عقلن الانسان المعاصر الاساطير لكنه اخفق في تحطيمها . فالكثير من حقائقنا العلميــة والجـزء الاعظم مـن مفاهيمنــا الاخلاقية والسياسية والفلسفية صيغ تعبيرية عن نزعات تجسدت سابقا في اشكال اسطورية . اما لغة زمننا العقلانية فهي قلما تصبح غطاء للاساطير القديمة . كما تعبـر اليوتوبيا ولاسيما اليوتوبيات السياسية الحديثة بعنف مبالغ فيه ، على الرغم من الصيغ العقلانية التي تتخذها ، عن هذه النزعة التي تحمل كل مجتمع على تخيل عصر ذهبي كانت الفئة الاجتماعية قد أنتزعت منه وسيرجع البشر اليه جميعا في يوم الايام . وتصـور لنا الاعياد الحديثـة اي الاجتماعـات السياسية . الاستعراضات ، التظاهرات والانشطة الطقسية الاخرى سلفا قيام يـوم الخلاص ذاك حيث ينتظر الجميع أن يعود المجتمع الى حريته الاصلية ، وان يستعيد البشر نقاءهم الفطري . ساعتئذ حسب سيتوقف التاريخ وسيكف الزمن (الريبة ، الاختيار القسري بين الخير والشر وبين الجور والعدل ، وبين الحقيقة والخيال) عن طحننا بضرسه ، سترجع مملكة الحاضر الراسـخ ، التواصل الابدي مع الاخر اي سينزع الواقع عنه أقنعته وسيغدو بوسعنا اخيرا ان نتعرفه ونتعرف الى اشباهنا فيه

ان كل مجتمع يحيا محتضرا او في غيبوبة العقم العقلاني يرنو الـى خلاصه من خلال اجتراح أسطورة الخلاص التي هي ايضا اسطورة الخصب والخلق اذ تحل الوحدة والخطيئة في التواصل مع الاخر والخصب . وقـد خلق المجتمع الذي نحيا فيه الان اسطورته أيضا . أما عقم العالم البرجوازي فقد آل مصيره الى الانتحار باختيار شكل جديد للمشاركة الخلاقة : هكذا هي اذن ، اذا ما استعرنا عبارة اورتيغا اي غاسيت « موضوعة زماننا » اي جوهر أحلامنا ومغزى افعالنا .

وعلى الرغم من ذلك ، يزعم الانسان العصري انه يفكر يقظا وقد اقتادنا هذا التفكير اليقظ في دهاليز كابوسية متعرجة الى حيث تتناسل في مرايا العقل غرف التعذيب ، ولكن ربما سنكتشف عند خروجنا اننا كنا نحلم باعين مفتوحة وان احلام العقل كانت احلاما مريعة ، ولعلنا حينئذ سنبدأ حلمنا ثانية وقد أغمضنا أعيننا •

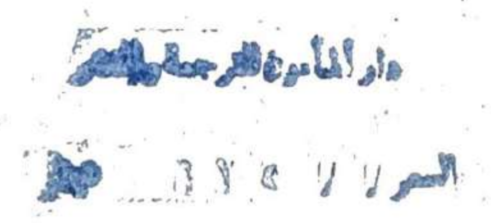
٨٦٤
ب ٢٣ باث ، أوكتافيو
متاهة الوحدة : تأملات نقدية /
أوكتافيو باث ، ترجمة نرمين ابراهيم عاجل
بغداد أ دار المأمون للترجمة والنشر ، ١٩٩٦
ص ، ١٨سم
المؤلف حائز جائزة نوبل
١ ـ المقالات مكسيكية ـ نقد أ ـ نرمين
ابراهيم عاجل (مترجم) ٢ ـ العنوان
م.و
١٩٩٦/٢٥٢

المكتبة الوطنية (الفهرسة أثناء النشر)

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق
ببغداد ٢٥٢ لسنة ١٩٩٦

متاهة الوحدة

اوكتافيو باث. الشاعر والناقد والمفكر «عقل المكسيك الاكثر توقداً» لم يزل يمضي حياته مبهظاً بكل التجارب المريرة والمدهشة على حد سواء. لم يزل يكتب ما يمليه عليه شرطه الشعري والفكري. يختزل تجاربه كلها ويقدم لنا عصارة تأملاته في الانسان والتأريخ والدين والحب والاسطورة. وتبقى الوحدة موضوعته الاثيرة وهاجسه الملحاح. فهي حاضرة في الولادة والموت، في الحب والشعر وفي الغناء والعيد. وهي المتاهة التي يجوس خلال دهاليزها ببراعة فذة وبمقدرة ثرة على التأمل الأصيل بأسلوب شائق لايعدم الشعر فيه.



تصميم الغلاف: ندى مهدي شكر

دار المأمون للترجمة والنشر